



رواية
مقتل فخر الدين

فخر الدين بن عربي

www.mlazna.com

^ RAYAHEEN ^

الدار المصرية اللبنانية

مقتل فخر الدين

عندما خطا فخر الدين خطواته الأولى في شارع العهد الجديد، أدرك أن الجو
العريب قد أحكم سيطرته... لا أحد في الشارع... أغلقت كل البيوت عيونها
وقلوبها واستسلمت لنومها الطويل... صممت بين السرايات لحظة، ثم انهل
الصوت دافعاً متفجراً من كل نافذة ومدخل وسطح... سلط فخر الدين سلطة
واحدة على وصف الشارع، في دمه الأحمر القاني... أفسح الهواء صدره
لإشارة الصمت، قصمت الرشاشات الآلية... يُطل وجه
أحد الجنود من باب بيت مقابل... غير

الشارع مسرعاً شاهراً بندقية
باتجاه الجسد الممدد على
الرصيف... اقترب في حذر
وعال عليه... دفعه بقدمه،
فقلبه على ظهره... دفعه
بركبتين متلاحقتين حتى يتأكد
من موته... رفع رأسه إلى من فوق
السطح، وأشار بإبهامه إلى أعلى.



الدار المصرية اللبنانية



مقتل فخر الدين

رواية

عز الدين شكري

الدار المصرية اللبنانية

شكري ، عز الدين.

مقتل فخر الدين : رواية لعز الدين شكري . - ط3 -
القااهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2009.

248 ص 211 سم .

تدملك : 8 - 462 - 427 - 977

1 - القصص العربية

أ - العنوان 813



الدار المصرية اللبنانية

16 عهد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 2433 / 2009

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الثالثة والطبعة الثانية لدار المصرية اللبنانية

جمادى الأولى 1430 هـ - مايو 2009 م

«اليوم أكملت الرسالة فانثروني، إن أردتم، في
القبائل توبة، أو ذكريات، أو شراعا
اليوم أكملت الرسالة فيكم
فلتطفنوا لهبي، إذا شئتم، عن الدنيا
وإن شئتم فزيدوه اندلاعا
أنا لي ، كما شئت خطاي
حملت روعي فوق أيديكم فراشات، وجسمي
نرجسا فيكم
وموتاي اندفاعا..»

محمود درويش

الوداع

و ضد من؟..

ومتى القلب - في الخفقان -

اطمان؟..

أمل دنقل

المجلات الكبيرة الصلبة تهرس الأسفلت التّديّ في سبورها الحثيث. يهتز كوبري قصر النيل من وطأة حملته ، تمرقطة السيارات أمام الأوبرا وفوق كوبري الجلاء . لا سيارات أخرى في هذا الصباح . يملأ طابور السيارات شارع التحرير . ثمة مطب فجائي مغطى بالماء المتبقي من مطر الليل . تهتز العربّة بعنف عند المطب فيترنح الجنود أنصاف النائمين ويفيقوا . يُحكم جندي قبضته على السور الحديدي الملفف حول مقاعد العربّة . ينظر الضابط الجالس على يمين السائق إليه بحنق ويتعمق بسباب خارج . يتحسس نجمته الوحيدة على كتفه ومسدسه الأسود الرابض عند يمين حزامه . يمد ساقه إلى الأمام . هي كائنة القيادة متسع لتقديمك . هدأت السيارة البيجو البيضاء التي تقود الطابور من سرعتها ، وتوقفت فتوقفت سيارات نقل الجنود خلفها تبعاً . دقائق من الانتظار . تمتع جندي نوبي بلحن خافت فأخرسه الجندي المجاور بشطيره المفاجئ . استأنفت السيارات مسيرتها . عند ميدان الدقي انحرفت السيارة البيجو البيضاء يساراً ومن خلفها سيارتا نقل للجنود . بينما استكمل الطابور سيره في شارع التحرير . هي سمعت الخامسة صباحاً ، كانت قطرات التّديّ تتحدر رويداً رويداً من أعلى كائنة القيادة على صاج السيارة الزيتي اللون . شغل الضابط مسأخات الزجاج ثم أوقفها . شد الجنود قبضاتهم على العصي المطاطية المعلقة هي أحزماتهم . عند شارع الزيات توقفت العربّة الأولى . هبط الجنود متتابعين وساروا أمام الجامعة . توقفوا في صفين.

دخلت السيارة الأخرى إلى شارع الزيات وقابلت السيارات القادمة من شارع التحرير وتوقفت سيارات نصف نقل زرقاء تحمل فرقاً صغيرة من الجنود تتسلل في الشوارع الجانبية لبيت السرايات وتصل حتى شارع السودان . أجهزة الإرسال لا تكف عن الشوشرة في أيدي الضباط المسرعين عبر الشوارع أمام جنودهم . وفتت البيجو البيضاء أمام قبة الجامعة حيث تولت أعمال القيادة والتسيطرة بالتعاون مع السيارة الجيب المجهزة بنظام التحكم الآلي . طارت الإشارات في الأثير الصباحي تحمل أوامر بسيطة وموجزة . السيارات التي أفرغت حمولتها تتسحب إلى الجامعة . باب الجامعة الأخضر المتيق يثر وهو يفتح لسيارات نقل الجنود . تدخل السيارات تباطؤاً وتتصطف أمام كلية التجارة . في الجامعة متسع للسيارات . الأحذية العسكرية الثقيلة تدب على الأسفلت المبلل ، تتطاير بضع قطرات من الماء والطين على ملابس الجنود الذين يصطفون في طوابيرهم نزولاً من السيارات . الجنود المزودون بالدروع والعصي يقفون صامتين في طابور مربع . تتقدم فرق الكاراتيه من شارع الزيات ونصار لتلتقي حول شارع العهد الجديد وتحيط به . صفوف الجنود المزودين بالدروع تتقدم لتكمل سد المنافذ الخارجية لبيت السرايات وتشق الاستحكامات السريعة من حواجز المرور ودروع الجنود وأجسامهم . تتقدم فرق القناصة القادمة من شارع السودان لتحتل أسطح البيوت العالية في شارع الطويجي الفاصل بين الدقي وبين السرايات . تتسلل في حرم فصول منهم في شارع العهد الجديد ، على سلال المنازل القديمة . كل البيوت أغلقت شبابيكها . تتمثر أقدام الجنود في صفائح القمامة في ظلمة السلم . تفر القنطط المذعورة في فزع مكتوم الصوت . طفل صغير يعلو صراخه في

الدور الأرضي ثم يسمع صوت كركبة في المنزل ويصمت الطفل فجأة .
 كموب انهنادق مغروسة في أكتاف الرجال المتمترسة على الأسطح . يحدث
 الدجاج خشخشة في عشه تهدأ شيئاً فشيئاً . يكمل الجنود سيطرتهم على
 الأسطح العالية . يحكمون نصب مدافعهم الآلية وتصويبها . تُجري قيادة
 القناصة اختبارات صامتة للتنسيق واحكام اصطياد الهدف من مركزها
 في أعلى عمارات شارع الطويجي . يستكمل الجنود سد مداخل الشوارع
 الرئيسية والجانبية . يتجمع الضباط في حلقات على المحاور الرئيسية .
 التيهجو البيضاء - أسفل قبة الجامعة - تُجري اختبارات لقياس الاستعداد
 والتنسيق بين الفصائل الأرضية والقناصة . كل شيء جاهز ، وبين المراتبات
 تحت السيطرة تماماً .

- 2 -

أخرج فخر الدين رأسه من تحت البطانية . فتح عينيه ثم أظفهما ثانية .
 بقايا الضوء الذي تسلل داخل جفنيه يوخر مقلتيه . فرك جبينه بيده ثم أسند
 ظهره للسريـر . ما الذي أيقظه مبكراً هذا الصباح ؟ لا يدري . شيء غريب
 في جو الغرفة لا يدري ما هو . نزل مُبهطاً من على السرير إلى الأرض لتحسس
 قدماء فردتي الشيشب . خارجاً من غرفة النوم إلى الصالة الصغيرة . أدرك
 فخر الدين أن هناك أمراً غريباً يسبح في هواء الشقة كلها . صمتٌ غريب
 يطبق على المكان والزمان ويمتد ليشمل الكون كله . صمتٌ جائمٌ بصدره
 على الهواء وعلى الأشياء . فتح الحنفية فلم تجئ المياه . بحث عن الماء
 في المطبخ . تقفحت حواسه والماء يجلو بقايا الحلم من ثنايا النوم في
 وجهه . الصمت الغريب يُكسب الهواء مראה . النافذة الوحيدة في الصالة

مفتوحة على ضوء بلا شمس . دعا الذي أيقظني مبكرا هذا الصباح ٩٥ بقايا
العشاء لا تزال على المائدة الصاج المربعة . هذا انصمت مبالغ فيه .

لا صوت يأتي من الخارج . حتى نقرات المطر الليلي توقفت . حتى
بحيرة الماء التي تكونت على السطح الخشبي توقفت عن تسريب قطراتها
في المطبخ . وقف فخر الدين في الصالة يحدق في النافذة المرتفعة . لا
شيء يبدو منها سوى سماء بيضاء مفعمة بسحاب رمادي داكن وقمة المنزل
المجاور . نظر فخر الدين إلى قمة المنزل المجاور وأمعن النظر . «من الذي
ضغط على نومي حتى خلق لحظته العابرة فأوقفها وأخرجني من الحلم
إلى النوم إلى اليقظة ٩٦» . نظر فخر الدين طويلا إلى قمة المنزل المجاور ثم
ارتسم على ملامحه هدوء وسلام . استدار إلى غرفة النوم .

فتح باب الدولاب الخشبي القديم . مد يده إلى جلبابه الأبيض وسرواله
الأبيض . بحث عن جوربه الأبيض والتقطه . أكمل فخر الدين ارتداء ملابسه .
حذاء كاوتشوك أبيض ، أبيض شامق ، عاد فخر الدين إلى الصالة . وجال
بنظره على الأشياء مودعا : المنضدة ، الكرسيين الخشبيين ، ساعة
الحائط القديمة ، المقعد العريض ذي القاعدة الساقطة قليلا ، طرف
السريр الباهي من الباب المؤارب ، صورته وهو صبي يرعى الغنم ، النافذة
وقمة المنزل المجاور . فتح الباب ، وخرج .

عندما حطوا فخر الدين خطوته الأولى في شارع العهد الجديد أدرك أن الجو الغريب قد أحكم سيطرته تماما . الجو الذي انسحب إلى دحل شقته وضغط على نومه فأبقيته . موجود هنا . يكاد يكس باليد ، حجرا ينحت في الهواء . صمت مرعب يشل الشارع . السادسة والنصف صباحا هي بين السرايات وعم عبده لهم واقفا . والنسوة المتزاحمت حول قنطرة الفول بملاء انهن السوداء والأطفال الزاحقين مادي الأيدي بالأطباق البلاستيك غير موحودين . إبراهيم الصايغ لا يمد حرائده على النصبية الحشوية ، بأفدة عم سليمان هي الدور الأرضي معلقة . بنات مدرسة بين السرايات القديمة لا يحملن الكتب والحقائب القماش ولا خرجن من الأبواب متمدعات ليلتقين في الشارع . النصبية الصفراء لا يتقادهون الطوب . عم سيد الحلاق لا يفتح الراديو . ودعاء الصباح لا يأتي من إداعة الشرق الأوسط . لا أحد في الشارع . النوافذ مغلقة . أبواب البيوت مغلقة . المحلات الصغيرة والأكشاك مغلقة . الماء ركد في وسط الشارع . لا يتحرك . أغلقت كل البيوت عيونها وقلوبها واستسلمت لنومها الطويل . الصمت يذبح لهواء في هد الصباح الثنائي الداكن . وجود مرعب غير مرئي ينبه العوس ويفتح إشارات لعذر . فخر الدين يسهر متمهلا في الشارع حتى نهايته . ينحرف يمينا في شارع السكري . الوجود الخفي كثيف ومنظم . عشرات العيون الخبيثة ترقبه وتسمه بعضها لبعض . مر فخر الدين من جانب مصنع الكوكاكولا متجها إلى شارع السودان ما زال الصمت شاملا . والوجود الخفي مسيطرا .

وفخر الدين سائرا . حفيف حفيف يأتي من بعيد . تزداد خطوته وعيا . يشعر بالمسافة بين موضع قدمه وموضع الخطوة القادمة.. يحطوها أسمت كل البيوت أبوابها وعبورها للصمت المسيطر ونامت وفخر الدين يسهر وحده في الشارع المقمر . لا صوت يأتي سوى خطوته وارتعشة الحزن فوق العقالين . توقف فخر الدين فجأة . انحنيت أنفاسه لحظة و تنتظر ، لم يستدر . أطلق نفسه وخطا . صار فخر الدين حلب مصنع الكوكاكولا هي تعدم السابعة إلا الربع من صباح الأول من شهر أكتوبر . صمتت بين السر بات لحظة ثم انهال الصوت داميا متفجرا من كل نافذة ومخرج وسطح متتاليا سريعا متعقبا متصلا نافذا وقائلا سقط فخر الدين سقطلة و حدة على رصيف الشارع في دمه الأحمر القاني المنساب ساخنا على روائه الأبيض . اتصل صوت الطلقات متتاليا لدقيقتين كاملتين ، أسمع لهواء صدرا لإشارة الصمت فصمتت الرشاشات الآلية، صمت شامل . أطل وجه أحد الجنود من باب بيت مقابل . عبر الشارع مسرعا شاعرا بندقيته باتجاه الجسد الممدد على الرصيف . اقترب في حذر ومال عليه . دمه بقدمه قتلته على ظهره . بان وجه القنيل . دفعه بركبتين متلاحقتين حتى تأكد موته . رفع رأسه إلى من فوق الأسطح وأشار بإبهامه إلى أعلى .

مقدمة المحقق

«ليت الفتى حجر..
يأليتني حجر...»

محمود درويش

لماذا تم تكسفي أنا بالتحقيق ؟ لا أدري . ربما صدفة وربما هي تصديري
القدر التي لا يعرف حكمته إلا متأخرين . ربما لاشتهاري بالسرعة والكفاءة
وهما عاملان كانا مطلوبين لهذه القضية . ربما وربما . الاحتمالات كثيرة .
ولكن النتيجة بالنسبة لي واحدة ، وهي أن حياتي بعد ذلك لم تعد تلك التي
عشنا قبل أن أشرع في التحقيق في حادث اختفاء فخر الدين . وأن هذا
التحقيق ، بما تضمنه من مقابلات قمت بها وأحداث اشتركت فيها ووثائق
شهدتها ووثائق اطلعت عليها وحقائق تكتشم لي ، قد ألقي بنور غير عادي
فيم تبقى من حياتي وغير من مجراها وأكسبها شكلا ما كنت أظن أبد .
أنه قد تتخذ في يوم من الأيام . وليس هنا مقام سرد قصة حياتي ولا
كيف تغيرت ، ولكني لم أستطع أن أمنع نفسي من الإشارة لذلك (ولا أدري
ما أهمية ذلك الآن) . حادث عادي . شاب في السابعة والعشرين اختفى من
محل إقامته في أول أكتوبر . إبلاغ أقسام الشرطة وعمل نشرة في الصحف .
تحقيق سريع مع أهله ومعارفه ثم إغلاق الملف وحفظ القضية . حادث
عادي يتكرر كل يوم . ولكن شيئاً غير عادي بالمرّة قد حدث وعثر من كل
ذلك . ولكن لأحاول أن أكون مرتباً .

أنا عمر فارس وكيل نيابة بمكتب النائب العام . من مواليد القاهرة .
عرب ووحيد منذ وفاة والدي . أظن في شقة متوسطة المساحة في شارع
لقصر ، يعني ، ليس لي اهتمامات محددة خارج نطاق عملي سوى ركوب
لحبل في نادي المروسية من حين لآخر . خبير تحقيقات من الدرجة الأولى
ومنخصص في القضايا المستحيلة . تم اختياري للعمل في مكتب النائب

العام بعد أن دأب أمري عقب سلسلة من التحقيقات كنت قد قمت بها في قصايا لشركات توظيف الأموال ، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعمل بالمكتب. أقصد حتى بدأت التحقيق في حادث اختفاء فخر الدين .

في أول نوفمبر ، منذ خمس سنوات بالضبط ، استدعاني محمود بك مدير المكتب وألقى إليّ بملف أبيص اللون وطلب مني دراسته . وبعد أن أمضيت نهاري في تصفح محتويات الملف عدت إليه أسأله عن المطلوب مني بالضبط . والذي فهمته منه آنذاك أن النائب العام قد تلقى بلاغات ممتدة للتحقيق في هذا الحادث وأنه مهتم جدا باستحلاء الحقيقة فيه . والذي فهمته ولم يقله مدير المكتب، أن الطلب الأساسي هو سرعة الانتهاء من القضية .

- كم من الوقت ؟

- ليس أكثر من أسبوع .

الملف صغير . صورة من البطاقة الشخصية للشخص المحتسب فخر الدين عيسى هاشم ، بيانات أساسية عن محل إقامته ، درسته ، مهنته ، عائلته ، أصدقائه... إلخ . بالإضافة إلى عدة خطابات عُمل من التوقيع موجبة للنائب العام تطلب منه التحقيق في اختفائه وتزعم أنه قُتل ، وأقوال مائمة لجيراه . لا شيء غير ذلك .

الحادث محام موقوف عن ممارسة المهنة بقرار من نقابة المحامين ، يقطن شقة مكونة من غرفة وصالة فوق سطح منزل في حي بين السرايات بمحافظة الجيزة ، متعيب عن منزله منذ أول أكتوبر . ولا أحد يعرف عنه شيئاً وما أهمية كل ذلك؟ لم أفهم وقتئذ .

* * *

في اليوم الأول بدأت التحقيق مع الجيران . صاحبة المنزل الذي يسكن فيه فخر الدين أكدت لي أنها لا تعرف شيئاً ولم تر شيئاً . وأن آخر مرة رأت فيها فخر الدين كانت مساء 30 سبتمبر . حيث عاد للمنزل في حوالي العاشرة وصعد لعرفته (هكذا تسمى شقته) ثم نزل وعاد مرة أخرى .

- وسمعت صوت السلم الحشبي وهو ينز .

- هل كان بمفرده ؟

- لا لا لا . المرحوم لم يكن من هذا النوع أبداً يا أستاذ .

- المرحوم ؟

ارتجت نظرتها وقالت . ألم يقولوا إنه مات ؟

بقية الجيران لم يروا شيئاً ولم يسمعوا شيئاً وكلهم - على غير العادة -

يردون في إبحار واقتصاب . كلهم رأوه عائداً في العاشرة مساء . ثم لا شيء

بعد ذلك . صاحب محل الكفنة آخر من تحدث معه ليلتها

- أخذ رغيف كفنة ومشى .

- .. ؟

- لا لم يقل شيئاً .

صاحب المقهى الواقع على ناصية شارع نصار حيث كان فخر الدين

يجلس كل ليلة مع أصدقائه في الشهور الأخيرة . رآه معادراً في العاشرة

إلا الربيع . بائع النقود . بائع الصحف . الحلاق صاحب التليفون الوحيد في

الشارع . يقال . كل الناس في بين السرايات وأنه مساء ولم يره أحد بعد

ذلك . بدا لي ذلك أمراً غريباً .

في اليوم التالي . سافرت إلى قريته بريف الدلتا . عمه (وزوج خالته)

لا يعرف عنه شيئاً منذ خمسة عشر عاماً . مقتصب وغير راعب في الحديث

عه لكن مضطر بحكم سلطتي والعمدة . والده نوهي قبل ولادته وأمه توهيت وهو في الرابعة من عمره حيث كفله عمه . بقية أهله الأعديين غير راعبين هي الحديث عنه ولم يروه منذ عادر القرية وهو صغير .

- لم يكن له أصدقاء هنا ؟

- لا ... لا أحد .

ولا أحد يتذكره إلا بعد تفكير طويل وأمان .

· ألم يظهر هنا خلال الشهر الماضي ؟

- وما الذي يدفعه للمجيء إلى هنا ؟ لا أحد له هنا .

★ ★ ★

في مكتب المحاماة الشهير الذي كان يعمل فيه قبل إيقافه . نفى الجميع أن يكون فخرالدين قد ظهر أو اتصل خلال الشهور الماضية ، وبالتحديد منذ فضيحة إيقافه من النقابة وما أعقبها من فصله من العمل بالمكتب . لم يتصل بعدها بهم أبدا ولم يتصل به أحد .

★ ★ ★

شيرين حسن صديقتها السابقة أو حبيبته . غير مقيمة بمصر منذ زواجها . ومن ثم لم أر مبرراً لتكثير صفو حياتها الزوجية بنقص قديمة ، وخاصة أنه من المستبعد أن يكون فخرالدين قد اتصل بها .

★ ★ ★

في اليوم الرابع ، ظلت أراجع البيانات المتوافرة لدي في الملف من أقوال في المحضر الرسمي ، وتلك التي واظنتي بها مباحث أمن الدولة وأمن الموائن والمطارات . لا يوجد مفتاح لهم احتفاء هذا الشخص ، ولا يوجد سبب للاعتقاد بوجود شبهة جنائية وراء هذا الاختفاء . ربما سافر إلى أي

مكان داخل مصر . ربما غير محل سكنه لأي سبب كان ، أو ربما أي شيء آخر هي الدنيا . وما أهمية هذا الشخص أساساً ؟

لكنني مع ذلك قررت - إخلاصاً مني لشهرتي - أن أتم عملي بالكفاءة اللازمة . وهي منع مباحث أمن الدولة وجدت إشارة إلى مجموعة أصدقائه لقدامى بالحامعة وكذلك بالمدرسة الثانوية . وتطلب ذلك مني السفر مرة أخرى إلى لدينا - إلى المنصورة هذه المرة - لمقابلة شخص يدعى ناصر الخصري ويعمل مهندساً بمشروع كهرباء طاحا والمفترض أنه كان صديق محمد الدين الحميم . ولكنني لم أعتزلهم . الشخص على أثر فائرت العودة والتخلي عن طريق قد يعقد لموضوع أكثر .

وهي اليوم السادس (يوم الجمعة . إحارتي الضائعة) فابات مجموعة أشخاص ممن كانوا على علاقة بفخر الدين هي الحامعة . وكلهم ردوا - باقتضاب - بأنهم لم يروه ولم يسموه عنه منذ فترة طويلة

* * *

وبعد مرور ستة أيام ، بدا لي الأمر مضيقاً للوقت أكثر من اللازم . ضاب غير مستقر . وعلاقته منقطعة تقريباً بكل من حوله ، اختفى من محل إقامته . وما الذي يدعو للظن بوجود شبهة جنائية ؟ عدة خطابات غفل من التوقيع تدعي أنه قُتل في بين السرايات حلف مصنع الكوكاكولا في هجر الأول من أكتوبر . الخطابات مكتوبة بخطوط يد مختلفة ومرسلة من عدة أماكن من بينها مكتب بريد الجامعة في بين السرايات نفسها . مجرد خطابات بلا توقيع يستطيع أي مراهق عايت أن يرسل العشرات منها . من يمكن أن يكون هخر الدين نفسه هو مرسلاها . وهو أمر غير مستبعد بالنظر لشخصيته الغريبة .

سألي وقتها أن احتمال القتل هذا مستبعد بالمرّة ، فلو كان قد قتل فعلا
هأين كان أهل الحي ؟ ألم يسمع أحد طلقات الرصاص المزعومة ؟ وأين
مرسلو الخطابات أنفسهم ؟ وما الذي يتمتعهم من الظهور ؟ ثم أين ذهبت
الجثة ؟ هل ابتلعها النمل أم طارت ؟ وأين آثار الجريمة ؟ لقد فحصت
بنمسي الشارع الذي تزعم الخطابات وقوع القتل فيه ولم أعر على أي أثر
لدماء أو حتى لتقرب هي الحوائط . كما أن قتل شخص وحيد وبلا أهمية بدا
لي عملا معتبرا للدافع . فلم أر له أي أعداء أو أي شخص يمكن أن يستفيد
من موته سواء هو نفسه . والذي لا بد أن يكون قد ارتاح من حياة مصنية من
الشفاء والفضل مثما أوجت لي الأقوال التي جمعتها .

ومن ثم قررت أن أغلق الباب أمام احتمال وجود دافع جنائي وراء
احتفاء هذا المواطن ، وقررت كذلك إغلاق الموضوع برمته وحفظ القضية.
ومهرت القرار بإمضائي المؤخر . وعندما سلمت الملف - في صباح يوم
السابع - للسيد مدير المكتب كان سعيدا جدا وابشع لي مؤكدا أنه كان
على ثقة من ذكائي وحسن تقديري . وكانت تلك هي أول مرة أرى فيها
إتسامة السيد مدير المكتب .

- 2 -

ثم ماذا ؟ ما الذي حدث إذن وجمعتي أعيد الخوص في هذا الموضوع
وبهذه الطريقة ؟

الذي حدث ببساطة هو أن فخر الدين قد زارني في الحظم . وأنا أعلم جيدا
أن ذلك يبدو سخيفا ، وأن القارئ لا بد أنه قد أعاد رأسه للوراء وتقلصت
عضلات وجهه امتعاضا من هذه المزاجة . ولكن هذه هي الحقيقة !

الذي حدث أن فخر الدين قد زارني في الحلم فعلا. وأنا بالمناسبة لست ممن يؤمنون بالأشباح والأحلام والأعمال السحرية وخلافه من هذه الحرافات، وأعتقد محضاً أن الأحلام هي انعكاسات نفسية لإدراك المرء لعالم من حوله ولرعايته الشخصية، وأنها رد فعل اللاوعي على المدركات الحسية التي يسجلها المرء طوال يقظته وأحياناً أثناء نومه. وما رأت أعتقد ذلك. ولكن الذي حدث لي أمر مختلف، لقد زارني فخر الدين فعلاً في الحلم. إن الأمر ليس مجرد حلم وإنما شبه زيارة فعلية. كان واضحاً جداً وخالياً من أية مبالغات ونافذ الأثر. حتى إن الانطباع الذي تركه فيّ ظل ملازماً لي فترة طويلة بعدها. وظلت بعض آثار هذه «الزيارة» لدي في درج مكتبي تلهب وجداني بل وجودي كله. ولكن لأحاول مرة أخرى أن أكون مرتباً في الرواية.

* * *

بعد أن حفظت القضية بنحو شهرين، وباتت عديدة في أول يناير، كنت غارقاً لأذني في قضية مخدرات صعبة ومعقدة كانت تستهلك كل وقتي وطاقتي. كانت قضية مرهقة من ذلك النوع من القضايا الذي نعرفه جيداً المتهمين - بل المجرمين - قبل بدء القضية بفترة، ونظل نجتهد لتدبير أدلة كافية لعمل قضية لهم. وبعد مجهودات طويلة وشاقة وأحياناً خطيرة يتم إعداد القضية وإحالة المتهمين إلى المحكمة لتتاجأ بشفرة في الإحرامات لا تخفى على محام شاطره يدخل منها لينسف القضية كلها. هي هذا اليوم - أول يناير - كنت قد عدت لتوي من محكمة جنايات نعيمة بعد أن سمعت النطق ببراءة السادة تجار المخدرات الدين كنا سمي وراءهم منذ أكثر من سنة، وكانت حالتي التسمية سيئة جداً عدت

إلى منزلي مباشرة واستعرفت في القوم على الفور ، حتى دون أن أطلع ملائيمي .

كنت واقفاً عند شاطئ النيل ، ربما عند إمبابة أو بعدها بقليل ، وكانت الحفول الحصراء تملأ المكان من حولي وتصلني عن مدينة القاهرة التي كانت تبدو بمبانيها العالية وصنعتها الملفوفة في سحب العيار بعيدة وعامضة وعبر حقيقة . جلست على الأرض الطينية الملاصقة للنهر وأخذت أرقب الماء في صمت . أرحتُ ظهري على الأرض الرطبة . كانت مريحة وحنونة وقوية . غفلت عيني لحظة أو أكثر ثم استيقظت على خرير الماء . رفعت رأسي ونظرت للماء فلمحت شيئاً يتحرك في منتصف النهر . أخذ يقترب ويتصيح . كان هو . هو فخر الدين مرتدياً جلباباً أبيض وطاقيّة بيضاء . ويبدو من تحت جلبابه سرواله الأبيض وحذاء الكاوتشوك . تملكني الفزع حين رأيته وجسدت في مكاني . اقترب أكثر فلمحت في صدره ثقباً عميقاً فاني الحمرة ومتجلفماً . اقترب أكثر ونظر إليّ ، كانت عيناه مفرورتين بالدمع ، وبمنظرة حزن قاهرة نظر إليّ طويلاً . في عيني ، ثم مد يده إلى الثقب في صدره وأخرج رصاصة نحاسية عيار 16 مل ووضعها في يدي ارتعشت . وانقبض قضيبي بشوة حين لمست الرصاصة راحة يدي . سال الدمع من عين فخر لدين . سال غزيرة حتى بلل صدر جلبابه . لكنه لم يكن يبكي . كانت ملامحه قد تجمدت على تسير الحزن القاهر البادي في عينيه . كان وجهه كأنما ينمطر ويسيل في دمه الذي لا يتقطع . وددت أن أقول شيئاً لكن الرصاصة كانت تحرق كفي كجمرة ونظروا عبثه تملأ المسافة بيني وبينه . مد يديه إلى صدر جلبابه وشقه فبان الهول في حسده ، لحم مهترئ من الثقوب كأنما احترقته عشرات الرصاصات . وجروح مفتوحة مشخنة بدماء قانية وسائلة .

طُردت إليه هي طلع وأنا أترجع للوراء . ستر حسده بجلبابه واستدار عائدا
لنهر تركة الرصاصية تحرق كفي المتصلبة عليه . اختفى شيئا فشيئا في
الماء . وعندما استيقظت كانت كفي ما زالت بحرقتي من ملمس الرصاصية .

* * *

كان قلبي غائضا ومتقيصا بقوة . هزعت للحمام وأحدث «دش» بارد ،
وتناولت قهوة ثم نزلت متوجها للمكتب . وطوال الطريق كان تبهير وجه
فخر الدين لا يمارق ذهني . وعندما وصلت المكتب أخبرني الساعي أن هناك
ظرفا كبيرا وصلني بالبريد . فطلبت معه أولا أن يحضر لي ملف فخر الدين
من الأرشيف ، وعندما جاء الملف فتحت ونظرت لصورة فخر الدين المثبتة
في الأوراق . كان نفس تعبير الحزن القاهر مرسما على وجهه في الصورة
كيف لم ألاحظ ذلك التعبير من قبل¹⁹

أجهر نظرف الوارد بالبريد على ما بقي في نفسي من ثبات . مجموعة
من الأوراق الممهورة بتوقيع فخر الدين مذكرات كتبها في فترات مختلفة
من حياته . خطابات منه إلى أصدقائه . وخطابات من بعض أصدقائه
إليه . خطابات عاطفية بينه وبين شيرين . قصص قصيرة . أشعار . صور
فوتوغرافية . مستندات رسمية تخصه وتخص بعض أفراد عائلته . وهوى
كل ذلك وفيه علبة صغيرة من الكرتون وجدت بداخلها ظرفا نحاسيا فارغا
لرصاصية صيار 16 مل . عندما لمستها احترقت راحة يدي وغارت نفسي
وكنت أغيب عن الوعي . كان ذلك أكثر مما أحتمل !

لملمت أطراف نفسي . والأوراق . وهرعت إلى منزلي . وطلبت إحارة
عازية لمدة يومين . ظللت طوال اليومين قابعا في منزلي منكبا على
محتويات هذا المظروف . كشفت لي هذه الأوراق عالما غريبا وشحسا

هريداً كنت قد بغسته حقه أثناء التحقيق الذي أحرثته ، وأدركت أن هذا التحقيق لم يكن سوى فتنة لمسائل أخرى أعمق وأكثر جلالاً . وكأنني كنت أسير على حبل يتخاطفتني نارح إلى أن أضرب إلى هذا العالم المفتوحة لي أبوابه كي أراه وأفهمه . ويدفعني ميراث قديم وطاغ أن أمر على الحبس إلى بر الأمان وأنسى الموضوع برمته . ولكن الإحساس الذي كان قد تمكنني أثناء الحلم عاد إليّ وبقوة منذ اطلعت على الأوراق . كانت هذه الأوراق كأنما تشفي بالحياة . حياة أخرى مختلفة من كل الحياة التي عرفتني من قبل حتى خيل إليّ أنني كنت ميتاً من قبل . وظل ذلك الإحساس يدفعني للمضي قدماً . عبر الحبل ، ويلقي بي داخل هذا العالم الذي أخشاه وأرعبه . وظللت ساعات طويلة أنظر إلى المظروف وأفكر ، ماذا يعني هذا المظروف ؟ وماذا يعني هذا الحلم ؟ ولماذا لم يأتني إلا في ذلك اليوم وبعد شهرين كاملين من إغلاق الموضوع ؟ ولماذا لم يأتني هذا المظروف المريب إلا ليوم ؟ وما معنى كل هذه المصادفة الهائلة بين الحلم والواقع . وكيف نأتى ذلك ؟ والرمزية ؟ كنت جالسا أمام الطرف المارح أحرق فيه دون أن أحرق على لمسه ، من الذي أطلقها ؟ وعلى من ؟ وكيف يأتيني أنا هذا الطرف الذي حرق كمي في الحلم قبل أن ألمسه أو أعرف به ؟ كان الخوف يتسلل إلى نفسي ويتمكنني حتى شعرت في النهاية أنني أفقد السيطرة على نفسي وأنني .. وأنني لم أعد أنا متلما كنت قبلها بيوم . وأدركت ، والفجر يعمد . أسي لن أستطيع أن أستكمل حياتي العادية كأن شيئاً لم يكن . وأن هناك شيئاً غير عادي وراء هذا القتل المخبئي ، وأن الخير أن أبدأ فوراً في استجلاء حقيقة هذا الموضوع قبل أن أواجه بمواقف أكثر رعباً من هذا الموقف . وفي الصباح ارتديت ملابسني وتوجهت للمكتب .

كان الأمر واضحاً . لا إعادة فتح للتحقيق في هذه الحادثة . رفض رئيسي المباشر الفكرة تماماً ، وكذلك رفضها رؤساؤه . ولم يكن أمامي من حقيقة الأمر اختيار آخر . فلم أكن فعلاً في حالة تسمح لي باستئناف العمل مرة أخرى . فطلبت إجازة طويلة كنت أهدف من ورائها إلى الراحة بعيداً عن القاهرة لتختصر من كافة المتاعب التي تعرضت لها مؤخرًا . وبدون الدخول في تفاصيل يكفي أن أؤكد أنني لم أعم بالراحة يوماً واحداً في أي مكان رحلت إليه . وأن فخر الدين لم ينقطع عن زيارتي في يومي ولم تنقطع الأوراق التي وصلتني عن إلهاب نفسي وشهد همتي . ووجدت نفسي أرحل - دون قصد مني - إلى الأماكن التي كان فخر الدين قد عاش فيها ، شيئاً فشيئاً انخرطت في البحث في حياة هذا الرجل وهي موته . ولم أتوقف عن ذلك طيلة عام كامل . هل كانت حماقة مني؟ لا أدري . ولكنني لم أملك لها دفعا . والآن وبعد هذا العام لا أستطيع إلا أن أنشر خلاصة ما توصلت إليه وما وصل إلي . أنشره على الملأ ، وهاء مني لقمة حياة هذا الرجل وهيمة موته الذي تأكد لي . وفاء مني لضميري ولصميم كل الناس الذين عرفتهم والذين حملوني مسئولية إبلاغ هذه الكلمة . وستجدون في طيات هذا الكتاب أنوايا شتى من الأوراق ، خطابات ومذكرات ومقابلات واعتراضات وغير ذلك . كتبت أنا بعضها وكتب آخرون بعضها ووصلني بالبريد بعضها .

وغاية ما فعلته أني غيرت في أسماء الناس والأماكن - بما فيها سمي ووظيفتي - حفاظاً على ما لا أملك حق التصرف فيه . ولكن يفرح جوهر الأشياء لم أسمه . وأضعه اليوم بين أيديكم إحفاقاً وانصافاً

«عمر فاروق»

ماء القل

«دعني أعانق أبي في
السرّاب..
فكلُّ سرّابٍ أبي..
وكلُّ غيَابٍ أبي»

محمود درويش

- 1 -

لوقت فجر . آخر ظلام الليل وسكون أول الفجر . ديك يصيح من حقل بعيد . نسائم آخر الليل تهز الستارة البيضاء الشفافة التي تلبأ عمدة الفراش لنحاسية . عائشة تقام على جنبها الأيمن . على شفتيها ابتسامة من رضا مطمئن . جفناها مغمضتان على عينيْن قريبتين . وبطنها عالية معلقة على الطفل المنتظر . عطاء أزرق في لون السماء القادمة من خلف لشباك المفتوح . الطفل الأربع تترع في نعشة الصبح المبلى . على قوفاها أربع ليمونات طارجات . ديك آخر يصيح وزقزقة بعيدة لعشرات المصاهير تمرر أحنحتها وتستفتح يومها . تتقلب عائشة على ظهرها لتصح وجهها في سماء الشباك المفتوح .

- هل جاء الفجر ؟

تمتمت عائشة وهي تفتح عينيها لتبصر النور الوضاء بمشاهها . ويتخللها . ويندس في أمامها . فيملؤها . ويبيض جسمها الأسمر . يمسكه ويمرره . وينساب منه . وينسحب . ويخرج من بطنها . فيملوها . ويصعد فوقها . ويلمع في سماء هراشها . ويرق . ويظهر مساببات من اثباتك . فيجتاز سماء القرية . ويمر الأفق . ويملأ الأرض من تحته أبيض . فيحيلها نهار . ناصعا . وحجارة مصبنة . وحقولا مشرقة . وتري اعترال غرقتها . وظهراتها فوق مسحب من راحة ونعومة . واستعاد الأرض في لوحة من الضوء . و نشقاق البحر الكبير تعبره فتستحم في ضوء السماء المنهمر الذي يفرها ويحمل ولهدها الذكر عائيا إلى ما لا تدرك . تطير تطير . هي نهر الضوء تسبح مراكبها الفضية في النغم المنساب على الضفتين . وتشرب ماء نقيا هيد هب

ظلموها . تملو مقدمات المراكب وتهبط . تشرع رأسها إلى أعلى فتبصر
وليدها جناحيه الأشهبين يعرق بين السحب . ويأخذ الأرض في عينيه
وهي قلبه . فتسكنه . ويطوف حولها . ويمسكها . ويمسكها في نفسه بعيد
تشكيل الطبيعة والبلاد فيه . وينثر من روحه فوقها ودخل حبالها ويعيد
قربته وسماه إلى أمه إلى منزل أبيه إلى قلل شياكها إلى ستارة هراشها إلى
رقعتها الأمنة ويرقد بحوارها في ثعاف من قماش أبيص يصع بلا نقطة
دم و حدة . ويمر ثمره من بسمه هي وجه أمه النائمة وعنه المحرق في غير
تصديق وخاله الواقف بالباب وأنائهما وزوجتيهما القابعتين حلب الباب
وأم إبراهيم المهرولة بأية الماء الساحن التي لم يستعملها أحد . إلى أهل
القرية الدين تجمعوا أمام البيت ضارين كماً بكك وهمهمات التسجب التي
استقلت عبر شوارع القرية المنحدرة نحو الطريق السريع . لسانقي سيارات
النقل الثقيل الملتفحين بعباءاتهم والدين توقفوا أمام هذه القرية الصغيرة
حين رأوا الصوة الفامر يتبعث من بيوتها . إلى أهالي القرى المجاورة . إلى
عمه الذي همس سبحانه الله فتحت عائشة عينها وقالت :
- أسميه فخر الدين . هذه وصية المرحوم أبيه .

* * *

الشارع ضيق . ويتعذر هايطا من الساحة الصغيرة هي التواء حاد نحو
الساحة الكبيرة . هنا تنتشر أشعة الشمس والأتربة . شباب القرية يلعبون
بكرة مصنوعة من الكتّة والخيوط . قائلان من الطوب الأحمر المسروقات
من قمينة الطوب هي أول الحقول يشكلان حدود المرمى . العرق وتسارع
الأنفاس والحركة المباحثة تسيطر على هواء الساحة .

كان فخر الدين يأتي هنا كل ثلاثاء مع أمه حيث تمتلئ الساحة بالملاحين

الأتين من القرى المحاورة حاملين أقمار الخضر والفاكهة والطيور .
والبيض المدحون هي الردة . خيط طويل من النسوة المتشحات بالسواد
يصعدن من الطريق الأسفلت البعيد إلى قلب الساحة . ينحني الخيط
ويتكثف عند نقاط اللحظ والتجمع . وتتنصب العربات الخشبية المغطاة
ببقايا أجولة السجاد القديمة والجبن الأصفر «بائع» الممونة . يشتد الرحام
عند الفضي وتندفع النسوة حول عربات الطماطم والخضار . تشتد قبضة
فهرالدين على يد أمه الماضية بين زحام النسوة . ويتخبط بين أردافهن
المكتنزة . يرتطم بصبي صغير يظهر فجأة وسط الرحام دافعا عربة
خشبية مصنوعة من أعطية رجاعات الكولا . لم تكن أمه لتتوقف أبدا عند
بائعات الجبن أو البيض والطيور .

عند التطهيرة عرق لرج يغطي جسمه وقدميه اللتين تسرب إليهما
لتراب هنا أكمل العمال المتشحون باليدل الميري القديمة إقامة الصوان
الكبير . قماش أحمر عيط القصب مملوء بنقوش لا تنتهي صموف طويلة
من الكراسي الحبروان الصمراء ذات المقاعد الجلدية الخضراء . هراشة
الحاج يحيى ومقعد خشبي ذو مساند على الجانبين . مرتفع . يتوسط
الكراسي كلها ويعلو عليها . عاد فخرالدين جريا إلى الساحة الصغيرة .
كان دكان خاله الذي يتوسط الساحة معلقا . قضيب حديدي غليظ يمتد
بمعرض الباب الخشبي ذي الضلعيات الأربعة . الياقطة الخشب القديمة
منتصبة عاليا فوق الباب . الشمس تضرب بوجهها في واجهة الدكان تمتد
الشقوق التي تنحدر هي الياقطة منذ زمن . تنقلص عينا فخرالدين من وهج
لشمس . يقترب من الباب ويتعسس القضيب الحديدي السامق . سحوبته
تسبح بديه . هزمت جسده التحيل لا تفلح في زحرجة القضيب الواصب

مقتل «فخر الدين» .
لقاص لمستमित. يد ملوية وطيبة تربت على كتفه المرتحة وتأخذ هي
جليابها الأسود . استكأت حينه فخر الدين إلى عيني أم إبراهيم الطيبتين
لمنلتين. سحبت من يده إلى بيت أمه هي آجر لشارع عندما دلف
فخر الدين من الباب لم يجد أحدا .

* * *

يمتد الشارع ضيقاً ثم يتسع عند مساحة مربعة تصطف على جوانبها
مخاريط البقالة وزخعة الزيت . يضيق الشارع مرة أخرى وينحدر بشدة
في اتواء نحو الترعة . كان عمه وأبوه هما للذان ربطا حدي النخلتين
ببعضهما وألقاهما على الترعة جسرا للعاشرين ، وكانا هما اللذان مهدا
المعبر وسوياه . عبر فخر الدين الجسر حدرا مثلما أوصته أمه وجرى نحو
لشط الآخر قرب نهاية الجسر . كانت أصوات لماكينة تأتي إليه منتظمة
عبر العقول . صفوف من النساء المصونة لملايس ربطت المناديل
المزركشة على رؤوسهن تتراص عند جدران لماكينة الطحين . عمه واقف
عند أعلى السور يرقب حركة الماكينة والعمال وهو مشغول بالشعر لمختلف
بياض الدقيق . يمد يده ليرفع جوال القمح عن ظهر امرأة وينزله بخفة
على الميزان ويمضي . كان أبوه يقف دائما عند الميزان ، لكنه ذات يوم
مضى داخل الماكينة ليساعد أحد العمال ولم يعد . لم يكن فخر الدين يكره
لماكينة رغم ما قاله له عمه من أنها أكلت أباه . كان يشعر بالحنين إليها
والى أبيه اتقاع فيها ، في كل مكان فيها . خلف حدار الماكينة يترفرق
حدول ربيع من الماء الدافئ الخارج منها ويلتف منحدرًا نحو الترعة ، وكان
فخر الدين يحب من هذه الترعة لصغيرة الساخنة .
حاء بداء عمه عالياً وقلقا وبظوته حامية مطمئنة مرحبة بفخر الدين

البحاري نحو ذراعيه اللتين رهناء وحملتاه نحو الميزان « 16 كهلوه »
 جلس فخر الدين حلب الميزان يرقب أجولة القمح وهي تأتي وتذهب والنساء
 تلفظ والسباب يتطاير من الأفواه في ضحك هازئ وربما يحليك يا عم
 الحاج ، وخصم نصف جوال من الأجرة « من أجل عاشوراء ومولد الشيخ
 المعجور والسيدة والحسين » والمم يضحك ويمضي بين السير والميزان :
 - عندما تكبر ، تجلس هنا مكان أبيك عيسى الله برحمه .

* * *

الصمت قابع ومسيطر على بلاط الفناء ، وعلى الأبواب ، وعلى
 جدران البيت المتساقطة الطلاء . دخل فخر الدين من الباب الكبير ،
 أضاءت عينيه ظلمة المكان وهدوء الصالة . خالته متشعبة سواد شامل
 وحائسة ووجها بين كفيها . اعتادت عيناه الظلام قليلا . وسأل نفسه
 « لماذا لا أبكي مثل الآخرين ؟ » وقف خلف الباب محتبئا . « لماذا لا أبكي أنا
 أيضا ؟ » افتح الباب الخارجي فانسكب ضوء حاد في قلب الصالة . دخل
 حاله ومن خلفه بيت امرأتان هي سواد أسود . دبت خطواتهن ثقيلة على
 أرض الصالة . انقضت خالته واقعة لرفقتهن وانداح الدع من عينيها .
 علمت ثيابها حولها وأسرعت فتحت باب الغرفة الجانبية ، دخلت وخلفها
 امرأتان وفي أقدامهن فخر الدين . اختبأ خلف المصطف المطلق على جانب
 الصوان . هنا كانت أمه تخبئ له العلوى . هنا كانت أمه تخرج الأطباء
 ذات الحواف الملونة يوم الجمعة حين تجتمع العائلة للفداء بعد الصلاة .
 هنا كانت أمه تخرج له سورة أبيه يوم زواجهما وتمسح دموعين بطرف من
 طرحتها البيضاء . هنا كانت أمه تصلي جالسة على كرسيها وهي ترمقه
 بطرف عينيها . هنا كانت أمه تقبله ، وتضمه ، وتلاعبه وهو يضر منها ضاحك

ومنادي حاله ومحتما به. تقدمت المرأة إلى الفراش النحاسي الراسي في قلب الغرفة تقدمت المرأة إلى الجسد القائم الملفوف في ملاءات بيضاء. كشفت طرف الملاء فتراجعت خالته وشدت في يدها وهي خارجة يد فخر الدين. أغلقت الباب من خلفها ووقفت إلى جواره. أنية الماء تهتز في لأيدي المهرولة إلى باب الغرفة. يفتح الباب وتدخل الأنثى وتخرج أنثى أخرى ويقر الرجال بالطارج. الخال واقف في الفناء يبحث بشاربه وعصاه تدق لأرض في رقابة. العم واقف بالباب الخارجي يصيح في شجار قصير مع رجل غريب ويناوله أوراقا مالية. هدأت حركة الماء وانست لمرأتان خارجتين من الغرفة مشمرتين المساعدين اللذين يتساقط منهما الماء فادتهما أم إبراهيم إلى طريق دورة المياه. كان فخر الدين وحيدا في الصالة المهجورة. نظر إلى الغرفة المغلقة. نظر إلى مقبض الباب الذي يحول بينه وبين الغرفة. امتدت يده إلى المقبض، فتحه، ودخل

* * *

كان حاله يسير مرتديا جلبابه الأبيض ومن فوقه القفطان البيضي اللون وعلى رأسه طربوش أحمر قان، تاركاً يده اليسرى لتعلق يد فخر الدين الصغيرة في هذه الكف الرائعة الحقو الكبيرة المطمئنة لعارة الوائفة القائدة المحتوية. ورأس فخر الدين في طاقعتها البيضاء تدور لتري انشازر والصبية والبهوت والرجال المائدين من الحقول حاملين الفئوس، والجاموس الرمادي الضخم الذي يمضغ دائما، كان فخر الدين يسير ملتفتا وهو يعلم أن يد حاله تقوده إلى شاطئ الفراش العالي النظيف، وأمه تدق عليه الماء الدافئ وهو يتملص منها قبل أن يكمل ارتداء ملابسه ليجري نحو حاله وهو يخلع قسطاته ويدلي له بالقروش والعملات الفضية

الكثيرة من حبيبه ليلعب بها ويبنى بيوتا وشوارع وقرى على ملأء المرائش البيضاء ، ويضع ساحة خاله هي سلسلتها وعلبتها والخال يخرج من المرفة ويعود بأكياس الموز والمعجوة البنية ، ويتناول فخر الدين الموز . فخر الدين يأكل وهو ينظر في عيني أمه العانيتين ، تتناول من يده فشر الموز ، وتعد يدها إلى حافة الشباك . القتل الأربع تنزع في تعفشة العصاء المبلل . على فوهتها أربع نيمونات طارجات . ترفع الأم إحدى القتل وتناولها لفخر الدين بيديه الصغيرتين . يمسك لأول مرة بالقلعة وحده ، ويشرب منها .



كان صوت المقرئ يأتي من كل أنحاء الساحة . انضت فخر الدين خلفه فسمع صوت القرآن آتيا . عاد برأسه للأمام فرأى المقرئ جالسا القرفصاء على المقعد الخشبي المرتفع وسط صفوف الكراسي . نظر فخر الدين في صفوف الجالسين فلم يعرف منهم أحدا . كان خاله وعمه واقفين عند باب تصوان يسلمان على القادمين .



فناء البيت متسع بلاط أبيض وبه خطوط حمراء تتلاقى في مستطيل أحمر كبير يتوسط المناء . في قلب المستطيل وضع فخر الدين طبقا أحمر به قرش مغمور بالماء . جلس فخر الدين أمامه ينتظر أن يتبخر الماء من الطبق بفعل الشمس مثلما قال له أحمد ابن عمه اليوم . في آخر المناء على اليمين باب خشبي صغير نصف مفتوح ومن وراءه تبدو الدجاجات التي تربىها روجة خاله وقد احتمت من الشمس . صوت خاله يأتي من الداخل أمرا زوجته بالاطمئنان على وجود ماء للشرب في عشة الدجاج . بقايا حبات الدرة الصفراء متناثرة حول باب العشة . شياكان جانبيان بواجهة

حديدية مزخرفة تطل على الغناء . على حافة الشباك صينية بيضاء بها أربع قفل كبار . بعدد خاله حسده الأسمر على حصيرة منسجاء تقترش أرض الصالة مستنداً إلى وسادة مستعارة من الكتبة الإسطنبولي العتيقة . مذبح الأخبار يرفع صوته من إذاعة صوت العرب في الراديو الأزرق العلفي على لحصيرة . خلف الراديو ربط الخال بطاريتين كبيرتين «دويارة» .

- ادخل يا فخر الدين من الحر .

جاء صوت زوجة خاله من المطبخ . هي آخر الصالة يرميل بني قديم وكبير به منبور نحاسي أصفر . تحته طست بني تأكلت حواشه وامتلأ حتى المنتصف بماء وبقايا صابون . يرمل الخال ابنه إلى بيت عم فخر الدين لينادي عليه وعلى زوجته وعلى أبنائهم للغداء . تمر زوجة خاله حاملة أطباق السلطة المزركشة الألوان وأعواد الجرجير القدية المزرقاء الخضرة المنضدة . يتسحب فخر الدين إلى هدوء الصالة ويجلس بجوار خاله لعمد على الحصيرة . طبق السمك البوري المشوي يتوسط المنضدة . قام الخال بقدمته الطويلة إلى الباب . أطل برأسه خارجاً فانعكست أشعة الشمس على بياض صديريته . مر خارجاً وعاد من حرفة الشمس حاملاً قلة نماء . مرت الدجاجات مسرعات إلى وسط الغناء . مدت مناقيرها في الطبق الأحمر وأخذت تشرب من الماء .

ظل فخر الدين طوال الليل حائساً يابساً في فراش أمه . هي عينه صورة واحدة . وهي قلبه انفرس ناب دثب . لماذا لا تأتي أمي إلى فراشها؟ لماذا لا تأتي وتصفني هي حصنها كي أنام ؟ لماذا لم ترد عليّ حين كلمتها؟ ولماذا كانت ملامحها حادة هكذا؟ هل كانت غاضبة مني؟ ولماذا كانت بيضاء هكذا؟ ولماذا كانت تلك المرأة الغربية تحميها؟ وأين ذهبت؟ هل كانت غاضبة مني؟

وصح الراوي ربابته إلى جواره على الأرض الطينية وأسندها إلى ركبته. تطلع بعينه المنعيتين إلى جعد النخلة المنتصب في الهواء أمام التربة وسرح بعيداً . علت مهمة الصبية من حوله عافاق ونظر إليهم وعاد إلى الحديث.

قال الراوي :

« مات أبوه قبل أن يولد ، وتوهمت أمه وهو في الرابعة ، فانتقل معه وزوجته التي هي خالة خمرالدين للمعيشة في منزل أبيه الكبير. وانتقل خاله وزوجته للعيش في الدور العلوي من نفس البيت. وهذا البيت من أكبر بيوت البلد وأصرفها ، وكان جده هاشم شيخ البلد وكبيرها هو الذي شيده ووضع حجر أساسه بيده. أما عمه فكان يعمل بالتجارة ، كما كان وصياً على ماكينة الطحين التي ورثها خمرالدين من أبيه . وكان خاله نجاراً ، واسمه يوسف ، وله دكان بالساحة الصغيرة . وقد تزوج من امرأة شامية كانت تمر بالقرية ذات يوم مع أهلها ، ويقال إنها نصرانية إلا أن أحداً لم يرها تدخل يوماً كنيسة أو مسجداً وكانت باشة الوجه تحسن إلى فقراء القرية ويقال إنها مخاوية . وقد أنجبت له ثلاث بنات وولداً . وكان يوسف محبوباً من أهل القرية ولم يفت في سمعته زواجه من شريفة ، وكان كريماً على فئة دخله . معطاء على ضيق ذات يده. وكان زواج أولاد شيخ البلد من أختيه عائشة وسكينة صلابة على كرم أصله وحسن خلق بيته. وقد كان زواج عيسى أبي

فخر الدين من عائشة في نفس يوم زواج أخيه سليم من سكينه أختها . وكان عرسا كبيرا سهرت في أهراجه القرية سبع ليالٍ، ولحرت فيه الذبائح حتى لم يبق في البلدة بيت لم يدخله لحم منها، وأعطيت العطايا وصفح عن الدجون ، حتى باتت القرية كلها تدهو للحاج هاشم بالبركة ولأولاده بالخير .

وكان للحاج هاشم تجارة وماكنة الطحين وأرض . فلما حضرته المنية أتى بابنيه عيسى وسليم وأعطى الأول الأرض والماكنة والثاني التجارة لما يعرفه فيه من حب لها ووقع بشئونها . وأخرج من المال الكثير للفقراء الناحية . فلما مات عيسى يوم حادثة الماكنة ، عينت زوجته عائشة أخاه سليم وصيا على الماكنة والأرض حتى يبلغ فخر الدين فيسلمه إرث أبيه . وبموتها لم يعد لفخر الدين من يرعاه سواء فالتقل العم وزوجته ومقتلاه أحمد ويلي للعيش معه في بيت أبيه وشمله برعايته . أما المرأة المسماة أم إبراهيم فهي مرضع كانت عائشة قد أحضرتها من هزبة نائية من الشرقية وذلك قبيل ولادة فخر الدين . وظلت تعيش في كنفها وترعى ولدها حتى توفيت عائشة ، وقيل إنها قد حز في نفسها موت وبيبتها فرحلت عائشة لعزبتها ، وقيل : إن العم سليم هو الذي طردها ، لأن زوجته لم تكن تحبها ، وقيل إنها أرادت العودة إلى الهزبة لأن لها بها شئما . وعلى أية حال فقد ظلت أم إبراهيم تعيش في هزبتها في الشرقية ولم تعد لهذه القرية قط . ولما بلغ فخر الدين عيسى السادسة من عمره ، ناداه عمه ، وقال له إنه قد صار رجلا ، وعليه أن يعرف كالرجال الخشونة والجلد .

وأن يتذوق طعم الكد واحتمال المشاق كي يصير جديرا بحمل اسم أبيه وجده . وأن يتعلم حسن التقدير ليعرف كيف يتصرف في أرضه الموروثة عن أسلافه . وأحبره أنه قد أعد العدة له كي يرحل في الصباح إلى نواحي الشرقية لدى أم إبراهيم ليخرج معها في الغنم . ودُع هجرالدين خاله يوسف وزوجته وأبناءهما . وودع خالته وعمه سليم وابنيهما . وعند الفجر أركبه صمه في سيارة أحد السائقين من أبناء القرية ليحمله إلى الشرقية .

في آخر الحقل ، عندما تصفر الأرض العذينة شيئا فشيئا . وتضيئ الطرق الأسفلتية وتترج ثم تحتفي . وتتناقص الأشجار ويعلو الحر ، وتخضر العيون ويصفر الشعر وتبيض البشرة . تقع عربة أم إبراهيم . عند هاويس كبير على ترعة هياضة تحمل الماء المذب إلى جبل سياء . هي آخر الشرقية على حافة الوادي الأخضر والصحراء ، خرج هجرالدين يمشي بالعسا على الغنم . كان القطيع كبيرا ولكنه استأنس بهجرالدين واستسلم له سريعا . أقسمت أم إبراهيم أنها لم تر القطيع قطعا هكذا في أي يوم من أيام حياتها . وكانت أسعد لحظات هجرالدين تلك التي يقضيها في مسحية أم إبراهيم بعد «العصاري» حين تستريح الغنم في فيئة هاربة من الشمس . ويتناولان طعامهما وهي تقص عليه ذكرياتها في بيت أبيه وأمه . حكّت له عن أبيه هيسي . عن شهامته وفروسيته . عن سمرته الصعيدية ولاسته البيضاء . عن عمله في الماكينة وعن حبه للناس وللزلاحين في أرضه . عن حبه لأمه وحنوه عليها . عن حبه له ومداعبته إياه وهو جثين في

بطن أمه . كانت أم إبراهيم تقضى «العصاري» كلها في إعادة نفس
 القصة على فخرالدين دون أن يعمل أو تفتقر رغبته في الاستماع.
 وهي الصباح والفطيرة كانت أم إبراهيم تعلم فخرالدين الرعي
 وأصوله ، والغنم وأحواله ، وأنواع المراعي ومواقعها ، ومواطن
 الماء ، والحذر من الذئب والرفق بالكلب ، وحب الأغنام والحزم
 معها ، ومواعيد التكاثر ورعاية الأمهات ، وقيادة القطيع واحتمال
 انتظار الشاردين منه حتى يعودوا ، والصبر على المرضى الثابت
 حتى ينمو كلؤه ، والحرس على الماء في وقرته ، ويقتطع العين
 وإرهاق السمع وإعمال الحس ، وحلب اللبن وجز السوف ، ومعاملة
 التاجر والقطنة الحجيجه ، وهذوء النفس في الحر ، والتناهي
 في البرد . وهي الليل ، كان فخرالدين يبيت في خيمة في أطراف
 المراعي قرب الصحراء ، وعرفت حينئذ التعلق بالنجم في الليل
 الصافي ويحفظ الضوء في القيم ، واكتشاف الروح وولادة القلب في
 الهدأة ، وولادة الشمس من بطن الفجر ، ومواعيد الأهلّة وحركة
 النجوم ، وجمع الحطب وإشعال النار ، والاطمئنان لنجاح الكلب .

خمس سنوات قضّاها فخرالدين في كنف أم إبراهيم مرضعته
 ومربيته ، وهي صحبة الغنم والصحراء ، تهذبت طباعه ، ولقت
 نفسه ، وسمت مراميه ، وتبدلت حياته .

وهي ليلة من ليالي الشهر الأخير من إقامته معها ، التقى
 بالشيخ عمر ، ولحق لا تعرف من هو هذا الشيخ ولا من أين أتى أو
 إلى أين ذهب لم يرد ، ولم يره أحد قهره سوى فخرالدين نفسه ،
 ولا تعرف حتى اسمه الكامل أو من أي القرى قد خرج ..

صمت الراوي لحظة ، ومد بصره داخل قرص الشمس فزبت حمرة
عس وجهه ورفقت تماثيله وزاق صوته ونعم ، وهامس نور هي وجهه ، ويطبق
نصوت مفاهيم كما لو كانت روح قد تلبسته

كانت الليلة باردة ، والرياح هائجة ، والأغنام خائفة
مستجيبة ، والكلاب رفعت آذانها وذيلها ، وكانت السماء غائمة
والنجوم مختفية ، وبقيت الهلال تظهر وتختفي . احتطبت ، لكن
الحطب كان رطباً فلم تشتعل لي نار . أوجست خيفة واستعدت
بالله ، وصرت أسري عن نفسي بعد الفلم والاطمئنان عليها ،
وقدلتها إلى حضن زهوة أضربها غير بعيدة عن مستقرنا لتحميها
وتحميني من ليلة لا أضرب مستقرها . وبينما كنت أوغل في
السير ، أبصرت نارا قوية على مبعدة ، فاستغربتها في هذه البقعة
الناحية وعلى ألا بشر بها . فكرت ، واستخرت ، وتوكلت ، وشدت
إليها المقعد والطريق . طال بي وبالفلم المسير دون أن أدركها
مع رؤيتي لها واشتدامي لدخانها . سرت حتى بلغ بي التعب مبلغا
وفلننت بنفسي المرض والتهيه والخيالات ، فتوقفت وجمعت
الفلم حولي وارتكلت إلى صخرة ونمت عليها . تمت ساعة أو بعض
ساعة ، ثم استيقظت على دفء كأسح ، وحر لافح ، فتحت عيني
ففسههما ضوء عظيم ، دعتهما بكليتي يدي وأصلت النظير ، وما هي
إلا لحظات حتى رأيت في النور وجهها نقيا كأنه هو النور نفسه ،
بلحية بيضاء وصينين طيبتين ، وهي يده عصا كأنها عصاي . أشار
بها لي أن اتبعني فتبعته خائفا مأخوذا ، حتى سرنا على حافة
النار فاجلسني ، وكنت أرتجف رغم الحر من حولي ، كانت الفلم قد

اختلفت فزاد وجلي ولم أنطق من الرهبة . مد يده البيضاء وربت على كتفي وقدم لي شرايا شربته فوجدت به حلاوة ودافئا . هذا من روعي بحديث عذب ثم أسمع من قبله بمثله أبدا ، وأخبرني أن اسمه الشيخ عمر وأنه كان يتتبعني منذ جئت لأعيش في كنف أم إبراهيم . وقال لي إنه سيكون لي شأن عظيم . فاحمر وجهي من الخجل . هربت على كتفي ثانية وقال : لا تخجل بل ارتجف من الرجل ومن هول الأمانة ، هوجمت فقال لي : إنه كان يراقبني وأنه كان يعلم بمجيئي وينتظرني . قلت له : عليك مخطئ ، فخطب جبينه وقال : يا ولدي، قد قضيت حياتي كلها أتعلم كيلا أخطئ حين يحين الأوان ، قلت ، وهل حان؟ فقرأ علي من القرآن سورا ، ثم قرأ علي كلاما آخر أجهله ، وفل يقرأ علي حتى اطمأنت نفسي وأوشك الفجر أن يعلو . قامت مستأنفا فاذن لي . وأخبرني أنه سيمر للقائي . ربما هنا وربما عند عودتي لما كنتي حسب مشيئة الله . مشيت وأنا حائر متحائل ، وظللت أسير حتى أدركت مستقري الأول عند الصخرة فوجدت الفم نائمة مستكينة ، والريح قد هدأت . والبرد قد ذهب ، والنجوم قد اتمت ، هربت على ظهر كلبتي ، وظللت أستعيد ما قاله الرجل حتى شقت الشمس بطن السماء ..

* * *

، للأرض عند المروب رائحة ، وللمأكينة القديمة رائحة القمح المطحون حديثاً ، ولقمائن الطوب هي أحر احتراقها رائحة ، ولأقراص الحلة المتراكمة على سطح البيت المحاور رائحة ، وللقش على سطح بيتنا رائحة ، للشمس حين تضرب فناء الدار في القيلولة رائحة ، وللحقن في أول النهار رائحة يا أحب أرض الله إلى قلبي : ما هجرتك إلا مكرماً .

« من أوراق فخر الدين »

★ ★ ★

قال الراوي مستطرداً ،

« عاد فخر الدين إلى منزل أبيه في أول شوال وقد أتم الحادية عشرة من صمره وصار صبياً يافعاً ، بهي الطعمة ، عاد فوجد أن خاله وزوجته قد حَزَما حواشيهما واصطحبا عيالهما وهجرا المنزل والقرية ، ولما سأل ثم يأخذ رداً شافيا ولم يعرف لهذا الرحيل سبباً . حزن فخر الدين حزناً شديداً إذ كان شديد التعلق بخاله يوسف وزوجته الشامية ، والحق أن خاله كان قد اختلف مع أخته سكينه خلافاً حاداً حول المنزل ، إذ كانت الخاتمة قد طلبت منه أن يترك الدار ويبحث لأهله عن دار أخرى يسكنونها ؛ لأن هذه الدار إرث لفخر الدين وصيه مناصفة ، وكان يوسف قد استقر فيها أصلاً بناء على دعوة عيسى وهو صاحب الدار الأصلي الذي ورثها عن الجد ، تكن سليم ثم يعجبه استمرار يوسف وأهله في العيشة في الدار بعد وفاة عيسى وعائشة ، وخاصة أنه هو ، وليس يوسف ، الوصي على إرث فخر الدين ، فطلب من زوجته أن

تكلم أخوها في ذلك. فلما كان ، وقالت سكينه ذلك لأخيها ، هت
ذلك في عزمه ونقسم ألا يبيتن ولا أي من أهله لا في البيت ولا في
القرية كلها ، وقام فلنم حاجته وحاجت أهله وباع دكانه لصبيه
ورحل في نفس الليلة ولم يعد بعد ذلك إلى القرية أبدا .

وقد ظل فخر الدين يجهل هذه القصة حتى أخبره بها خاله
بعد ذلك بعدة أصوام ، وقد حزن ساعتها فخر الدين حزنا مضاعفا
على رحيل خاله . ورحيل الخال . انتقل العم سليم للعيش في الدار
كلها . فخصص فخر الدين الغرفة التي كانت لأمه عائشة . وصار
ينام وروجه في الغرفة العلوية التي كانت ليوسف . وخص ابنته
ثيلي بالغرفة التي في مواجهتها وابنه بغرفة أخرى في الطابق
العلوي . وقد سعد فخر الدين بانتقاله إلى غرفة أمه القديمة
أيما سعادة . وكان فراشا ما زال بها ثم يمس فأبقى عليه . ووضع
في النافذة سيئة بها أربع قتل . على طوحتها أكواز من الألومنيوم
بكل واحدة منها نصف ليمونة خضراء . كانت هذه الغرفة هي
أولى الغرف من ناحية الباب الخلفي وأقربها للشارع . فسهل ذلك
لفخر الدين الخروج والدخول في هدوء . وكان يحب ذلك .

عندما هاد فخر الدين للقرية ، أرسله عمه إلى الكتاب ليتعلم
القرآن ، فوجد شيخ الكتاب حافظا لمعظمه فأكبر في العصب ذلك
وأمر به إلى عمه وأوصاه بالفتى خيرا وأشار عليه بأن يدخله
المدرسة . ولما كان قد تجاوز سن الدخول فقد أحلته عمه
بالمدرسة . من منازلهم ، مثلما يسمونها ، وأحضر له مدرسا يقوم
على تعليمه بالدار . وقد أظهر الفتى نبوغا بهر مدرسه ، فجعل

يأخذ كل سنتين في سنة حتى اجتاز الشهادة الابتدائية وهو في الرابعة عشرة من عمره. ومن العام التالي، اختلف فخر الدين إلى المدرسة الإعدادية الواقعة عند أطراف القرية خلف الوحدة المجمع، وكان يختلف إليها أبناء القرية كلها.

كانت ليلى في الرابعة عشرة من عمرها حين عاد فخر الدين للقرية، وكان جمالها أخذًا في البروز، وحلاوة روحها تفوح في الدار كلها حينها ولطفًا، كانت كريمة النفس تعف عن السفاسف، تتوق روحها للتخليق مع حمام البرج في سماء الحقول والبيوت الصغيرة في الصباح وعند العصر، كانت تكتب الشعر وتقرأ لفخر الدين، وتريه كتب الأدب والنصوص التي تأخذها في المدرسة، وتقرأ له قصصًا من الروايات التي تشتريها خلسة من بائع الجرائد، وتسبق - أمام التلفزيون - الحوار بين عبد الحليم حافظ ونادية لطفي في رحلة البحر الأحمر في فيلم الخطايا، وأخيرة ليلى مراد عند الصخرة في مرسى مطروح، وكانت تقول له أحيانًا إنها ستصبح ممثلة، وأحيانًا شاعرة، وأحيانًا ستدخل الجامعة وتصبح أستاذة. وكان فخر الدين يحب الاستماع إلى حديثها العذب، ويقضي العصري جالسًا معها في الصالة العلوية المطلّة على هضاب الدار، يتبادلان الحكايا، ويرقصان رقص ذلك الحمار القريب الغريب، وصوان حالته الممتلئ بالأكواب الزجاجية المزركشة بالرسوم والألوان، والأطباق الخزفية البيضاء الملونة حواملها بماء الذهب، لم تكن ليلى ولا فخر الدين يعرفان هذا الحمار، هو ابن الحاج أحمد المقال، ولم تكن أم ليلى

أو أبوها ليسمعا لهما بالاختلاف بهذا الولد الجريء العيىس
والذي قذفهم مرة بالطوب من فوق سطح دارهم فكمسر رجاء نافذة
العم سليم وحضر أباء واعتبر وأحضر معه رزق ابنه ليعتذر، فلما
رفض الولد أن يتعلق بكلمة لم يجد الأب المخرج مخرجاً سوى
أن يصنعه أمام العم سليم - وأمام فخر الدين وليلى المختبئين
خلف الباب - ولما انصرف الرجل وولده أجهشت ليلى بالبكاء .
كان فخر الدين يشب على العلم ومكارم الأخلاق ، عرفه مدرسه
وزملاءه بفطنته ، وذاع أمر نبوغه في الناحية كلها وبين شباب
القرى الأخرى ، وعرفه أهل قريته بحسن خلقه ورجاحة عقله .
كان تقياً في أباءه ، وطيباً في غيرهم ، لم يخش أحداً قط ولو هي
نعب ، وكان على حداثة سنه مبعجلاً بينهم ، يلجأ إليه شباب القرى
للمشورة والصحة الطيبة ، ويحبهم رجالها لأدبه الجم وعفته ،
ويتوسم فيه شيوخها الخير . وحين أتم السادسة عشرة وصار على
مشارف دخول المدرسة الثانوية ، كانت مكانته تضعه في مصاف
الرجال .

كبرت ليلى وصارت صروفاً ، واحتجبت خلف شباكها عن العيون ،
وكان أحمد أخوها قد سافر منذ زمن إلى السعودية للعمل في
حقول النفط ، ولم يعد فخر الدين يصعد للطابق العلوي منذ تهنته
حالاته أن انتهت كبرت ولم يعد يصح أن يجلسا معاً بمفردهما . كان
الصمت رانيا على البيت القديم ، فخر الدين في جلسته المحببة
في غرفته يقرأ بجانب الشباك وسينية القتل وليلى الهادئة في
غرفتها المطلقة دوماً والعم في الخارج يرعى تجارته والأرض

والخاتمة تتكلم شئون بيتها . هي البيت المقابل لزوج صار رجلا .
يقبى في المدينة طوال الأسبوع ويعود مساء الخميس لبيتها .
ويلقى - في الطريق - بنظرتين حادثتين على شباك موازب في
المطابق العلوي .

عزف الراوي على ربابته قليلاً ، حتى ضج الأطفال المحبطلون به وعلت
أصواتهم مطالبة بتيق القصة . وضع الراوي الربابة جانباً واستطرد .
جلس فخرالدين على الكتبة الاسطنبولي في صالة البيت
العلوي . منذ سنوات لم يجلس هنا . نسمات الهواء لا تأتي من
الشباك مثلما كانت تفعل . سينية القفل الموضوعة على الإفريز
جافة لا ماء فيها . جلس همه قباته مقطعا ، يبحث في شارب
ويدق الأرض في قلق . شرب فخرالدين الشاي ونظر إلى همه
في تساؤل . تذابب العم ثم شرع في حديث طويل عن هاشم جد
فخرالدين وعن أبيه عيسى وعن الميراث والتجارة والأرض
والماكينة والدار . الأرض جدباء والماكينة متهاكة والبيت هتيق .
عن المصاريف التي تكبدها لتسييرها وتربيته ، عن إصراره
على تنشئة رجلا مسلحا وليس حتى ناصحا مرهفا . وأن ذلك هو
السبب الذي جعله يرسله للعيش مع أم إبراهيم برغم ألم الفراق
الذي تحملته خاتمة لقبيلته . وأن ذلك هو الذي جعل منه اليوم
رجلا يحترمه الجميع ويحبونه ، وأنه هو أيضا يحترمه ويحبه .
- عما قريب تبلغ الثامنة عشرة ويصير من الواجب علي أن
أسلمك أرضك وميراثك ، ولذا أريدك أن تبدأ من الآن في أن ترى
بنفسك كيف أدير تجارتنا ونوضعا ، وأريدك أن تعرف أن الأرض

واحدة والماكلة واحدة والتجارة واحدة ، وطول عمرهم مشاكلهم متداخلة ومصاريفهم واحدة ، وأنا لم أحسب قط ولم أكتب قرشاً واحداً صرفته هنا أو هناك . القرض المال مالنا جميعاً ، ولا داعي لأن نخرج ما عندنا لغيرنا . أزوجك ليلى ونحفظ خيرتنا بيننا .

أخذ فخر الدين وتعلم ، ثم قال لعمه هي أدب ، إن ليلى أخته ، وإنها أكبر منه ، وهو لا يفكر في الزواج الآن ، أما الميراث فما زال أمامه سنين ولا داعي للعجلة ، وليلى يرزقها الله بابن الحلال . تمتع العم في ضجره :

- يا فخر الدين ، دعك من هذا الكلام ، وفكر فقط فيما قلته لك .

قام العم واقفاً فقام فخر الدين مستأذاً ، وحين هادر الصلاة لمح ليلى عند أول سلم السطح وكانت تبكي بحرقة .

كان فخر الدين دائم السهر إلى طلوع الفجر ، وعندها يغادر الدار متوجهاً للمسجد الصغير في آخر الشارع ليؤدي الصلاة ويموء متمهلاً للدار وينام . وهي الشهر الأخير ، كان يحيل إليه سماع صوت خفيف قرب الباب الخلفي ليلاً ، وأصوات أخرى من الغرف المقابلة . وعندما كان يخرج من ضرفته ليبرى ما الأمر لم يكن يجد شيئاً . كانت الغرف المجاورة كلها مغلقة منذ زمن ومفاتيحها مع خالته ، فأصبح يستوفق كل ليلة من إضلاق الأبواب الخارجية للمنزل ، ولكن الأصوات لم تنقطع . وذات ليلة كان الصوت أتيا واضحا من إحدى الغرف ولكنه لما حاول أن يفتحها لم تنفتح .

* * *

قال لي السيد المطوي البشال .

- طبعاً كنت أعرفهم حق المعرفة ، أبا عن جد . وهل يوجد بالقرية كلها من يجهر هائلة الحاج هاشم ؟ لقد كان شاباً ممتازاً رحمه الله ، وعاشته كلها هائلة هاضمة كالثوب الأبيض . الله برحمة . لم أعلم بوفاته إلا منك .

* * *

قال الراوي :

حين علم خطرالدين بأن ثيلى قد أخطأت . ثم يصدق أذنيه . ولما أيقن أنها قد هربت في عرضها من حرط حبها ليرزق كاد يفقد صوابه . وزين له الشيطان قتلها . وصور له أن الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم . لكنه لما استعاد بالله استعاد هدوءه . وتوضأ وغمس رأسه في الماء البارد طويلاً . وأمن في التفكير . خلص إلى أن سلامة شرفها هي زواجها من جارها . وعاد باللائمة على خاتمه التي كانت تعلم ميل ابنتها لجارها ورفضها تزويجها منه . وهذا من روح ثيلى ووعدها طبعاً . وأرجعها عما كانت قد انتوته من الفرار من الدار والقرية كلها . وقال لها : لا ندري الخطأ بخطأ أهدج منه . ولما حدث خاتمه هي ذلك ابتداءً بأنه لا يطمع في الزواج من ثيلى وأنه يشعر بميلها لشخص آخر . فلما ارتبكت خاتمه وقالت له : إن الله حلیم ستار . كاد خطرالدين يفسى عليه . ودارت به الأرض ولم يصدق أذنيه . ولما مضت ثوان استجمع فيها شقات عقله نظر إليها في طلع وسألها إن كانت تعلم ما حدث . هردت وهي تنظر إلى الأرض . أن ما حدث قد حدث وأن العائلات الكبيرة تداوى أخطاءها بنفسها ولا تترك للشامتين

فرصة للانتقام منها ، وأن خطأ ليلى خطأ إن تداركناه وعار إذا
 ذاع أمره. وشرف العائلة مطلق الآن برقبته يا فخر الدين أنت
 الذي تستطيع إلقاء بزواجك من ليلى ، بنت عمك وبنت خالتك
 بما ، لحبك وعرضك ، وأنت الذي تستطيع لتطهنا كلها بالعار
 ودمعة ، شرفنا في الطين .

- ولكن ما تقولينه يا خالتي ليس له من الشرف ولا حتى اسمه ،
 هذا غش ولد ليس ، بل وحرام ، ولم كل هذا ؟ والمخطئ موجود
 في أيدينا ومستعد لإصلاح خطئه ، بل يتمنى أن تزوجه من ليلى .
 - يتمنى مثلما يتمنى ، لكنه لن يأخذها إلا على جنتي ، وأنت ؟
 هل تقبل أن نعطي خيرنا هكذا لغيرنا ؟ يأتي هذا الذي لا أسل له
 ويأخذ الأرض والتجارة على الجاهز هكذا ؟

نظر فخر الدين إليها في ذهول ، وقال ، لا حول ولا قوة إلا
 بالله ، ولما سألتها إذا ما كانت تظن أنه سيقبل بهذه التبعة الوضعية
 وإن يخبر عمه بالحقيقة ، أجابته في دهشة ، ولكن عمك يعلم
 طبعا بما أقول ، فكن فخر الدين بها الجنون .

قال ريتشارد لصلاح الدين ، «ولكنك لا تعلم يا سلطان
 المسلمين» الفلاحون في الحقول ، الحطابون في أهالي الجبال ،
 والمعائز حول نارالمطاف في ليالي الشتاء ، كلهم ينتظرون
 عودة ريتشارد بمقاتلهم ، فرد عليه سلطان المسلمين ،
 «ريتشارد ؟ تلك تبحث عن مجدك أنت ، لا مجد الصليبيات ، هلها
 اتفت العم سليم إلى فخر الدين الجالس أمامه . نظر مرة أخرى
 إلى التليفزيون فاستطرد فخر الدين في الحديث ،

- إنني وأنا أحدثك اليوم يا عمي ، أحدثك وكأنك أنت أبي وأنا
ابنك ، بيتنا واحد ، وحننا واحد ، وشرهنا واحد .

فناطمة سليم ،

- لا داعي لهذه المقدمات يا فخر ، ادخل في الموضوع .

صمت هنيهة ثم أكمل وهو يتحول بوجهه ناحية التكيفزيون ،
- أنا أعلم كل شيء .

احتلقن وجه فخر الدين ولفظ السيف الملوث في الجرح المفتوح ،
الآن أدرك أن خاتمه ليست مجنونة ، أو أنها ليست الوحيدة المجنونة .
حاول التماسك حول الجرح وتعمم مع ريقه الذي لا ينبلع ،
- ومع ذلك تريد تزويجها لي ؟

- طبعاً .

- ولكن كيف ؟

- هي بنت عمك .

- ولكنها تحبه هو . أعطت نفسها له هو . سلمت شرها له هو .

- هو لا يريد سوى الأرض والتجارة .

- ولكن العرض ؟ العرض يا عمي ؟ أنا الذي يقول لك هذا ؟

- الأرض هي العرض يا بني . وثق أن أحداً غيرنا نحن الأربعة

لا يعرف ولن يعرف بالموضوع .

- وربنا ؟

- إن الله حلهم ستار .

- ولكن الستر موجود ، وهو يريد الزواج منها ، فلم لا تزوجها له ؟

صمت العم . سألت هرجينها هي شماعة ، الويزا ، الفارسة

الصليبية وقائدة الهوسبتاليين ، تُهَرَّب فارساً صريباً ؟ ما الداعي
يا لويزا ؟ ما الداعي ؟

- لا داعي لفتح هذا الموضوع ثانية يا فخر ، فلن أزوج ابنتي لهذا
الولد ، الهلوت ، ويدي لن أضعها في يد فارس بهذه الوضاعة .
- خذوهم فقراء يفتكم الله ، ثم إننا لسنا في وضع من يختار .
- نحن دائماً في وضع من يختار ، ولا داعي لأن تقلني هلتي فارساً
في الحياة فأنا أعلم بها منك . هذا الولد لن يتزوج ليلي ما دمت حيا .
- وليلى ؟

- ليلي تسترهما أنت بإذن الله ، باسمك ، بأرضك ومالك وبكرم
أصلك .

- ولماذا تظن أنني سأقبل الاشتراك معكم في هذا ؟

- لاجل آخر أمامك .

صمت الرجلان طويلاً ، وهمس سلاح النين في وقاره ،
يستطيع الفارس عيسى أن يتصرفه .

« كانت الصدمة أقوى مما يمكنك تصوره . كان ذلك فوق طاقة احتمالي .
هل تتصورين ؟ في السادسة عشرة من عمري وأجد نفسي فجأة في قلب
مستنقع بهذه المفونة ؟ وكل الذي ظننته حينما تحطم ، وكل الذي ارتككت
إليه تهاوى وحاولت . لم أكن أستطيع لا قبول ذلك ولا منعه . وكأنني أبتلع
قنبلة تنفجر في داخلي .

« من رسائل فخر الدين ،

قال الراوي،

لكن فخرالدين لم يسكت، وقال لعمه إنه لن يسمح لهذه المهزلة أن تتم وهو حي يرزق، ولن يترك الشرف الحقيقي يداس من أجل شرف مزيف العار منه أشرفه. وفي الليلة ذاتها ذهب إلى رزق وحادثه في الأمر طويلاً، ووجد فيه شهامة وحباً لئلي أكبرهما فيه. وكان نادماً على ما صار منه، فقال له فخرالدين، وقت الندم قد فات والآن حان وقت العمل. واتفق معه أن يلقاه عند أول الطريق السريع عند القروب ومعه لئلي وينهب بهما للمركز المجاور ويزوجهما هناك. وعندما عاد للمنزل قال لئلي أن تعد نفسها للأمر بهذا الارتباك عليها جعلها مما أدهشه وكان يظن أنها ستفرح، إلا أنه هذا ذلك للخوف فطمأنها ووعداً خيراً. وعند القروب انتظروا نزول لئلي عند الباب الخلفي مثلما اتفقا فلم تأت. ظل منتظراً قرابة الساعة ثم تسلسل ساعداً نحو هزتها. على رأس السلم وجد عمه بقامته الفارعة يملأ المدخل، وفي يده طينجته المرخصة مشهرة. وقف فخرالدين أمام عمه. هز العم الطينجة وقال،

- والله لو حدثت لمثلها لقتلتك أنا بيدي.

في الليلة التالية رحل فخرالدين إلى حيث قالوا له إن خاله يقيم منذ هجر القرية. ولقاه بين الأحضان والعتاب والشوق. قص عليه فخرالدين ما كان من أمر لئلي ورزق وصمه وخلقه، فتجهم وجه يوسف وأطرق طويلاً. فلما سأله فخرالدين ما العمل؟ أسهب يوسف في ذم جشع سليم وسوء أخلاقه، وهو ما بهت

على سكينته وأفضلهاء ، فلما سأله فخر الدين ما العمل؟ قص عليه يوسف قصة خروجه وزوجته وأبنائه ليلا من القرية ، والرحلة المضنية التي تحملوها ، والخسارة التي تكبدها في تركه لذكائه وبيته وكل شيء كان له ، والمشاق التي واجهوها حتى استقر بهم الأمر هنا ، وكل ذلك من أجل الاهتمام من جشع العم الذي أعمى . فلما سمعت قال له فخر الدين ،

- ولكن ما العمل يا خال يوسف ؟

فأطرق وقال ،

- ما العمل ؟ العمل عمل رهنا .

ولما كانت الليلة الثالثة ، صلى فخر الدين العشاء ومكث بالمسجد حتى غلقت أبوابه ، فخرج الحقول مهموما بكاد عقله ينفجر من الحيرة والفيضان والمجز ، ويكاد قلبه يسيل من الهوان والحسرة وسعة المفاجأة . أو قل فخر الدين في المسير حتى نال منه التعب فاستند إلى جتح نخلة وتام . تام ساعة أو بعض ساعة ، ثم استيقظ على دفء كاسح ، وحر لافح ، فتح عينيه ففشيها ضوء صخيم ، فكلها بكنتا يمينه وأصاء النظر ، وما هي إلا لحظات حتى رأى في النور وجهًا نقيًا كأنه هو النور نفسه ، بلحية بيضاء وعينين طيبتين ، فكبر فخر الدين وهلل ، وسمى للشيخ هامسك بطرف جلبابه وتعلق به ، وقال له ، أين أنت يا شيعي ومرشدي؟ خلعتك قد نصيبتني أو أعمات أمري . والله لو لم تات إليّ الليلة نزع قلبي وضللت وضاع أمري ، فأهدني الطريق وساعدني . فابتسم الشيخ حتى بان أنفاه البيضاء ، وقال ، هدي من روعك

يا عبد الله وأمل فيه خيرا . قال فخرالدين متعجلا ، ما العمل يا شيخى ؟ فقطب الشيخ عمر حاجبيه وقال : العمل عمل ريت يا بني ، وما على الرسول إلا البلاغ . وقد بلغت . قال فخرالدين ، ولكن كيف أترك هذا الإفك يجري تحت سمعي وبصري ويعلمي ؟ فقال الشيخ ، يا بني ما على الرسول إلا البلاغ فقل : اللهم إني بلغت اللهم فاشهد . قال فخرالدين متوسلا ، ولكنهم أهلي وهذا عرضي وبيتي الذي انقض فوقني منارا فجاء . قال الشيخ ، اصبر وادع ربك يكشف عنك الغمة . قال فخرالدين ، دعوت ومازلت أصدو ولكن قل لي ماذا أفعل ؟ قال الشيخ ، يا بني لا يأخذك بنفسك القرون ، إنك لن تهدي من أحب ولكن الله يهدي من يشاء . وقد فعلت ما كان يوسعك أن تفعل والباقي لا دخل لك فيه . سأل الدمع من حين فخرالدين وحنقه وهو يقول للشيخ ، كيف لا دخل لي فيه ؟ ماذا أفعل أنا الليلة وماذا أفعل هذا وهذا أمر منكرو يجري من حولي وبني ؟ قل لي ما العمل ؟ نظر إليه الشيخ وشمقت نظراته وتلمع جلبابه الأبيض الناصع حوله وتباعد مسرعا ، وظل فخرالدين جاثيا على ركبته حتى امتلأ جلبابه بالعطين والماء . .

مائل السيد لعطوي علي في حبث وقال :

- طالما سمعتمك تعرف القصة كلها فم تسأل ؟

قلت إني سمعت رو بات كثيرة لما حدث ولم أثبت الحق منها من الباطل .

ابتسم وسرح بنظرته بعيدا لحظة ثم قال

ملك حق ، هذه البلدة لا يشغلها سوى الإشاعات والكلام . أقول لك

الحق ؟ لقد كنا نسئ ما حدث فعلا من شرط ما أثير حوله من شذعات

حتى أما الذي شهدت الأحداث كلها عن قرب ، ساعات أسأل نفسي إن لم أكن قد خلطت بعض ما حدث بهذه الأقاويل .

ظل السيد العلوي ساعدا هنيئة ثم اعتدل في وقفته ونظرني وابسهم في خبث من جديد وقال

- الحقيقة أنه لم أصر الحاج سليم هاشم على تزويج ليلى إلى فخر الدين حصل بينهما مشادة ، وهدد بدعوى ، وانتهى الموضوع بأن أخذ فخر الدين قرشين من عمه ، أعني جزء من ميراثه ، وترك له الدار والأرض والماكينة والقرية والجسم بما حمل وسافر . ومن يومها لم يمد للقرية قط.

* * *

قال الراوي ،

دهما كانت الليلة الرابعة ، قصد فخر الدين إلى غرفة عمه وطرق عليها طرقا شديدا ، فخرج العم منزعا مدهوشا ، فقال له فخر الدين والشرير يتطايرون عينيه إنه قد انتوى أمرا ولن يرجع عنه ؛ فلما أن يعدل عن رفضه تزويج ليلى ورزق ويعود للحق ، واما خرج في التو واللحظة من البيت ليطلو شوارع القرية وحواريها حاكيا القصة لكل أهلها ولا يترك صغيرا أو كبيرا إلا ويفضحه عنده . وأن الفضيحة أهون عليه من أن يفرض وجهه في الرجس الذي ينتويه العم وأهله ، فأقسم العم برأس أبيه لن يفعل ليخلفه بيديه الاثنتين ، فأقسم له فخر الدين أنه فاعلها إن لم يرجع من فيه ، فحلف العم بالعراق ثلاثا أنه لن يزوج ليلى من رزق ، ثم دفع فخر الدين على السلم ودخل غرفته وأطلق عليه الباب ، فلما كان من فخر الدين إلا أن امتطى بخلعة وظاف بالقرية كلها وأهلها من

ورأته يقص عليهم قصة العم الفاجر وقلل يعيد القصة حتى آخر الليل ، والناس بين مُنكر ومُستنكر، حتى عاد الناس إلى منازلهم ، فقص فخر الدين إلى مكان قصي عند التربة، وقلل يبكي حتى قرب طلوع الفجر ، وكانت أشباح مظلمة تتحرك في أفق طلوع خمد النور . وعندما كان المؤذن يقيم الصلاة رأى المصلون بقلة آتية من ناحية الفيضان تحمل جسدا ملقى ، يحيل الدم من تحت عينه اليسرى على وجنته ويلطخ جلبابه الأبيض، وفي وجهه ورقبته طعنات شاذرة وجروح . نظر المصلون إلى جثة فخر الدين وكادوا ينكرونها من هول التشوه فيها ، وظلوا يتبادلون النظر فيما بينهم وبين الجسد الملقى حتى طلع النهار .

أمسك الراوي ربابته وشرع في المزج . وكان الصبية ينقصون من حوله شيئاً شيئاً ، تقدمتُ إليه وعرفته بنفسي وسألته عن فخر الدين وقصته فنظر إليّ طويلاً ولم يجب . فأضفتُ أسى أحقق في اختمائته من القاهرة فقلب حاجبيه مستغرباً قليلاً . ثم ابتسم ، وحمل ربابته ومضى .

ناصر الخضري

الأرض أصفر من مرورالريح
في خصر نحيل
والأرض أكبر من خيام الأنبياء،

محمود درويش

«مال فخر الدين برأسه على كتفي وبكى ، شعرت أن دمعته تتجسس من عذوبة نسمه النقية وتأتي ساخنة وتمسب بين حجرين ناشفين في صدري . قلت : ما بك يا فخر الدين أتبكي ؟ قال : نعم ، هي رشقة من قلبي طفت ولم أدر أين أذهب بها . قلت : أيا لها الحافظ والمستقر . بكى فخر الدين . بكى على كتفي ، وبكى ، وبكى ، كم بكيت بعدها .

كيف خفته ؟ كيف تركته بصارع الجهال وحده ؟ كيف بنت الأمانى والأغاني وتركك الحلم كله بقلت من بين أصابعي ؟ كيف ألق الآن هنا وحدي . ولا أدري ماذا فعل ولا أين ذهب ؟ هي أي بلاد حطعت وحالك يا فخر وبأي دار نزلت وبأي باب ربطت نافتك ؟ هل استكان قلبك ؟ وهل وجدت أربك . وهل سامحت غدري وتخلي ؟ خفته . نعم خفته . أنا .. أنا من حان فخر الدين فتعالوا إليّ وأمسكوني وافعلوا بي ما شئتم فقد فعلت بمصي ما هو أشق . نعم تركته وحده وبقيت أنا في هذا الرجز أفوض وأطلقو كل يوم حتى نخر السوس عظم روحي المفككة . نعم أنا سددت أول ما سددت ومحي في قلبه الأبيض الطري . نعم أنا . أدميت روحه وأنزفت جرحه وأبكيته عينه ودست صدره

نعم أنا . بنته وبنت بيعته وعهده .

نعم أنا . أخلمت وعدي . ونقضت عهدي . وحُقت عليّ اللعنة التي نظارتني . أنا الذي بكى فخر الدين على كتفه ، أراني دمعته وأشعرني وحمه وأشركني همه وحلمه . أنا من اتحدتني صديقا ونصيرا . كيف خذلتته وخنته وبيدي أنزلت .. ،

قصيدة معزقة

من أوراق ناصر الخضري .

- 2 -

ظهر شخص يدعى فخرالدين هي عدة مدن من دلتا مصر الشرقية هي الفترة الملاحقة على الحادثة التي جرت في قرية فخرالدين عيسى هاشم. وجدت هي بنها، وفي ميت عمر، وهي المنصورة أن شبابا يحمل هذا الاسم قد جاء وعاش في تلك الفترة. كما روى لي فلاحون وتجار من كل القرى والبلدان الواقعة في الدلتا الشرقية أن شخصا باسم فخرالدين وصفاته قد مر وقضى بعض الوقت هناك. ولم أستطع أن أقطع في النهاية برأي في المسألة وخاصة أنني لم أكن أعرف ما إذا كان فخرالدين قد قتل فعلا في قريته مثلما روى لي البعض أم أنه قد سافر مثله روى لي آخرون. وهي لتنهاية قررت أن أخذ موافقا بالرأي القائل بأن فخرالدين -لذي أتى لمنصورة وعاش فيها في تلك الفترة هو فخرالدين عيسى الذي أسس خلف قصة اختفائه. وقد شجعتني على ذلك الافتراض تواتر القصص والشهادات هي المنصورة عن الفترة التي قضاها هناك وأنها أكثر مقبولة وقربا للتصديق من القصص الأخرى التي سمعتها في بنها أو ميت غمر والتي تنسب لفخرالدين قصصا وأحداثا أسطورية لم يأت بمثها بشر. كما أن المنصورة هي المدينة التي عاش فيها في نفس الفترة ناصر الحصري والتي تشير ملفات مباحث أمن الدولة إلى أنه أحد أصدقاء فخرالدين القدامى. ومن ثم، فإذا كانت الروايات التي جمعتها هنا تتعارض مع روايات أخرى عن أوقات أخرى قصصاها فخرالدين في بقاع أخرى، وذلك هو غاية ما استطعت استخلاصه من الروايات المتناقضة التي سمعتها، و المعلومات التي وصفتني بطرق أخرى، والتي تتناول كلها حياة، أو حيوات، فخرالدين عيسى

شارع الجمهورية . ويسمونه هنا شارع البحر . لأنه يطل على النيل ولأنهم يسمون النيل بحرا . شجر قصير منسق بعناية يمتد على طول الطريق . النهر يبدو منخفضا وبعيدا . وامتدا بجوار طريق أسفلتي حديث يجري موازيا أسفل الشارع . يفصل بينهما جدار ضخم كهوائط الأنفاق يبدو غربيا وسط الأشجار والنيل . وفقت على قمة الجدار أقرب النيل والطريق السفلي . على شاطئ النيل توجد نقايا ما كان مطعما . وهو المطعم الذي كان فخر الدين يعمل فيه عند مجيئه للمنصورة . قالوا لي هذا الصباح هي المحافظة إن محافظنا ما طلع في دماغه ذات يوم أن يزين المطعم والشجر ويقيم حسرا لا يعلم أحد حتى اليوم بين ماذا وإلى أين كان سيمتد . ونهم أزالوا المطعم وفقا للتعليمات هي عصر ذات اليوم وأزالوا معه صفا طويلا من الأشجار العتيقة التي كانت تعترض مسار الحसर الوهمي . وفي صباح اليوم التالي تبين أنه هناك سوء فهم وأنه لا يوجد في هذه المنطقة جسر ولا يحررون . وهكذا احتفى محل عمل فخر الدين . وأين ذهب بقية العمال؟ لا أحد يعلم . هم يكونوا مسجونين بالشئون الاجتماعية بوصفهم عمالة مؤقتة . كان فخر الدين قد أوضح في أوراظه أنه كان يعمل في المطبخ منذ الغروب وحتى منتصف النيل تقريبا مقابل جنيه يوميا . وأن ذلك العمل هو الذي مكّنه من مواصلة الحياة في المدينة ومواصلة الدراسة دون أهر أو سند . مشيت قليلا في المكان الذي كان . ثم سرت بجوار النيل حتى لاح لي شارع ثانوية من بعيد . مسجد أبيض صغير على ناصيته اليسرى . على اليمين بيوت صغيرة متراسة ومطوية بدهان أصفر قديم باهت زكته رطوبية

من الشبويات المتتالية . خلف المسجد تمتد المدارس حتى نهاية الشارع مررت بعض هذه المدرس حتى وصلت إلى مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية العسكرية . عبرت لشارع لصيق ودلعت من الباب مستخدما بطاقتي لوظيفية . الباب حديدي رمادي أقرب للسود . تأكل صمبحة بالقرب من المقبض ، على حافته أسياح حديدية مديبة . السور مطلي بلون أصفر فاتح ومن فوقه ضيقت - حديث فيما يبدو - شبكة من الأسلاك الشائكة لتعليق السور . الفناء متسع وتسطع فيه شمس ضخم قوية . أرض الفناء رمية مختلطة بطين بني رطب متماسك . عارضة خشبية في أقصى الفناء وعدد من العلبنة يقسمون فريقا للعب لكرة . دفع أحدهم لكرة هانز لقت واقتربت مني . اقتربت وحملتها في يدي وتوجهت نحوهم فأخذوا جفيف هي تجري بعيدا واختفوا داخل الأبنية المترصة في الفناء . وضعت الكرة بجوار . عارضة وقلت لنفسني : هذه البداية لا تبشر بالخير . اتجهت للمبنى الذي يتوسط الفناء ويطلوه العلم . فاجأتني رطوبة معزوجة بروائح مختلطة . الناظر في ابتسامته قدم من خلف مكتبه المسح ومده يده مسلما : - أهلا وسهلا . اعذوني ، إن لم أكن قد خرجت للقائك فم أكن أعلم بموعد وصولك .

ابتسمت له وشرحت باختصار الهدف من زيارتي ، وأهمته طيب أن هذا الاستقصاء غير ترسمي يتم برعاية لمكتب ويتكليف منه . خلع الناظر نظارته في طء ومسح رأسه يده . امتعصت تقاطيع وجهه قليلا طيما سي ذلك تعلم أنني حديد هنا هي المدرسة . فلم يمر على تسلمي للعمل سوى عامين . ومن ثم لا أستطيع أن أدلك على أشياء حدثت أمامي أو أعرفها بنفسني .

عاد الناظر بظهوره للوراء وأخذ يسمح نظارته بمعدل أبيض على رقبته العليقة انداحت حبة عرق .

على كل حال ، المعلومات التي عهدي استقيتها من الناظر الذي كان هنا قبلي . وهو بدوره عرفها من الناظر الذي عايش الفترة التي تتحدث عنها سيادتك ، وهو الأستاذ محمود حفيظ مثمما تعلم سيادتك ولا شك . والذي عين بعد ذلك مديرا للتربية والتعليم بالمحافظة . والحقيقة أنني قلت هذه المعلومات من قبل في التحقيق الرسمي .

صمت الرجل لحظة ، ثم نظر إلي بطرف عينه سائلا .

- ألم يكن هذا الملف قد أغلق يا فندم ؟

- 4 -

الثامنة صباحا ، شمس مستبدة تسلط بكامل حرارتها على فناء المدرسة . انطلق الباب الحديدي الضخم ورنّت خشخشة الأقفال الحديدية في صمت الطابور الصباحي . انتصب الناظر في أرض الطابور ، في المقتصف . احمرار وجفنيه زادت الشمس لمعانا . أمام كل فصل وقف أحد المدرسين لهرق النظام وانضباط الطلبة في الطابور ، لا حركة ، لا همسة . لا انماعة . يفتح الطابور بالتمام على عدد الفصول وحصر القباب ، تلاوة آيات قصيرة من القرآن الكريم ثم فقرات من لائحة النظام الداخلي وبيان العقوبات الصادرة ضد المخالفين خلال اليوم الفائت ، ثم بدء التمارين اليومية ، وهما ابتداء . الشمس التي تصعد هي كبد السماء شيئا فشيئا تُصعد من سطوتها على سماء أرض المدرسة العسكرية . وجه مستطيل صاف يلوح من بعيد لمعني فجر الدين مطلا من غير المعوقين . تمضي

لتمارين قداما . تهتز أبدان الطلبة في إيقاع تكفل الإعدادات اللاتهاية بضبطه . تُصعد الشمس من هجمتها هيرداد احمرار وجنتي الناظر . يستطع أحد الطلبة في الطابور المواجه من الشمس والإعياء . يجره أحد المدرسين إلى غير الموقين . تهتز صورة الوجه المستطيل في عيني فخر الدين المترنchten . السلام الجمهوري يبدأ . تتصلب عروق الناظر المنفضحة بدماء حمراء . الشمس والحر والعرق وضباب الرؤية تحيا جمهورية مصر لعربية . يحتفي الوجه المستطيل والشمس من عيني فخر الدين . تعيم الدنيا على اسلام الجمهوري والتهاتف والناظر والطابور ومطبخ المطعم . هزت صمعة على خد فخر الدين دهعت بالشمس إلى عينيه وبعلامح جنونية الفصب لوجه أحمر مستمع العروق وصمعة أخرى أغلقت الشمس والصوء وسقوط جسمه تحت وطأة ركلات متتالية تحدد اتجاه انهباده وركلات تركز جسمه وتحممه وتكثله في تكوم مثلق متكور تشد الشمس والموسيقى الرسمية والقواء ويخفت توالي الركلات وتهدأ ثم تنقطع .

★ ★ ★

دخل فخر الدين الفصل حاملا حقيبته الجلدية السوداء التي فاز بها في مسابقة حفظ القرآن . تكريم . يد الحقيبة تترك في يده علامة . عندما جلس وأسنده ظهره لعدكة الخشبية البنية لمح في آخر الفصل وجهه . كان قد رآه في الطابور . صفة وجهه صافية كأنها تشرب من وجهه من ينظر فيها . أحس فخر الدين باضطراب ولم يجرؤ على النظر مجددا في هذا الوجه العميق . وطول الدرس كان يشعر بعينين تخترقان ظهره .

- ناصر . ناصر الخضري .

وجه مستطيل وكفتان عريضان وعرج خفيف بساقه .

هذا هو السبب في إعفائي من الطابور .

ابتسم فخر الدين وقال بتلقائية

- ليتني أنا أيضًا بساقي تعب لأعفى من الطابور .

- 5 -

هز المهندس أمين رأسه مرتين للأمام ونظر في ساعته وقال لي .

- أترى ؟ مواعدي مضبوطة .

جلس على المقعد الخشبي وطلب لنفسه قهوة مضبوطة . رشفت رشفة من

كوب الشاي الموضوع أمامي . نظر إليّ أمين بعينين حادتين متقدتين وقال :

- تحب نتكلم في الموضوع من أي وجه ؟

قلت : أريد معرفة كل شيء .

ضحك أمين وقال :

- لا ، بهذه الطريقة لن نكفينا اللهة ولا شهر حتى ننتهي .

سكت لحظة وأطرق برأسه إلى الأرض كأنما يفكر ثم وضع ساقه على

الأخرى وثفها من حولها في التواء غريبة وعقد يديه . نظر إليّ وقال :

- للأسف لن أستطوع الجنس معك أكثر من ساعة فلديّ ارتباطات

أخرى . ثم إنني محكوم بمدة الإجازة ويجب أن أعود للسمودية خلال أسبوع .

سأدخل في الموضوع مباشرة .

أعتقد أن الذي يملك هو علاقة فخر الدين بناصر . ناصر كان صديقي

أيام المدرسة الإعدادية وأنا أعرفه جيدا . ثم تعرفنا على فخر الدين في

الثانوية ، لكن علاقته بناصر تطورت بسرعة وأصبحا صديقين حميمين

للماية . ولم يكن ذلك يصايقني يعني طالما نحن الثلاثة أصدقاء فلا تهم

التفاصيل . إلا أن فخر الدين وناصر قد كونا ههما بينهما علاقة وثيقة بسبب

مشاعر مشتركة . هي نواقع لم أشعر بها أو بالأدق لم أعرفها اهتماماً وبى كنت قد تمهيتها . وظلت علاقتهم وثيقة جداً حتى منتصف العام الذي تلا رسوبهم - أعني هي الثانوية العامة - حيث سافر ناصر مع والده في منتصف العام . ونسب من الأسباب فإن نجر الدين قد أصابه أزمة نفسية حادة من جرء ذلك . ويبدو لي أنه كان بينهما اتفاقات مبنية على المستقبل وأن سفر ناصر قد أفسدها . لا أدري هذه مجرد تخمينات . المهم أنهما لم يلتقيا بعد ذلك أبداً على حد علمي . فتناصر عاد بعد حوالي ست سنوات كان نجر الدين خلالها قد ترك المنصورة و ستر نهائياً في القاهرة .

- وأين ذهب ناصر بعد ذلك ؟

ناصر عمل بعد ذلك في مشروع الكهرباء بطنطا . إنه مهندس مثلاً نعم . ولكنه كان قد تغير لدرجة كبيرة . وكانت ثقافته حالات من الشرود قوية جداً بدرجة أنه كان تقربها بغيب عن المحيطين به تماماً . واشتكى لي والده مرات عديدة من أنه لا يأكل أحياناً لمدة أيام . يبدو أيضاً أن الحادثة التي حصلت له في المشروع كان سببها هو الشرود وعدم التركيز . لقد نصبحته كثيراً بالذهاب لطبيب نفسي لكنه كان عنيد . جداً في هذه المسألة لدرجة أنني شككت في أنه يتلذذ بتمذهب نفسه .

وكان . . أم . لا أدري إن كان لذلك صلة بالموضوع أم لا . لكنه كان دائم الحديث عن شخصية «بارباس» أحد حواربي المسيح والذي أبلغ عنه ومات وعاش وحيداً بعد ذلك . قصة مؤلمة جداً . لكنه كان لدرجة ما - يحب الأشياء المؤلمة ولكنية خاصة منذ مولده وهذا هو سبب ابتعادنا عن بعض منذ ذلك الوقت . النقطة الثانية التي أعتقد أنك يجب أن تعرفها تتعلق بسنوكهما في المدرسة والحقيقة دون نجر أننا نحن الثلاثة وصديقاً

رابعاً لنا اسمه إسماعيل كنا متفوقين للغاية في المدرسة ، ولم يكن ذلك راجعاً لأننا نذاكر كثيراً وإنما لدرجة ذكاء عالية مكنتنا من التفوق مع بحدل مجهود قليل . ولكننا عامة - ونحضر ونأمر خاصة - كان لنا تحفظات عديدة على المدرسة .

رشف المهندس أمين رشفة من قهوته وشامت عيناه قليلاً وفرك جبينه بيده .
- أنت تعلم طبعاً هذه السن لها متطلبات خاصة . سن المراهقة وبداية الشباب والانطلاق . طبعاً المدرسة يمكن الحديث عنها بأي ألفاظ عدا الانطلاق . وهذا ما كان يحز في نفس فخر الدين وناصر بل يشكل لهما مشكلة حقيقية . كانا يرفضان أسلوب المدرسة نفسه ، والمدرسين ، ومواد الدراسة ، أي باختصار كانا يرفضان الموضوع من أساسه . المدرسة كانت غير محتملة في الحقيقة . وكان فخر الدين وناصر يلحشان إلى الغياب الكثير وإلى الترويع أيضاً بين الحصص أو قبل نهاية اليوم . وكان ذلك يؤدي بهما إلى الفصل المؤقت . ولكن واند ناصر الأستاذ الحضري - كلن يحل المشكلة دائماً عن طريق علاقاته في مديرية التربية والتعليم .

لمدرسون كان مستوهم .. يعني .. عادي . وكان فخر الدين وناصر مثقفين جداً خصوصاً في التاريخ والعلوم الاجتماعية والفلسفة . وكانا غير قادرين على التكبير دماغهم ، مع المدرسين فيظللان يندششان ويحاوران حتى تنتهي المسألة إما بطردهما من الفصل أو بطروج المدرسين من الفصل .

المشكلة - مثلما كان رأيي وقتها - ليست في صدق أو زيف ما كان يعتقدونه (فأنا أعتقد أنه صادق) ولكن في أنه لا يمكن عمر شيء في الحقيقة . وأن أفضل السبل هو أننا نمشي حائفاً حتى ننتهي من هذه

الفترة الكلية دون أن نتركها تؤثر على مستقبلنا ، أما هم فقد ظننا أنهم يستطيعون مواجعة نظام تعليمي كه وهو ما أدى مثلما قلت لرسوبهما هي العدم الثالث . الذي حدث - وهذه كانت لضربة القاسية - أنهما قرر دعوة الطلبة للامتناع عن دخول الامتحان ، وطبعاً كان ذلك شيئاً جنونياً لم يقبل به أحد . ولما اقتلعا باستعدائته دخلاً الامتحان ولكنهما أجابا على أسئلة أخرى غير الموجودة بورقة الأسئلة . وضعا هما أسئلة - كل واحد لنفسه - وأجابا عليها وذلك في حدود الموضوعات المقرر دراستها ولكن دون التقيد بكتب المدرسة أو بالأراء الواردة فيها . وربما كان ذلك شيئاً لطيف أن نسمع به ولكنه سيئ جداً أن نفعله . فهي النهاية رسبا هم الاثنان وأعادوا السنة . وطبعاً هي السنة التالية أعاد فخر الدين خمس أشياء مشابهة لذلك في حين كان الأستاذ الخصري قد أخذ ناصر وسافرا للخارج حيث حصل ناصر على شهادة جي. سي. بي. الإنجليزية وعاد ليدخل كلية الهندسة.

- وفخر الدين ؟

- فخر الدين لم يدحس الامتحان أصلاً في السنة التالية. وكانت عليه أزمة نفسية عميقة عجزت عن فهمها . كان هو الآخر قد تعبر بشكل ملحوظ. لا أدري كيف أصعب ذلك . ولكن كأن شيئاً يد حقه انكسر . كان د ثم الشرود عابسا . ولم أجد فيه نفس الشخص الذي عرفته قبل ذلك . كأن كأنما قد تبدل تماماً . كأن الذي كنت أعرفه من قبل قد مات وهذا شخص آخر يشبهه في الشكل دون الطباع أو الروح . حاولت أن أتحدث معه أكثر من مرة في ذلك لتغير ولكي لم أكن أسس معه إلى نتيجة. لا أدري إن كان ذلك نوعاً من اليأس أم الاستسلام أم ماذا ؟ كان فيما يبدو كل ذلك مع . وقد عاد في العام التالي للمدرسة وكان هادئاً تماماً ومواظباً على الحضور لكن أيضاً

كان كالحاصر العائث . وكان قد توقف عن النقاش وعن إثارة أي مشاكل من أي نوع . ودخل الامتحان ونجح بل وحصل على درجات عالية جدا وطاع الأول على المحافظة كلها . وبعد يوم واحد من ظهور النتيجة كان قد احتسب من المنصورة . علمت بعد ذلك أنه ذهب للقاهرة والتحق بالحامعة هناك . وقد تسبب هذا النجاح في إحراج الناظر جدا - الأستاذ محمود حفيظ - والذي كان قد كتب توصية للمديرية برقت هخر الدين نهائيا باعتباره طائفا لا يصلح للتعليم . رحمه الله كان يسبح صد التيار من أجل أشياء لا تستحق . نظر المهندس أمين في سماعته . وهلك ساقيه بسرعة وقام وهو يمد يده : - أنا سمعت جدا بلقائك ، ولكن يجب علي أن أنصرف .

- 6 -

«في عيد ميلادي ، أهداني ناصر كتاب الإمام الغزالي حول المعرفة ، وكتب لي على غلافه الداخلي ، إلى أخي هخر الدين ، ليتعلم معنى المعرفة الحققة ، كان ذلك في بدء معرفتي به . وقد جذبني الكتاب كثيرا ، وسررت به أيما سرور ، وسررت بناصر أكثر ، وصارت لقاءاتنا بعد ذلك أكثر تواترا وأكثر مناقشة للأمور الدهنية التي كان يحترم بها عقلي ، وكان وجود ناصر وأرائه التي «سمعت بالجرأة الشديدة حافزا قويا على الاستمرار في الاتجاه الذي أخذته . والطريق الذي اعتزمت السير فيه . وكان هو شق روحي الثاني وحواب أسئلتها . وأسئلة كان يشقها يحركه ويستقره ليصححه ويصمجه . كان ناصر أكثر من مجرد ناصر لي . كان مجددا وصامنا لاستقامة سيرتي على دربي . ويوما بعد يوم ، في معرفته الصيقة التي كنا نسميها «العار» تدر ، بصيقها . كانت مناقشاتنا تطول وتطول حتى نطول كل شيء » ، وسقطت فيها

أوهام وتعلمت حقائق وتعلمت أساليب وتعلمت أكثر مما تعلمت السباحة في
الرأي والأمل هي صوب والويسير بمن يحالفني الرأي . ولم تكن مناقشتنا
هي الفلسفة وحسب فقد كان ذلك الجرم مستوحى من كتاب الفلاسفة المقرر
عليها في المدرسة ، وهو لدي أيقظ في ذهني هذه المسائل ، وإنما كانت
مطالعاتنا هي سير الأنبياء وعقائد أهل الشرق وهي الفنون والموسيقى .
كانت سير الأنبياء تلهب خيالنا بفد مشرق ، وكنا نحب رؤية الشروق وصعود
الشمس في كبد السماء . لكننا كنا نضطر للنوم بعد الفجر مباشرة لكي
نتمكن من الاستيقاظ مبكراً للمدرسة .

«من أوقات فخر الدين،

* * *

في شارع الجلاء ليلاً سمعت سيارات تنقل الثقيل الناحية اليمنى من الطريق بقايا المحلات تبيع سندوتشات الجبن الرومي وعصير القصب. صبية يلعبون بكرة شراب بين سيارات النقل الرابضة . السيارات الأخرى تجري في الناحية اليسرى من الطريق في الاتجاهين . سار ناصر إلى جانب فخرالدين بين السيارات ، النقل باتجاه منزل ناصر . شريت اليوم شريطاً جديداً لـ «باخ».

- ما الذي تحبه في «باخ» هذا ؟

- لأن موسيقاه عظيمة . كأنها عالم متكامل ومنفصل عن هذا العالم . عالم من الدقة والجمال ومن الانسيابية . ثم إنها كأنها أبدية . لا تعرف متى تنتهي . كل مرة تظن أنها انتهت تكتشف أنها تعود . تبدأ من جديد . عندما أسمعهما كأني محرت هذا العالم كله .

أنصت فخرالدين قليلاً . وتأمر الشارع العظيم المتمرح والمسجد الأبيض الذي يلوح في نهايته . مشياً قليلاً هي صمت وعندما أدركا المسجد . انتحأ أمامهما بقية الشارع ممتداً

- أتعرف يا ناصر ؟ كثيراً ما أفكر في الهجرة

- الهجرة من مصر 19

- ليس بالضبط . هناك نوعان من الهجرة . هجرة إلى الداخل تكتشف فيها نفسك من جديد . تتقيها من الشوائب ومن العقد . وتطهرها من الأثام ومن العقد . وتسمو بها إلى أعالي أرحب وأسمى . وهجرة إلى الخارج لا يهتم فيها بنفسك وما بها بل تأخذ نفسك وتهاجر إلى شيء آخر . لامرأة نصيبها . أو مال تجمعته . أو نفوذ تبنيه . وشدن بين الاثنين .

- ليس بالضرورة . من الممكن أن تهاجر إلى الداخل دون أن تترك هذه المدينة . وإن كنت أظن أن تغيير المكان يفيد في تهئية النفس للمراجعة

ولتبدل . ولكن المهم هو الفية والتوجه . فمن كانت هجرته لنداحل فهي لنقاء نفسه سواء بقي أم رحل .

ابتسم ناصر وهو يلمس يده إحدى عربات لنقى الرابضة بجوار الرصيف :
- ما رأيك ؟ نأخذ واحدة من هذه العربات ونضع في المقطورة هراشين ومكتبة وكاسيت وكرسين ومصفي ؟

* * *

تدفق الدم في عروق الأستاذ سمير فازدد وجهه احمرارا . كان فخر الدين وهما صاعدا والأستاذ سمير يدرع الفصل دهابا وإيديا . وضع حذوة الحصا على المنضدة وانكأ عليها ناظرا إلى فخر الدين من عدستي نظارته الطبية السميكة وقال له وهو يمالك نفسه من لامعات في غضب :
- ماذا قال سارتر إذن ؟

- قال إن الوجود هي جوهره حرية . وإن الحرية تتمثل في الاختيار .
لا علم . قال إن الإنسان يصنع وجوده من خلال الاختيار وهو ما يرتب له مسئولية .

- هملا ولكن أساس فلسفته هو أن جوهر وجود الإنسان حرية .
- هذا الكلام غير موجود بالكتاب . حصرتك بتألف ؟

- لا يا أستاذ . أنا لا أولف . هذا الكلام موجود في كتاب د . ركي نجيب .
- ركي نجيب هذا في بيتكم يا ابني وليس في المدرسة . مائة مرة أفهمك أن الموجود هي الكتاب فقط هو المطلوب . بمر زيادة أو نقص .

- ولكن هذا غير صحيح يا أستاذ : لأن كتاب المدرسة له مؤلف ومن ثم فهو مجرد قراءة حزئية . ألم نقل ذلك في المحصة الماضية ؟

أمسك الأستاذ سمير بمصفا في توتر وهو ينظر إلى فخر الدين . طالت نظراته قليلا ورأى صمتا كاملا على المصفل . تنفس فسمع صوت نفسه .

مرك يديه وهو يواصل انتظار لقصر الدين ثم نمتم .

- لا فائدة . اطلع بره .

عندما وصل قصر الدين إلى باب عرفة الوكيل وجد ناصر واقفا ينتظره

فهذه ناصر ضاحكا وهتف .

- ما الذي أخرك اليوم ؟

* * *

في منتصف الكويري بالضبط وقتا . كان ماء النيل يجري من تحتها

أسود في هذا الليل البهيم . أنوار أعمدة الإضاءة المحطمة غائبة عن

المشهد . نظر فخر الدين بطول ممر المشاة في الكويري . كان حالها تماما .

عربات النقل الثقيل لا ينقطع مرورها من على الكويري الذي يترنج تحت

عجلاتها . نمتم ناصر .

- تخيل ماذا يحدث لو انهار الكويري فجأة ؟

- تخيل أنت ماذا يحدث لو انهارت القناطر كلها نفسها فجأة هكذا

والناس نيام وتدفقت المياه ؟

- بل ماذا يحدث لو أننا الآن ونحن واقفان رأينا في بوابات القناطر أسفلنا

تشققا ، وأدركنا أن الانهيار سيحدث خلال ساعة أو اثنتين ؟

- سنذهب فورا لتتصل بالمحافظة والمجلس المحلي والشرطة وخلافه .

ولن يصدقنا أحد . سيقولون عيال صغار إما بتلق أو يخيل لها أوهام .

وسنظل نبحث عن بيوت المسؤولين ونصرخ في وجوههم وهم يستيقظون من

نومهم أن القناطر ستهار وأن الماء سيفغر الشوارع والحقول والبيوت وهي

النهاية سنصرخ في الشارع على الناس أنفسهم لنقول لهم هذا الكلام .

- وهل سيصدقنا الناس ؟

- أغلب الظن أنهم لن يصدقوا . وسنظل نصرخ هكذا حتى يحتاج

لماء القناطر ويحمر شوارع المدينة ويفرقها بمن فيها . وبث نحن أيضا .

صمت الشابان لحظة ثم استطرد ناصر :

- ألا تظن أن ذلك أفضل ؟

- بل نموت ونحن نحاول سد ثمرات القناطر بأيدينا .

* * *

كان سم السيد الوزير مرسوما على كل الحواشي في المدرسة . واستعان القناطر بعدد من الحماطين الذين صنعوا له لافتات من القماش الأبيض عليها عبارات الترحيب بالوزير الأتي هي ريادة نادرة للمدرسة . ومنذ حوالي شهر كان مدرسو الألعاب الرياضية قد بدؤوا في برامج التدريب للطلبة للقيام باستعراض أمام السيد الوزير ورفقائه . وأعاد وكيل المديرية الاتصال بالقناطر ثلاث مرات خلال الأسبوع الماضي للتأكد من أن كل شيء على ما يرام . ثم زار المدرسة بنفسه ليطلعن قلبه . وأعيد طلاء فصول الدور الأرضي الذي سوف يتفقد الوزير . وكذلك قاعة الاحتفالات التي سبقت فيها كلمته والتي جددت ستائرهما الحمراء الكثيفة وأتى وكيل أول المدرسة بمجموعة حمراء كبيرة من الحاج أحمد صاحب محل المراهة المجاور له . وقبل الزيارة بيوم ظهرت صفوف من الزروع والأشجار الصغيرة في طول الطرقات بالدور الأرضي . وأتى بإطارين من المعدن ثبت فيهما شبك وعلقا في الفناء باعتبارهما ملعبا للسله . كما تم طلاء عوارض الأهداف في ملعب كرة القدم الذي أعيد رسم خطوطه بالجير ليلة الريرة بمسها . وتم إصلاح ثلاثة صنابير للمياه في دورة المياه الرئيسية بالدور الأرضي . وظلت حذارها المشقة المشبعة بالماء . وتم عمل كافة تشييدات اللازمة على الطلبة لإنتاج ريادة السيد الوزير .

وهي ذلك الصباح الذي لم تنسه المدرسة أبدا . تقدم الموكب في طرقة

بمدرسة من الهياكل الرئيسية وحتى الفناء . والتأخر يهرول مع الركب وأمامه
 ليدله على الطريق . ووقف السيد الوزير في أرض الفناء يتأمل الطابور
 المنضب ، وعروض الطلبة تتوالى . نظر فخر الدين إلى ناصر المنبسط
 على حواره على سطح المدرسة ونظر إلى وجه السيد الوزير وهو يتحدث
 في ميكروفون بصوت وقور وحان . وكان شاربه الأبيض يتحرك في هدوء
 مع تمتعات شمسية ونظائره الطيبة تُضفي على كلماته صدقاً مطلقاً . نظر
 فخر الدين إلى وجه هذا الرجل الطيب . هذا هو الوزير الذي بيده حال
 التعليم كله وهو الذي بكلمة منه يقيم مدارس ويطلق مدارس ويغير مناهج .
 وهو الذي بيده يفتح السجن لنا ويفلقه علينا . نظر فخر الدين إلى ناصر
 المنبسط على السطح وتبادلا إشارة ثم هبا واقفين . من أيديهما تدرجت
 لافتة قماش ملونة إلى أسفل المبني . وقف ناصر وفخر الدين يحملان قمة
 اللافتة المدلاة على واجهة المدرسة أمام السيد الوزير مكتوباً عليها : كل
 ما حولك كذب وبهتان . التعليم منهار . نريد الحديث إليك بحرية . ران
 صمت ذاهل على أرض الطابور في حين كانت بقايا جملة : السيد الوزير
 تتسلل ببطء من شفتيه وهو يصعد نظره في اللافتة بمينيه المنطقتين
 بالنظرة الطيبة . لما وصل إلى قمة اللافتة صمت تماماً وترك الميكروفون
 وغادر أرض الطابور إلى سيارته السوداء المنتظرة خارج المدرسة .

* * *

كذّب فخر الدين بحجر في الهواء هارتطم يقصيب السكة الحديد
 وانحرف مساره . هز ناصر رأسه وقال : أهاجر معك .

كان فخر الدين يعرف . كان يعرف أن ناصر سيهاجر معه حين يحين
 أوان الهجرة . كان في خراة نفسه يعرف عندما غرق في صفحة وجهه يوم
 رآه في الفصل أول يوم كان يعرف . عبر احتلي حديد ومصيا وسط الشطارات

الرابضة والقائمة هنا منذ أسابيع . عبر ، من تحت القطار لمفتوح لدهان
والترميم ومضيا فوق الفلكتكت بحشبية لمريضة في اتجاه لشرق . من هنا
يمر القطار . قال ناصر وأشار إلى منزله على مرمى البصر . جاء الأستاذ
الخصري بقامته المديدة يحمر صينية الشاي وتناولها لناصر الذي ورث
عن أبيه مهابة لصدر العريض . شرب شاها ونعناعا وعزفت موسيقى «باخ»
مثلما لم تعزف من قبل .

- 7 -

«تسم إسماعيل امتسامة واسعة جدا وهر كتفه لأيمن في حركة عضدية
ونظر إليّ ، قرب وجهه من وجهي وممس وهو يتلمص حوله
اسمعي جيد . اسمعني ولا تستمع إليّ . فأنا لا أقول ما أعني بالصبط .
وأعني ما أقول بالصبط . فافهمني كي تتفاهم معي هل أنت معي؟
برق بعينه ثم صعدت مسكة عالية بلا سبب ثم صمت وهدأت ملامحه .
صكت قليلا وأشاح بوجهه ناحية «ناعدة الوحيدة الموجودة بالحجرة . وطال
صمته حتى خلته نسي وجودي . هممت بالكلام فأصكتني بحركة من يده .
استمر الصمت وأن أأمل لحجرة المبعثرة والعلايس الممرقة المتناثرة
هي أرجائها . موقد بعين واحدة في ركن الحجرة وكوب زجاجي مكسور
بجوار رجل السرير . قال فجأة :

- هل ذهبت إلى هناك؟

- إلى أين؟

أشاح بوجهه وامتنع

- إلى هناك هي المدرسة.

قالها هارنا وهو يهز كتفيه وهي عينيه بدت مرارة.

- نعم ذهبت .

- وماذا قالوا لك؟ لا لا . لا يهم ماذا قالوا لك .

أقترب من وجهي ثانية :

- ولكن أتهم ماذا لم يقولوا لك . هل تعرف الطريق الأسفلتي المار من

خلف المدرسة ؟ على هذا الطريق سار فخر الدين مع ناصر مرتين كل يوم هي

طريق الذهاب والإياب . ستة أيام في الأسبوع على مدى أربع سنوات على

هذا الطريق حكى ناصر حكاياته : سافرة المعوقة وروحه المنطلقة وعينيه

المتقدتين . حكى ناصر حكايته : إخوته ، أمه ، أبيه ، وزينب ذات العينين

القطئتين المائرتين بالغموض والسحر . حكى ناصر حكايته المدرسة

والمدرسين والدراسة وقهر روحه فيه . والتقت روحه بروح فخر الدين هي

موسيقى «ساح» التي نملأ عليهما المار وتفسح خيوطاً للكتابة على الباب

وتصل المدينة وتبمد ضوءاً لها . وتنمو هي قلب البيضة حمامة تعلق قلبها

على الباب ويطلع لها جناحان جديان ومنقارا . على كوبري طلخا اتصلت

الحكاية والأحلام وأعاد رسم المدينة على الجدران . روى العلم بالنيل

المنتفش ليلاً وأضاءت مصابيح الكوبري شوارع المدينة الجديدة وخرج

ورد النيل من الماء إلى الشاطئ وزرع ونما شجرا وزحف على المدرسة

المتهمة . ونمت طحالب على عتبات الفصول وبنفسج من أشعار درويش

على السبورات هي مدرسة أخرى هي مدينة أخرى . وعلا النيل وروى الشعر

والطحالب والبنفسج والحقول التي جاءت من القرى واحتلت الأسفلت ،

ورثى فخر الدين وناصر أجنحتهما وملأ أوراق الامتحانات بأشعار درويش

وأشجاره وموسيقى دباخ، وكلمات الإمام الفرائي وخطب الشيخ محمد عبده وحكايات، هرمن هيسه، وتأملات سقراط، نقرت الحمامة بمنقارها وأككت وظهر ريشها وصاق عليها المش فخمقت بجناحيها في الهواء فأدرك الجهال أنهم بالداخل، فهاجموها بالكتب والأحبار وماكينات الاستنسل التي يطبع عليها لامتحان وصموف من الطواوير والمعصني والبوابات ولأسوار والدكك الخشب والجدران المتساقطة، ونشروا حولهما أورقا كثيرة ودفؤا على رأسيهما بكموت الكتب كي يمرغوها، ولما اشتد حصار الجهال للغار وحمل وطيس القتال واستشعر فخر الدين سوء موقفه، التفت لأخيه خلفه فلم يجد ناصرا، وكان يمسك بريشته وحده في مواجهة الجهال والصرب يملو، فأحد ينادي ابن الخصوي الذي اختفى، وظل هكذا طيلة الليل يقاتل أعداءه في ظلام دامس دون سند أو معين حتى تكاثروا عليه وأمسكوا به وأعادوه مرة أخرى لأسوارهم، وقطعوا الأشجار ومسح الفرائشون الطلح والبسمج وكلمات درويش وعاد للأسفلت سواده القديم وتحجر على الأرض الحجر الناشم، ولما جاء الصباح اجتمعوا وتشاوروا وقرروا قصه من مدارسهم وتشريدوا وحرروا عليه دخول دار علم كي لا يمسه حبطة أهدأ أو كتابة كلمة أو قراءة كتاب مطبوع، فظل فخر الدين يرسم أشجار وأنهار على الأسفلت ومدنا وأقوانا في الهواء ويعزف موسيقى الشعر في جوف الليل وحده وينادي على ناصر الخضري بين دمه.

سمعت إسماعيل وكان صدره ينهج بشدة والعرق يتصبب من جبينه ووجهه، كان الحر القاطط يجثم على هواء الفرشة، تكووت حبة عرق خلف أذني وانداخت على جانب رقبتي، يلت ريتي ونظرت إلى إسماعيل، لم يكن ينظر إليّ، بدأت نمسه تهدأ شيئا فشيئا ثم نهر إليّ في عيني وكأنه

يظهر إلى بعيد . قلت :

وأين ذهب هضر الدين بعد ذلك ؟

قال

- ذهب مطروح ما ذهب . ماذا يهم بعد أن كسروه وخافه بأصره وطردوه من التعليم . ذهب يرسم شعره ويقول شعره هي مدن بلا أسود .

- تقصد القاهرة ؟

يظهر لي إسماعيل في تدقيق . وقال .

- القاهرة ؟ ربما . وربما غيرها . إنه يطوف مدن مصر وقراها كلها .
ربما مر بالقاهرة . ولكنه دائما يعود .

قلت هي دهشة :

- يعود إلى أين ؟

قال هي بساطة :

- يعود إلى هنا . يغيب أندر ما يغيب ثم يعود . يمكنك رؤيته هي أي من تلك الليالي التي يظهر فيها عند كوبري طنطا . هي وسط كوبري بالضبط قبيل الفجر . ينشد شعرا ويرسم بريشته الهواء ألوانا .

«أنا ناصر ...

على كوبري القطار . في جوف الليل ومسيرة الليل اتطويل . عندك . هي ليل المداكرة لعقيدة . حين صمت معا بصحنا ونضج قلبي . حين تقشعت أنفسنا للحلم . كيف أصبحتني وبصحت معي ؟ كيف مررتما من هد السبع الرهيب ؟ وكيف هربت روحينا من شبائيك الرنارين العتيقة ليلا

كي تشرب من هواء الليل قبل مرور الحرس . هل كان يلزمك بعض العاطفة
من أجلي ؟ هل كانت العاطفة ضعفاً للرجال ؟ من أجلي أنا يا ناصر من
أجلي . حين عن الرحيل ووجب أصددت االركب وأنمت ابن نحاسي في فراشي
كي أفر أمانا من سطوة الحرس وانتظرتك عند الباب وعند مفترق الطرق ،
ومررت عند بيتك . وعند كوبري القطار . وعند قضبان المسكة الحديد .
وبطلت شارع الجلاء . ومكثت أنتظرك بالفار ليلتين . لا . لا أحد .
ناصر .. أيا ناصر .. كيف خذلتني واختفيت إلى الأبد ؟

« من أوراق هجر الدين »

الخونة

«سنخلي لك المسرح الدائري
تقدم إلى الصقر وحدك
فلا أرض فيك لكي تتلاشى ،
وللصقر أن يتخلص منك ،
وللصقر أن يتقمص جلدك »

محمود درويش

- 1 -

الاسم : يحيى إبراهيم .

السن : ٢٥ سنة . من مواليد قويسنا .

المهنة : صحفي حر (مدونة هكذا بالبطاقة الشخصية) .

محل الإقامة : القاهرة .

الحالة الاجتماعية : أعزب . وبلا أولاد .

- عرفت فخرالدين منذ دخولنا الجامعة وحتى وفاته . فقد مات على يدي هاتين . صديقته وأحبته ورافقتة منذ كنا نسكن معاً في المدينة الجامعية في أبي قتادة . كان يفصل بيننا خمس غرف فقط . رأيت أول مرة ذات مساء حين كنت ذاهباً لفرفرتي في آخر العمر - كم كنت أكره هذا العمر - ومررت بجوار باب غرفته وكان مفتوحاً . هرايت شاباً واقفاً يصلي وعلى السجادة جلست قطة . وكان فخرالدين يصلي مرتدباً فائتة بهضاء بحمالات . وقد أعجبني المنظر هانتظرت ثم دخلت وتعرفت عليه وجلست معه وعمل لي شاها واستمعت إلى شريط محمد منير الجديد عنده وتحدثنا طويلاً في أمور شتى . مارلت أذكر كل ذلك كأنه حدث بالأمس . كان قد رفع الفراش بجوار الحائط وعمل من ألواح مكتبة وضع عليها شرائط تسجيل لمحمد منير وعلي الحجار وموزار وديباخ . (لم أسمع أبداً لـديباخ هذا ولا أعرف كيف كان يستمع إلى هذا الزرع) . وكذلك كتباً كثيرة ودواوين شعر لدرويش ودنقل والسياب والبياتي وحجازي وغيرهم . ووضع المرقية على الأرض واستلقى فوقها . ومنذ ذلك اليوم وأنا أزوره في غرفته وتوثقت

علاقتهما حتى صرت آتي للمدينة كي أحلّس معه ولا آتيها لو كان عابثا .

- وإلى أين كنت تذهب في الأيام الأخرى ؟

- كنت أعود إلى قويسنا .

- 2 -

عبر فخر الدين شريط السكة الحديد الفاصل بين بين السرايات وأبي قتادة . قطارات البضائع ركّنة في متداد الحط الحديدية باتجاه الأفق . يائسو الفاكهة الليبون وضغوا فواكهس فوق أكوام البرتقال لتصيه في وجه المشتري كيلا يرى نساء مرتديات ملابس سوداء وباستعجال : المشاوير ، اللينة يعبرن في كل الاتجاهات حارّات حشفن أطفالا حماة لوحه والأقد م . رائحة مألوفة وعامصة تنبعث من مصنع البيرة المحاور . عساكر التوتيجية الليلية يتعمدون بطاطينهم الميري أمام قسم الشرطة . انحرف فخر الدين بعينا بعذاء : القرعة ، الساكنة الأسنة . جامع قائم مظلم بجوار قسم شرطة . لم ير فخر الدين صلاة تقام فيه يوما مضى فخر الدين بحوار الجامع أبوابه البنية الماكية موصدة بقصبان حديدية تجاوزه . رائحة اليهود تنبعث من مستشفى بولاق الذكور . جنبه خفيفة تأتي من عنابر لمستشفى المصيبة . عربة إسعاف مطفأة الأنوار تقطع الطريق على مهر وسط المطبات التي تتوسط الشارع . لاحت في آخر الطريق مباني المدينة الجامعية الصفراء اللون . اقترب فخر الدين من لبوبة . عسكري متشح بمعطف أسود ميري الأزرار وليندية . قايح في الكشك ، الحشبي المجاور للبوابة .

- مساء الخير .

قالها فخر الدين وهو يدلّ من الباب الحديدي الكبير . أطل الرجل

جلس الدكتور يونس على رأس مائدة الاجتماعات على يمينه جلست السيدة بشرى مشرفة الشاطئ العتيق برعاية الشهاب وقد وضعت أمامها منديلًا كبيرًا مبطّنًا بالأزرق ونقصاصات صغيرة معبأة عليها بالقلم الأحمر . عدلت يدها بحجاب طرحتها البيضاء ورشفت رشقة من كوب الشاي . وضع الدكتور يونس ذقنه بين يديه وهو ينظر لطلبة الخمسة المتحلقين حول المائدة . نظر إلى أمين الاتحاد وابتمت له .

- بذلك نكون أنهينا موضوع المجلة ؟

ولكن يا دكتور . هذه الطريقة تأخذ وقتًا طويلًا جدًا .

- اسمع يا ناجح . لا أتمني منك . أن أتصرف وفقًا لنظم ولوائح . أي مقال لابد وأن توقع أنت عليه ثم الأستاذ المشرف على اللجنة المختصة ثم أوقع أن على اللجنة ككل وتحتمها من الحرس . هذه هي القواعد ولا داعي لأن تعيد وتزيد في هذا الموضوع . ها يا مدام بشرى ما هو الموضوع الآخر ؟ اهتزت مدام بشرى في مقعدها وأخنت رأسها باتجاه الملف فبدت ثنية رقبتها السميكة تحت ذقنها

- عثدت موضوع المسرحية .

كان صوتها حادًا وريانا في غرفة المطبقة فطلب الدكتور يونس حاجبيه وخبط بيده على كفه الأخرى وهو ينظر لناجح ثم لفخر الدين والباقيين

- ما هو موضوع للمسرحية هذا ؟

رد ناجح بسرعة :

الموضوع يا دكتور خاص بالموافقة على النص .

مالت السيدة بشرى على أذن الدكتور يونس وبدأت تحدثه في همس وهي تحرج أوراقها من الملف تتناول الدكتور ملفًا صغيرًا من يدها وأحد

بتصفحه وهو يوصل الاستماع إليها . ناولته ورقة أخرى بها علامات حمراء . هر الدكتور رأسه مؤمنا وهو يطلع على انقصاصات ، اعتدل هي جلسته ثم نظر إلى فخر الدين :

- حضرتك كاتب المسرحية ؟

- نعم .

- طيب . والله مجهود عظيم . إن شاء الله لما تتخرج تبقى تكتب مسلسلات للتليفزيون . لمشكلة بسيطة يا سيدي . الواقع أنه لا توجد مشكلة أصلا . هناك فقط بعض العبارات التي ربما تكون قد كتبتها دون قصد سينمائي ولكنها لا تصلح للإلقاء هي ممكن عام . مثلا الراوي يقول لا أعرف أين بالصباح . المهم أنه يقول «نحن نعيش في زمن مضطرب» وهذا طبعا كلام غير لائق

ولكن يا دكتور المسرحية تدور في القرون الوسطى!

- والله تدور في القرون الوسطى أو هي أي قرون أخرى هي حرة لكن لما واحد يقف ويقول إننا نعيش في زمن مضطرب لن يقول ساعته أنه يتكلم عن القرون الوسطى على العموم هذه ليست لعبارة الوحيدة التي يجب حذفها ، هناك عبارات أخرى وهي مكتوبة كلها هي هذه الانقصاصات ، حذفها وراجعها ثم اعرضها على مدم بشرى لترصها عليّ. هذا إذا كنتم تريدون الموافقة عليها .

دق الباب مرتين ودلف منه أحد السماء . توجه إلى الدكتور يونس وقال بصوت منخفض :

- المقدم ماهر يسأل عنك يا دكتور .

* * *

سيد أبو الخير . كلية الآداب .

أهلاً وسهلاً ، فخر ..

أعلم فخر الدين عيسى هاشم . كلية الحقوق .

كان لتعارف سهلاً وسريعاً . سيد أبو الخير من نواحي بحيرة البرنس بشمال الدلتا . وجد فيه فخر الدين البساطة والإخلاص الريفيين للذين اقتندهما طويلاً منذ جاء للقاهرة . لم يصدده فيه تعقيد ولا غموض مثل الآخرين ، ولم ينفره منه تدخل أو ادعاء . أحس أن كل شيء فيه واضح وسهل التفسير . كانت غرفته هي أول الممر المقابل وهكذا كان اللقاء سهلاً هي المساء بعد العودة من الجامعة . سيد أبو الخير أيضاً جاء المدينة مهاجراً . حكى عن الصيادين في البرنس والاستقلال الذي يقفون ضحيته . حكى عن أبيه الصياد الذي خرج على مركب الصيد الذي لا يملكه ذات صباح مع الرجال وماد المركب بدونه . عن أمه التي تركت البيت إلى الحلقة كي تفرز السمك قبل بيعه وتعود بالخير آخر اليوم . عن أخته الصغيرة ذات السنوات السبع والتي كان يذاكر لها مبادئ القراءة ويلقي عليها قصائده التي لا تفهمها . - ولماذا كلية الآداب إذن ؟

حكى سيد أبو الخير عن أحلامه . عن الصحافة . مواهب الصحفي لا تنقصه . ينقصه فقط امتلاك ناصية اللغة وشهادة جامعية ولهذا اختار قسم اللغة العربية . ثم إنه شاعر ولا يحب أن يكون مع الهواة . بل مع المحترفين ، ألعب معهم بسلاحهم وأكسبهم .

سار سيد أبو الخير مع فخر الدين أياماً كثيرة بعد المحاضرات وهيل العروب ، على شريط القطار الممتد بجدار ترعة بولاق . الضطرابات القادمة من الشمال ترحل إلى الصعيد يوماً وهما يسيران من أبي قتادة باتجاه بولاق الدكرور

أترى يا فخر الدين ، يمكنك أن تمير عكس الاتجاه ، شرط ألا يسير في وجه القطار ولكن بحواره . القطار لا يستطيع أن يخرج من على الشريط ومن ثم قوته محدودة لأنه غير مرن ، أما أنت فتستطيع بحركة واحدة أن تخرج عن شريطه ولا تواجهه ، وبذلك تصبح كل قوته بلا فائدة ولا يستطيع أن يؤديك .
ابسم فخر الدين :

- موافق . ولكنك عندما تتحدى القطار لا تحل المشكلة أنت تتفادها . ولكن بعد ساعة يأتي قطار آخر ثم آخر وهكذا . وإذا ظلت تتفادي القطارات كلها فأنت لم تفعل أي شيء .
- بئ تفعل . أنت تتقدم . وتصل .
سمعت فخر الدين ثم قال :

- نعم ولكنك تغسر كل القطارات التي تمضي بكل ما فيها وكل من فيها !
- واد ! ولقت في وجهها ، تموت وترمي في المعاجم
سمعت فخر الدين وسمعت سيد أبو الخير ومضيا عبر شريط مكة الحديد مشابكي الأيدي . أنشد سيد أبو الخير من شعره ، وروى فخر الدين من ينبوع قلبه حكاياته القديمة والجديدة ، ضيق الصدر ، وضيق الجامعة والتصيق فيها حتى على كلمة في مسرحية .
قال سيد أبو الخير :
- هل تعرف يحيى إبراهيم ؟
- نعم .

سأقابه غدا للتحديث في هذا الموضوع . لماذا لا تأتي ؟
في مسرح كلية الحقوق جلس فخر الدين على مقعد خشبي مرتفع في عيين الصالة . مراد الدسوقي ، زميلهم من الدراسات العليا يوجه الطلبة

إلى مراقبتهم دخولهم إلى خشبة المسرح . لبثى عبد الغفار تمسك بورقة
في يدها وتقرأ منها دورها . فخر الدين يراجع النص الموجود في يده على
النسخة التي يستخدمها مراد الدسوقي . وحيد يراجع دوره وهو يخطب بيده
على ركبتيه في هرج وتعد . صمت تام . جاء صوت مراد عاليًا . حركة .

دخلت لبثى إلى خشبة المسرح وتوجهت إلى اليسار . وفقت هي مواجهة
فخر الدين وبدأت في إلقاء دورها . شعرها مملوم في ذيل حصان أبي وعيناها
واسعتان سوداوان . مظهر فخر الدين هي صفحة وجهها والنقث عيناها بعينيها .
التصقت عيناها بعينيها العميقتين اللتين ابتلعتاه فحمت الوجوه من حوله .
ملأت نظرتيها حتى جاء صوت مراد الدسوقي : لبثى لا من هصالك ركزي

* * *

«أبي

أقول يا أبي عنرا

وقمت في هوى بنية هنا

وأنت كم حدرتني من سموة المدن

لكنني وأبها كأنها أنا

فقيرة ، حزينة ، مات أبوها يا أبي

وتقرأ الشعر ،

«الخاصة من قصيدة لأحمد عبد المعطي

حجازي عثر عليها في أوراق فخر الدين»

* * *

جلسوا على الحشيش الأخضر أسفل نحتين متجاورتين أمام القبة . ساعة
 لجامعة تشهر إلى الثالثة إلا ربع . دقائق قصيرة ثم صمت . رواح الطلبة
 وعدهم أمام قبة الجامعة لا ينقطع . من بعيد بدا رجال الحرس عند السور
 يحصون بطاقات الداخلين كانوا هنا جميعا . محمد الدين وشوقي وسيد أبو
 الخير ويحيى إبراهيم ومنيب وقطيمة والشبح وأحمد وجمال وناجح وغيرهم
 من كل الكليات جاسوا وتحدثوا نحو ثلاث ساعات . قال محمد الدين في الختام .
 - إذن يمكن الاتفاق على الصيغة التالية . إننا . ونض التظر عن خلافات
 وعن معتقداتنا أو مذهبنا أو آرائنا . كلنا طلبة في هذه الجامعة . ننتمي إليها
 ومريد أن نجعل من وجودنا فيها فترة ثرية وغنية لنمونا النفسي والفكري . وأن
 نؤدي واجبنا الذي يفرضه علينا وضعنا كطلبة . سواء إزاء الجامعة أو إزاء
 أهلنا ككل . إزاء المجتمع بالأدق . وإن كل ذلك لا يمكن أن يتم طالما تكبت
 حريث وتقمع آرائنا ولا نمطي لنا الفرصة للتعبير عن أنفسنا . ولأسمنا أنت لم
 ترد يوما أن نتحلى القانون أو نهدمه أو نتعدى على حرية غيرنا أو نقيدها أو
 نلجأ للعنف أو القهر . بل إننا صريحة لكل هذا .

ومن ثم فإننا متفقون على ضرورة حصولنا على هذه الحقوق البسيطة .
 وعلى أن نتذرعها إذا تعذر الحصول عليها بالإقناع .

تحدث يحيى وسيد عن ضرورة التنسيق بين الجميع حتى ينجح أي تحرك .
 واقترحا احتلال مطبعة الجامعة مثلما حدث عام 1970 م . وأن شوقي
 وأحمد وغيرهم على ذلك مقترحين أن يعنصم الطلبة كلهم بالجامعة لحين
 الاستجابة لمطالبهم وطرد الحرس منها وتعديل لائحة النشاط الطلابي بحيث
 ينهي سيطرة الشرطة والأساتذة على نشاط الطلبة . وانضم الاجتماع على أن
 يلتقوا أسبوعيا للاتفاق على التفاصيل .

شريط الترمي ميت عند مدخل ميدان عبد المنعم رياض مجموعة من شباب تلعب كرة القدم في المساحات الأسفلتية أسفل كوبري أكتوبر . الإعلانات الضوئية أعلى العمارات تسقط أضواءها المتلاعبة على الميدان . أكرام الحديد والخشب الخاصة بأعمال مترو الأنفاق مكسوة على وهيف الترمي العائب . لم يستطع حجر الدين رغم ذلك أن يمنع نفسه من النظر خلفه من حين لآخر .

- من يدري ربما يظهر الترمي فجأة ؟

يشم شوقي بنصف شمته ورجع رأسه للوراء قليلا وقطب ملامحه . صمت حجر الدين ليفسح له الفرصة للهدوء والدخول في الموضوع أخيرا همس شوقي أنت تعرف أنا خطيت قطيعة من حوالي ستة أشهر . أنا أعرفها منذ ثلاث عشرة سنة . هل تتخيل ؟ كانت جارتنا هي شبرا الحيمة قبل أن ينقلوا ليعيشوا في بنها . منذ حوالي سنة أحسست بشعور غريب جدا . تعرف ؟ أنا لم أعرف الحب قبل ذلك أبدا .

وكل هذه القصائد التي تكتبها ؟ وكل هذه العيون وهذا الشعر ؟

- يعني هذه قصائد يمكن كتابتها في عيني فتاة في الأتوبيس . هي شعر زميلة هي «السكشن» ولكن لا أكثر من ذلك .

- ومها ؟

يشم شوقي وهر رأسه جانبا

- لا . مها بالكاد ألهمتني ثلاث قصائد . هي عينيها نظرة تحد مذهلة . وقد ما لعت نظري إليها . ثم إنني لا بد لي من مكهمة .

مثلا هدى . هذه الغناء القصيرة التي ترتدي ميرييه دائما .. لقد كتبت فيها القصيدة التي هارت بعائرة مهرحان الجامعة في العام الماضي . هد

كله شيء وعطيمة شيء آخر . عطيمة لعجب الحقيقي الأول في حياتي .

* * *

«لبنى»

لا أدري بأي حق أوجه إليك رسائلي هذه . ولا أدري لماذا أكتبها إليك أنت . ولكنني حين صاق صدري ونطق وجدت نفسي أمام الورق أكتب إليك . ربما كصديقين نتفهم بعضنا ونفهم بعضنا . ربما كروحين فلقين تتواصلان كي تستمرا على قيد الحياة . على كل حال هأنذا أكتب إليك .

لماذا يضيق صدري؟ كنت تسألين هذا النهار . لأقل لك الإجابة الآن كيف لا يضيق صدري وأنا أرى حوالي كل يوم كل هذا الطنم وكل هذا المبت؟ هل رأيت الزحل الممدد أمام سور كلية «المسوى» التطبيقية وهو عارق في أسمائه والحشرات من حوله والجرح الذي يترف بوجهه طوال الوقت؟ هل رأيته؟ ألم تشعرني بالمسؤولية تجاهه؟ كيف أمر من أمامه دون أن أدوس على قلبه . بالأمر أصعبته نقودا ولكن اليوم وحدته كما هو . ومن أدراك كم مثله هي أرحاء القاهرة وحدها وكم مثله وأسوأ منه هي هذه الأرض .

ألسنا كلنا بشرًا يا لبنى . لماذا إذن يموت آلافا منا جوعا ويحيا آخرون في بدخ؟ ولماذا حين يولد طفل في ريفنا المسكين لا يكون له الفرصة التي ينالها طفل سويسري؟ ما الفرق بين الطفلين عند الولادة؟ ولماذا أتحدث اليوم . وكل مشغول بهم . بلقمته ورزقه هو . دون أن يفكر لحظة أن رزقه ورزق غيره مرتبطان .

وهذه المدينة القاهرة . هي القاهرة بحق . كأنها تدوس بمبانيها . بزحامها وثرايها وضجيجها على عتبات روعي فتخفقني وأحاول أن أفر من وطأة قدمها على قلبي فتسند أيديها دوني . وألقي ملقى هكذا هي هذه

مقتل فجر الدين .
المدينة الجامعية القذلة الصغيرة . هي هذا المنفى الممدد المملح .
محبوسا خلف هذه الأسوار بين هذه الجدران الكالحة .

والرفق؟ ما من أحد يعرف في هذا لمنفى أجداء . مع أنني من أصول
ريفية مثهم . لا أنهم مختلفون فعلا عني . هم لا يأبهون بشيء سوى التوجة
الغذائية والمحاضرات ولديهم ما يشبه الفريزة الفطرية التي تحول بينهم
وبين الدخول في أي موضوع قد يتسبب في مشاكل لهم . يسببون في نهر
الحياة الذي يسقون منه حقولهم دون أن يكونوا مستعدين لحظة واحدة
للتخطر في توريح الماء أو لأرض . كأنهم شجر .

ورملاء النادي؟ لا أدري . هل هم ينفذون الأمور أكثر من اللازم؟ هل
يبحثون عن الخلاف وعن التعاويث المثيرة؟ ربما ولكن لأدعي من ذلك
هو عدم الإخلاص . عدم الإخلاص الذي يظهر من كلمة من تعبير من
لمنة . وغير ذلك مما لا أحب الحوض فيه الآن

هأين مصر؟ كيف أحد لروحي منفذا كي تخرج؟ وكيف أجد طريقي كي
يجعل الحياة أحسن وأقوى وأعدل؟.

من أوراق فجر الدين .

* * *

الدخان يملأ المكان . يتشكل في حلقات وأجسام خرافية تحتل الفراغ
بين الزحام على الأرض وبين لسقف الخشبي المنخفض . وجوه شاحبة
تبسو من خلف أشكال الدخان منهمكة في أحاديث مطولة وصاحبة .
عاصر البوفيه يمر حاملا أكواب حلبة وشاي وماء وقهوة . يجمع الأكواب
لمارعة وهو يحسب فتاة محببة مشغولة بتحديث ملثب مع سلامة فتحي .

«الناصرى المعروف . محمد الشيخ يتوسط حلقة النادي في الركن الأقصى
لأنه عليه يتسم شوقي بنصف شفته وأوماً لفخر الدين :

- ما رأيك ؟

ثم يرد فخرالدين وإنما هز كتفيه . مصفاً هبر سلعتين خشبيتين
لداخل انحنيا بجذعيهما ليمرا أسفل السلم الذي يقود للمعرض الفنان
إبراهيم عوض . رجل بدين ذو نظارات دائرية يعبر الطريق إلى السلم .
يثر السلم الخشبي مع خطواته . أحمد مراد المخرج المسرحي يمرق من
الداخل مسرعاً في اتجاه الباب . كوفيته الطويلة تتلصق في مسمار بارز من
مسند كرسي فتسحب الكوفية كلها من على كتفه . يستدير متضجراً ليخلص
كوفيته فيمنح الرجل البدين في أعلى السلم ويشير له برأسه باقتضاب .
يسحب كوفيته ومدل الحقيبة «الهاند باج» على كتفه ويمرّق للخارج مسرعاً .
تهرول من الغرفة الداخلية فتاة جينزية البنطلون مطلقة الشعر :

- أحمد .. يا أحمد!

- اثنين شاي .

علا صوت شوقي وهو يميل برأسه ناحية البوفيه ويشير لفخرالدين
باتجاه حلقة شباب النادي . يتقدم فخرالدين وسط مقاعد الجالسين
باتجاه الحلقة . يصلان إليها . يسحبان كرسيين ويدخلان إلى الحلقة .

* * *

خطوات متمهلة تتطع الصمت في الممر الخارجي . تقترب من باب
المرصة أصاح فخرالدين السمع . توقفت الخطوات . دقة واحدة على
الباب ثم صمت قصير . دقة ثانية فتح فخرالدين الباب . دلف ناحج
سريعاً وأغلق الباب خلفه . دوح بإصبعه إطار نظارته المهدمية ليثبت على

مفضل فخر الدين .
عنيته الممتوحتين على آخرهما . يتسم لمعد الدين ثم جلس على المرتبة
الأسفنجية الممددة على الأرض وهو يتطلع إلى جسم السرير الخشبي القائم
بعزاء الحائط . نظري شرائط انكاسيت لموضوعة على أرضه وهمس
- عندك مجموعة محمد منير كملة ١٩ هائل

- تعجب تسمع؟

- بنشوب .

جلس فخر الدين أمام ناجح وتساءل في قلق :

- ماذا فعلتم؟

- كل الأورق جاهرة على التصوير لكن نريد أولاً الموافقة على الصيغة
وعلى الخطوات التي سير عليها الموافقة نهائية
حاء صوت محمد منير الداعي من سماعات التسجيل الصغير الراقص
بحور المرتبة يا عروسة النيل يا حنة من السما . يأللي صوتك جوه قلبي
مدمعة .

- وشوفي بقية الجماعة ، هل عرضتم عليهم الأورق؟

- عرضت لأورق على محمد الشيخ وسوف يعرضها هو عد ، على بقية
المجموعة أذا ، وجودهم في بنها وبعد غد سيكونون في الأتليه . أما شوقي
فقد كنت سأسألك عنه .

- الحقيقة أنني لم أراه اليوم فقد كنت غاوب اليوم مشغولاً في بروفت
المسرحية . سأبحث عنه غدا . المهم . هات ما عندك .
أخرج ناجح الأوراق وبدأ في القراءة .

مسرح كلية الحقوق ، صفوف من الكراسي الصفراء تعلق وحدها .

حشمة المسرح عالية ومظلمة . فوقها جدار كرتوني عال كأنه حائط وبه نافذة وحيدة . بجواره كرسيان ومنضدة صغيرة . ستائر المسرح على الجانبين مرفقة وتترك الضوء ليحتل ساحة المسرح رغم إسدالها مراد لدسوقي يعلن بدء الاستراحة .

- نصف ساعة ونستأنف البروفة .

نزل الطنبة سريعا إلى كافيتيريا «لاياس» لشراء الشاي والبسكويت والسندوتشات والشيبسي . الجو مفسول بمطر الصباح وبثايا الماء لتجمع هي حديقة الجامعة . شجر أخضر زاهي الأوراق يحمل الشتاء بين فروعه . برد خفيف يتسلل من بين الأقمشة الصوفية حينعش القلب .

فخر الدين وليلى :

- اتنين شاي وواحد شيبسي .

عاد ، إلى سلم الكلية الرخامي القديم . قلب فخر الدين يخفق بشدة وليلى تصعد السلم بجواره . رائحتها المميزة تملأ الفضاء بينه وبينها . يحافظ على المسافة بينهما بالصبر كي لا يضاطر بلمسها ويخرج من دائرة محيطها . هل أحبها؟ سأل فخر الدين نفسه ولم يرد . دخلا قاعة المسرح واستقرا في الصف الرابع . وضع فخر الدين الشاي على الأرض وفتح لها المقعد المتحاور . شاهدا تجلس . هذه الروح الرائقة الرائعة الرخامية تجلس هاهنا بجانب . بجانب كوب شاي . بجانب ساعدي . انصمت لنى وهي ترشف من كوب شايها . هذا الوجود الحنون المقدس الذي أخشى الاقتراب منه ولا أطيق البعد عنه . غرقا في حديث طويل حول المسرحية والكلية والزملاء . كان أبوها هو الذي يشجعها دائما على النشاط أيام المدرسة ومنذ وفاته لا أحد .

- أنا أشجعك .

احمر وجهها وأطرفت :

- أنت فيك أشياء كثيرة تذكرني بأبي .

احمر قلب فخر الدين وهو ينوس بين ضلوعه إلى قدميه . ينظر إليها . لا يدرك كيف يمكن أن يكثف وجود إنسان ما الزمن والحياة لهذه الدرجة . اللحظة التي تمر وهو جالس بجوار هذه المخلوقة الصغيرة البريئة لعينين . تمر مكدسة بالحياة . ينظر إلى عينيها فوجدتها معلقة بعينيها كأنها تنتظره . بلغ ريقه بصموية وأعاد النظر مرة أخرى .

ما رالت عيناها هناك . احمرت وحشها مع حقوت الصوء

- أتعرف؟

- ماذا؟

- أنا أحبك جدا يا فخر الدين .

ارتبك فخر الدين . أعاد ظهره للوراء وأراحه على الكرسي رشم رشمة من كوب الشاي وأعاد النظر في عينيها السوداوين ، تتسع عيناها وتتسع حتى لا يرى شيئاً سوى سواد هديق حنون .. بهرا . وصمت لهنى قطعة شيبسي في فمها وفرقتتها ضاحكة فضافت عيناها قليلا . صحك فخر الدين :

- تأكلين الشيبسي كأنفثرانا

- كان أبي دائما يقول لي ذلك .

- ما هي حكاية أبيك؟ أكلما قلت لك شيئاً تقولين أبا

جاء صوت مراد الدسوقي هائلا .

- مروهة

تهدت لبنى وهي تنظر إلى عيني فخر الدين نظرة أخيرة وهي تقوم.
تأملها فخر الدين وهي تذهب باتجاه خشبة المسرح ومد ساقيه على الكرسي
المقابل . تشبه عروس البحر هي هذا البلهر الصوف الأحمر والبنطلون
الأسود الضيق . قالت - أنا لا أحب البنطلونات ، لكن الأستاذ مراد صمم
على بنطلون أثناء البروفة . ديل حصان شعرها يتهدى خلفها وهي تصعد
سلالم المسرح . علا صوت مراد :

- كل شيء جاهز؟ بروفة؟

هبطت موسيقى «مون أمور» فخر الدين يحمل باقة ورود حمراء ويتقدم
بجوار الجدار العالي . لبنى تطل من الشباك الوحيد أعلى الجدار وشعرها
الأسود المبتسرسل يتهدل على كتفها . يقذف بالورد للنافذة فتلتقطه لبنى
وتقبله . تضع وردة في شعرها . تنيب لحظة ثم تعود وتلقي بسلم من الحبال .
تبدأ هي النزول عليه . فخر الدين يقترب من السلم ويمد يديه ليلتقطها .
تعلو موسيقى «مون أمور» حين تهبط لبنى وتمسك بيديه . فجأة تحل طبول
عالية محل الموسيقى . يلتفت الحبيبان في ذعر . من كل اتجاه يهجم
عليهما رجال ونساء كثيرون ويجذبون كلا منهما في ناحية .

الثامن والعشرون من فبراير . البرد قارس بالخارج وبالدخل أيضا .
فخر الدين ينام في غرفته . طرق خفيف على الباب . اندشت فخر الدين
لروية جمال هي هذه الساعة . دخل جمال يظهره المقوس وأكتافه الصيقة
ألقى بتحية الممء وهو يهز رأسه المدعونة بين كتفيه يحمل أخبارا مفسدة
محمد الشيخ لا يسلم فطيمة الخطابات التي أرسلها معه شوقي . والتحلاف
لعميق الناشب بين فطيمة وشوقي مصدره وهيمة محمد الشيخ . وهي النهاية

مقلل فخر الدين .
محمد الشيخ أخيرني أنه يحب طبيعة منذ سنوات وأنه أولى بها من شوقي
ذلك المدعي القادم من القاهرة . انصرف جمال وهو بهز رأسه المدفوعة
وسط كتفيه الضيقتين . وكان صوت خطواته يرن في ظلام صمت الممر .

* * *

كانت رحلة مضية عانيت فيها على كل المستويات النفسية والذهنية .
واختبرت فيها كرامتي وشرفي ونزاهتي التي وضعت في مقابل الشفقة
واللباقة والعاطفة الإنمائية . ولما اتضح لي أن هذا العن أشد قوة ورسوخاً
في الفروع والجذور من أن أحاول ترويضه ناهيك عن تطهيره . أثرت
الاستناد . ولكن الرائحة ما زالت لزكم روحي .

قصاصة من أوراق فخر الدين
عن رحلته التي قام بها إلى بنها .

* * *

لدخان بملأ قاعة المهرجان . صوت تمنة المتحدث التالي إلى أحد
عمال الصوت يأتي مضجعا وغير مفهوم هي السماعات المعلقة في أركان
القاعة المسبحة . الرجل يدق بإصبعه على الميكروفون في محاولة لإعادة
الصمت في القاعة الضاحكة بالأحاديث الخافتة . أحمد يقف وحده في
ركن بجوار الخشبة يعد قصيدته التي سيلقيها بعد قليل . سهر تتراجع
بطهرها إلى الوراء وتكشف مساحة جديدة من ساقها السمراء النعيلة .
تميل برأسها ناحية فخر الدين وتواصل معه حديثا متقطعا .

دعوني أقل شعرا .

منى حمدي برأسها الصغير وشعرها الكاريه وحطوط كحل عينيها
المرنسية الطابع ، تمسح قاعة المهرجان بعينيها .

دعوني أقل شعرا حقيقيا

كنت واقفا في الأوتوبس الذي يحملني إلى الموت اليومي
رائحة العرق القاضع من إبط امرأة لاصق في وجهي
يفنقني

ويخلق في الزهر المأسوي اللون
بطن السيدة الحبلى يحتك بظهري إذ تعبر

إذ ترجع

إذ تتراخي

أتراخي

هي قلب الظلمة إذ تحملني غيبوبة ذهني للحقد المدفون ،
المحزون ،

لمسجون ،

في واحة بلدي

منى حمدي تستقر بنظرها على الصف الثالث حيث تحلس ليس
السرخاسي ، ويتبادلان نظرتين وإيماءة . سهير تميل على فخر الدين وهي
تسأله عن رأيه في قصيدة أحمد . فخر الدين شاخص الوجه ممتنع بنظر
إليها ولا يرد . منيب يتبادل حديثا ضاحكا مع شخص مجهول ثم يطلب منه
سيجارة ويحصى ليطلعها خارج القاعة .

رائحة بقايا طعام الإططار

تستل من إست الرجل التوقف عند الباب
 لعطش والعمى الزاحف من فمي نحو الأعماء
 يأكلني .. ينشرني
 الرجل الشاذ الملتصق بظهري
 ليلى السرجاني تقوم من مقعدها وتتجه للباب ، تنقني بعنى حمدي
 وتخرجان معاً ،
 يلمعنني
 ألتقت إليه فتبين أسنانه الصفراء
 أترجع ، يلمعنني
 أنتقل إلى الباب فأواجه رائحة البول العنيت
 من الشحاذ الرائج عند الشباك الخلفي
 نقياً
 دماً
 إذ لم أتناول إخطاري
 يحتلط الدم بحيط الدم المتمثل من ساق
 الطائفة المزنوفة جنب الباب
 الرجل لمصدور عند الشباك يتقياً بلفمه كالمعتاد
 السائق يتقياً ركاباً
 نقياً ، نقياً ، نقياً
 والنقي الطافح يملأ أفق الأوتوبس
 لأوتوبس الذي يحملني للموت صياحاً ... إلخ إلخ ،
 سمعت أحمد لمحتنين ، طوى ورقته وتراجع خطوة خلف الميكروم

جاء التصفيق متصاعداً من القاعة . ابتسم أحمد وهر رأسه واستحب من على خشبة المسرح

قام حجر الدين من مقعده مسرعاً ، شق طريقه وسط الزحام خارجاً ، التقى بمنيب العائد من الخارج وابتسم له في وهن اتجه إلى الباب . وخرج كان يشعر بعثان قوي من الدخان ومن القصائد التي تلى . وكان يتساءل عن العلاقة بين النضال وبين القرف . الهواء البارد هي شارع القصر العيني أعاد له بعض القوة .

وقف مستنداً إلى العمود الخرساني الضخم . شارع القصر العيني مزدحم كالعادة . السيارات تمر دون رحمة . دون التفاتة توقف أوتوبس عجزي خلفه الواقفون عند المحطة بالداخل كان المهرجان مستمراً . وقف حجر الدين في الهرد وحيداً نظر إلى الشارع وترقرق دمع في عينيه وعاد للقاعة .

كان منيب قد جلس بجوار سهير التي انحسر ثوبها عن ساقيها تماماً . شاعر آخر يصعد إلى خشبة المسرح وسط تصفيق حاد . مى حمدي عادت للقاعة وتجلس بجوار ليلي السرجاني هي الراوية الحلقية منمزلتين في الظلام قليلاً .

جاء صوت الشاعر رفيعاً وعالياً

عرق العمال الكفرانة على المكنة

طفحانه الكونة

حتى فتاهيت العيش

أخروها ولاد الفرية بتوع الجيش

مى حمدي ويلي السرجاني تعادرا القاعة بعد تبادل سلام سريع مع

بقية أعضاء النادي . لمح فخر الدين « سيد أبو الخير » واقفا بحوار الصف الأول يتحدث مع أحمد مراد المحرج المعروف ، ينشم من حين لآخر ويستطرد في الكلام . أحمد مراد يرتب يده على كتف « أبو الخير » ثم ينشم له ابتعامة متعجلة وينظر للسيدة الشقراء الحالسة على يساره . « أبو الخير » ينشم ابتسامات متتالية وينسحب منحنيا وهو يهر رأسه . شوقي ومنيب يتحدثان في نفس الوقت تقريبا لسهير التي لا تكف عن الالتفات بين الاثنين .

كانت قصيدة الشاعر هي الأخيرة . وعند الباب لفح هواء شارع القصر العيني البارد وجوه كل الحارجهين . حلقات المتجمعين حول الرصيف تتناقص وتتلاشى . أحمد والشيخ رحلا . ويقي شوقي ومنيب وسيد وفخر الدين .

سأل فخر الدين :

- من منكم أت معي لبين السرايات ؟

تبادل شوقي ومنيب نظره . وأسرع شوقي قائلا :

- أعتقد أن هذا طريق منيب .

- لا . هي الحقيقة أنا ذاهب الليلة إلى ميدان رمسيس لأقابل ابن عمي .

ابتسم شوقي بنصف شفثيه ، وقال .

- إذن تعال معنا أنا وسهير إلى رمسيس ثم نكمل نحن .

أخذ منيب بغما صميقا :

ولم لا نسهر معًا قليلًا ؟ هل ترغبين في الذهاب يا سهير ؟

هزت سهير كتفها ولم تجب .

رد شوقي

- على العموم أنا اتحاهي شبرا الخيمة سأوصل سهير لشبرا ثم أكمل أنا

قال منيب ، ميتسما :

إذا كنت مستعجل روح أنت وأنا ممكن أوصل سهير ثم أعود لاس عمي

هي وميسس

تعلملت سهير .

- أف . أي واحد منكم يومستاني وتخلص .

- 3 -

- كان فخر الدين خلال هذه الفترة يشعر بالتمزق . وكان شديد الوعي بنقائص زملائه . ولكنه لم يكن يجد بديلا سوى السكون والاستسلام . فكان عليه أن يحارب . مع جند فاسدين ، عدوا فائق القوة ، لأن التهديد كان موتا . كان يقول لي دائما - واعني بدائما المرات التي كنا نلتقي فيها - إنه يتذكر جيدا قصة سيدنا موسى ورفض اليهود أن يقاتلوا معه ، ثم عبادتهم للعجل حين ذهب للجبل .

سمت يحيى إبراهيم والتفت إلي سألته :

- وأين كنت يا يحيى خلال هذه الفترة ؟

لبت نظارته السمكة واختلج شاربهِ الأسود ونظر إلي بعيد

- كنت هي قويسنا .

* * *

كانت جلسة النادي عاصفة . إذ كنا جميعا ندرك أنها أهم جلسات النادي على الإطلاق . ولذا كان كل طرف يحاول التثبت بما يستطيع من مواقفه . كما كانت هناك خلافات شخصية . بين عدد من أعضاء النادي حالت البوصير لاتفاق

خلاصات بين من؟

بين شوقي ومنيب اللذين كانا دائما على خلاف ودون أن يكون لأيهما اتجاه محدد سوى مخالفة رأي الآخر ، وشوقي والشيخ . اللذين كما لا يتبادران حتى التحية منذ موضوع عطية . ثم حدثت خلافات أخرى بين منى حمدي وشوقي ، حيث أصرت منى على ضرورة تضمين حقوق المرأة في مطالب اللجنة وأن يشمل ذلك حقها في التعبير الحسدي عن نفسها ، فاتهمها شوقي بالشدد مما أثار مشكلة حقيقية وصلت للمركز بالأیدی . ولما كان شوقي طرفا في كل هذه المشاكل فقد توحد الجميع ضده وطالبوا بإخراجه من اللجنة .

- ثم ماذا ؟

- ثم تدخل فخر الدين ، والواقع أنه بذل مجهودا ملحوسا في إعادة الهدوء وهي التوصل إلى صيغة موحدة ترعى الجميع ، فالتقى بمجموعة منها ...

- من هم ؟

- الشيخ وأحمد وعبيد وجمال .

- من هو عبيد ؟

- مدرس لغة إنجليزية بمدرسة بنها الإعدادية . ودائما يسير معه «روكمان» يضع سماعاته على أذنيه .

- أكمل .

التقى بمجموعة بنها على حدة ، ثم بشوقي بممرده ثم بمجموعة كلية الحقوق ، ثم ببخى إبراهيم وبى ومعنا مجموعة كلية الآداب ، ثم أخيرا ساحح وبقية أمانة الاتحاد ، واستطاع خلال هذه اللقاءات أن يصل إلى الصيغة التي اتفقتا عليها جميعا .

- هل يمكنك القول إن فخر الدين كان قائد الحركة؟

- ليس بالصعب . الحقيقة أن كل واحد كان يحاول إقناع نفسه والآخرين أنه قائد الحركة ، لكن الحركة لم يكن لها قائد ، كان كل واحد مسئول عن مجموعة أو عضو في مجموعة ، وكان أي اتفاق لابد أن يمحطى باتفاق المجموعات كلها . فخر الدين لم يكن له مجموعة محددة ، ولكنه كان دائما يساعد في التوصل إلى اتفاق بين المجموعات

- من هو إذن صاحب الاتفاق الخاص بتنظيم المظاهرة؟

- نعم هو الذي وصح الصيغة التي اتفقنا عليها مثلما ذكرت .

- ما هي هذه الصيغة بالصعب؟

- أولا المظاهرة وتنظيمها ، من أين ستخرج؟ وما هو مسارها؟ وما هي شعاراتها بالضبط؟ وكان الشيء الذي أصر عليه فخر الدين وساندته فيه مجموعة يحيى إبراهيم هو تجنب حشد عدد كبير من الطلبة ممن لا يؤمنون فعلها بمطالب اللجنة : لأن ذلك سيضعف الحركة ككل وسيضع قيود على حرية حركتنا نحن كلجنة منظمة .

- ماذا تقصد بالطلبة غير المؤمنين بمطالب اللجنة؟

- أعني أنه عادة في هذه الأحوال يلجأ المنظمون إلى حشد أكبر عدد ممكن لإظهار قوة حركتهم ، ومن ثم يخترعون قصصا وحججا وهمية ويمطون وعودا متوارسة لجلب أكبر عدد ممكن . فخر الدين ومجموعة يحيى كان رأيهم أن تكون مطالب الحركة محددة فقط بقضية حق الطلبة في التعبير الحر عن آرائهم دون تدخل من قبل الأساتذة أو الحرس ، وأنه حتى لو كان التأييد صغيرا في البداية فإنه سيكون قويا وسيجلب المزيد من المؤيدين بدلا من خلق حركة واسعة مهلهلة وفاتمة على الأكاديم

وخطه التحرك؟

- خطة التحرك تتكون من نقطتين الأولى هي الاستيلاء على مطبعة الجامعة بمعنى دخول الطلبة إلى موقع المطبعة ولاعتصام فيها بما يمنع تشغيلها . والثانية هي حثالة برج الساعة وتعيق ميكروفيون أعلاها لبت مطالب الحركة . ولمراقبة حركة قوات الشرطة حول الحرم الجامعي .

«من أقوال سيد أبو الخير في محضر الشرطة»

- 4 -

بد تعادل طمعت حرب قريب من شرفة حزب النجم كانت منى حمدي بالذات مع ليلي سرجاني في اجتماع لجنة الحركة النسائية بصفتيهما استفتين بين اللجنة وبين طالبات الجامعة . ابتسم شوقي بنصف شفافية وهو وقف بالشرطة .

عندما سمع منى وهي تتحدث يحيل إليك . أنك تقرأ في كتاب من كتب بول السمد اوي . ومهما تناقشها لا فائدة . هو هو نفس الكلام . كأنها لا تسمعك . الثقافة الفرنسية مع الأصول الأرستقراطية قضيا على دماغها تماما .

كان الليل يتقدم وبدأ عمال النظافة في رش الماء في الميادين عند قدمي التمثال . تسامل أحمد في ضجر:

- أين ينتهوا الليلة؟ لقد تأخر الوقت وسيطونني آخر قطارات بنها .
- ضحك شوقي ونظر إلى منيب الذي كان يدخل في صمت . ثم أضاف .
- أنا ليس لدي مكان أستطيع أن أبيتك فيه . ومنيب غصه بين عمه .

الحل الوحيد أن تبيت عند سهير .

دفع منيب الكرسي بقدمه وهب واقفا هي مواجهة شوقي
- بلعن أبو أمك .

ركن طارق سيارته الالدا البيضاء بجوار الرصيف . أشار بيده إلى
فخر الدين . أطلق زجاج السيارة وفتح الباب ونزل :
- أهلا يا فخر الدين كيف الأحوال؟

تبادلا السلام ووقفا أمام مدخل الكلية . طارق بقميصه الأبيض مفتوح
التصدر قليلا ، شطلون رمادي غامق وحذاء لامع السواد . وضع مفاتيح
السيارة في جيبه . ووضع يده على كتف فخر الدين

- أمازلت راضيا أن تقتنع يا سيدي؟ يا بني منك من مجموعة العمال
الملمومة حولك هذه . هؤلاء تلقينيون وأعلقون . لماذا لا تأتي معنا الليلة؟
حائفا؟ الليلة اجتماع عادي ، مفتوح وعلمي . هي مقهى ، أظن أنه لا توجد
عملية أكثر من ذلك! اسمع : سأنتظرك في حدود الساعة مساء . أنت
عارف مقهى البستان هي وسط البلد؟ لابد أن أذهب الآن لأن عندي ميعاد
في شيراتون الجزيرة . اتفقتنا؟ في الساعة بالضبط

عبر فخر الدين ومنيب شريط الترمي وعرجا من شارع شبرا هي إحدى
الحواري الضيقة المتشعبة على يمينه . أشمل منيب السيارة الأخيرة من
عقبته الكيلوباترة ثم كور العلبة هي توتر وألقى بها على الرصيف . توقف
فجأة والتفت إلى فخر الدين :

.. منك جنيتها سليما؟

ممثل فخر الدين) مسرعا إلى كشك أسجدر المواجه وعاد معه علبتي سجائر.
أخرج فخر الدين النقود من جيبه وعدها ، جنيتها ونصف ، حذب منيب
الجنيتها واتجه مسرعا إلى كشك أسجدر المواجه وعاد معه علبتي سجائر.
- البيت من هنا .

شد فخر الدين يده على الحقيبة التي تحمل صور البيانات التي سيتم
توزيعها في المظاهرة . كانت سهرى في ثني ستدخل البيانات إلى الجامعة
هي حقيبتها . إذ كان لحرس عادة لا يفتش البنات . لم يكن فخر الدين
يريد الذهاب إلى بيت سهرى إلا أن شوقي أصبر صرار غريبا على دهايه
مع منيب في هذه المهمة . يظن فخر الدين أن ذلك بدفع القهرة المفتردة
بين الاثنين وقرر الذهاب حقا للمشاكل . اشارة يضح بالحركة ويد لأطفال
الدين يلعبون حول سيارة واقفة تصق الجدار الخلفي لأحد منازل الحارة .
صبي صغير يطل برأسه من مكان النافذة الخلفية للسيارة هي حين يتسلق
ثان أحزان سطح السيارة بمحطمة . فتلة تحري من تحت السيارة
وترتطم بقدم منيب الذي ينفضها وهو يعطرها سبل من السباب .
- وصلنا .

قالها منيب وهو ينظر لفخر الدين . قال فخر الدين :
- الساعة تقارب العادية عشرة . اطلع أبت بالحقيبة وسأنتظرك هنا .
شد منيب الحقيبة وانطلق في أحد المدخل الصغيرة . عاد فخر الدين إلى
أول الحارة ووقف يرقب الأطفال المتعلقين حول السيارة المنوكة . خمس
دقائق وعاد منيب مكفها .

- أعطيتها الأوراق ؟

لم يرد منيب بل نظر بعيدا ثم قال بلا اهتمام
- أعطيتها الحقيبة ولكنها لم تفتحها

نظر إليه فخر الدين عبر ضاحك . بلع منبه ريقه بصوت مسرع ونظر
لمحر الدين ثم مر بنظrote إلى بحر الشارع .
- أحمد كان عندهما . لمحته نائما على فراشها من فتحة الباب .

* * *

- ألم تعرف الأخبار ؟

تساءل جمال وهو يهر رأسه الصغيرة بانفعال بين كتفيه الضيقتين
وينحني أكثر بظهوره المقوس على فخر الدين :
- خير ؟

- منيب ضرب شوقي كاملا بالأمس أثناء لاجتماع التحضيري
للمطهرة . وأقسم بما أن ينسحب شوقي من النادي وأما أن يفضح قطيعة
في بنها كلها ويحكي لكل كبير وصغير ما كان يحدث بينهما قبل أن يتركا
بعضهما . وأصل الموضوع أن شوقي كان قد عرف أن أحمد مع سهير في
بيتها فتعمد أن يرسل منيب بالبيانات لها في نفس الوقت - يوم أن ذهبتما
معاً - محمد الشيخ لما سمع التهديد طبعاً اتزعج لأنه عارف أن منيب
مجنون ويعملها . حاول تهدئته فلما فشل طلب هو الآخر من شوقي أن يطرح
من النادي وانضم إليهم أحمد . أما سهير وطلبة فكانتا في حالة بكاء من
الأمس . بالمناسبة لماذا . لم تحضر الاجتماع ؟

أطرق محر الدين . نظر لساعة الجامعة . لم تكن تدق . لماذا كنت
تريدني أن أحصر ؟ نظر إلى جمال . كانت رأسه ما زالت تهتر بين كتفيه
الضيقتين . أطرق ولم يجب .

بالمناسبة . المحميس أقام كتب كتاب الشيخ على قطيعة . ألن تحصر ؟

* * *

مفلول فجر الدين
للم الطلبة أوراقهم من على البعثات استعدادا للخروج من قاعة
المحاضرات منزل الدكتور سعيد أستاذ القانون الدستوري من على المنصة
وأشار لبحرالدين أن يقترب . عبر فخرالدين صفوف المدرج إلى حيث
يقف أستاذه .

- نعال إلى المكتب يا فخرالدين . أريدك هي كلمتين .

هي مكتب الدكتور سعيد كانت صورة رئيس الجمهورية تتوسط الجدار .
على المكتب لافتة نحاسية صغيرة تحمل اسم الأستاذ وصفته .
مقدمين جلدیان فسيحان بجوار الجدار المقابل للمكتب . أشار لأستاذ
لفخرالدين وهو يكمل معادلاته التكيفية . من الفاهظة تبدو قبة الجامعة
ومن حولها العوازل الطشبية والحيال التي يستخدمها عمال الترميم .
على المكتب كوب ماء .

- اسمعني جيدا يا فخر . أنت طالب ممتاز وأنا أقدر مجهودك العلمي ،
بل وأقدر أيضا مجهودك في النشاط الفني والممصر وخلافه . ولعلك تذكر
أنني أنا الذي توسعت لدى الدكتور يونس رائد الاتحاد عندما كانت هناك
مشاكل حول النص . وتمكننا من خلال التعاون بيننا أن نحل هذه المشكلة .
ولكنني هي نفس الوقت ، وكأب ، أريد أن أنصحك . أنتم جميعا هنا كأولادي
فنحن لسنا مجرد أساتذة بل آباء هي المقام الأول ، ومهمتي كوكيل لكلية
لشؤون الطلبة أن أعني بكم جميعا . نحن هنا إذن كأ أسرة واحدة ، كالجسد
الواحد إذا تداعى منه عضو تداعى له بقية الجسد بالسهر والحمى . أليس
كذلك؟ حافظ الحديث أم أقوله لك؟

دق جرس التأليفون فتوقف الدكتور سعيد وابتنسم . رفع سماعة التليمون
- آلو ، نعم يا فخرم .

عاد فخر الدين ينظره إلى قبة الجامعة وأخذ يعد المواضع الحشوية المحيطة بها. واحد ، اثنين ، خمسة ، عشرة . . .

نعم يا بني ، ماذا كنت أقول؟ أم ، كنت أقول إنه يجب عليك أن تفهم أمرين غاية في الأهمية ، الأول أن دراستك هي أهم شيء بالنسبة إليك وبالنسبة لنا ، وهي السبب الوحيد لوجودك هنا في الجامعة ، وبدونها لا يصبح لوجودك هنا مبرر . أما النشاط فمسألة تكميلية الهدف منها تهيئة جو لطيف ، لكن يجب ألا تطفى أبدا على الدراسة .
- لو سمحت يا دكتور .

جاء صوت فخر الدين مبحوحا من طول الصمت . قاطعه الدكتور :
- اسمع يا بني ، أنا أعلم تماما كل ما ستقوله . أعلمه كلمة . أنا أريدك أنت أن تسمع . الأمر الثاني المهم الذي كنت أحدثك عنه هو أنه شيء لطيف جدا أن يكون عندك أفكار . أفكار من أي نوع فهذه علامة على النضج المعكرو للطالب . لكن حذار ، حذار من الخلط بين الواقع وبين الأفكار . الأفكار مكانها الكتب ، الدهن ، أما الواقع فمكانه من حولك وهو الذي تعيش فيه . هذا الواقع ليس صدفة وليس لعبة . أنت تستطيع أن تُعجب بأي أفكار تخطر لك على بال . وأن تغير هذه الأفكار ثاني يوم . أما الواقع فهو موضوع لا يخص لهذه المسائل .

باختصار المجموعة التي التأمّت معها هذه مجموعة صارة ومفسدة ويمكن تضر مستقبلك . أنا أعلم جيدا أنك بريء وأنهم صحبكوا على عقلك بالكلماتين المارعتين إياهم عن الحرية والتقدم . . . إلخ . طبعاً نحن جميعاً نؤيد الحرية والتقدم ، ونحن جميعاً نعبد ربنا ونعرف ديننا ، ونحن جميعاً ضد الاستغلال . ولكن المهم ألا تقع ضحية للإغراءات وللأفكار المستوردة

التي لا تتفق مع الواقع مثلما قلت لك . أنت طبعاً فاهم ما أعني أنا أعلم
بك دكي . وأهم إذا كانوا قد نجحوا في التأثير عليك هناك شعاع وقادر
على أن تقف مع نفسك وحقه صدق وتعرف أن مستقبلك في كمة وهذا الكلام
لنأرجع في كمة . وأن ساعة الجدل لن تجد واحداً من هؤلاء لميل بجانبك .
صمت الدكتور سعيد لحظة . تناول رشفة من كوب الماء الموضوع أمامه
ونظر إلى فخر الدين متجهماً :

- لقد وصلني عنك كلام سيئ . وكان هناك اتجاه لإهدائك . لكنني قلت لا .
أنا أعرف فخر الدين جيداً . دعوه لي وسوف أفهمه . أنت تفهم قصدي طبعاً .
أنا أعلم أن نيتك حسنة . لكن تصرفاتك هي التي وصفتك في هذا الموقف .

اسمع يا فخر الدين . لا بد أن تعلم أننا هنا جميعاً نعمل من أجل مصلحة
البلد . نعمل بنصح وإدارة للمسئوليات الملقاة على عاتقنا وللواقع المحيط
بنا . الواقع ليس سهلاً يا بني . الواقع معقد جداً ومرير . فلا تستسلم
لشهور نذري ينساق إليه عيال النادي وغيرهم سواء أكانوا من الشيوعيين
أم من الإسلامية أم غيره . كلهم واحد . وكلهم مرعسى فلا تضيع نفسك
معه . أنت شاب ممتاز . هذا تحذير أبوي يا فخر الدين . والجامعة قادرة
- وبالغالب - على اتخاذ إجراءات قاسية جداً ممكن تقصي على مستقبلك
تماماً . ما؟ فاهم ماذا أقصد؟

رأى صمت قصير قطع له دق على الباب . انفتح الباب فتحة صغيرة
وأطلت رأس المقدم ماهر :

لا مؤاخذه يا دكتور . ثم أكن أعلم أن لديك ضيقاً .

لا لا يا سيادة المقدم . تفضل . لقد انتهينا من موضوعنا

«حبيبتي لمتى

يا من كأنها أنا . يا من أمد شق نفسي فتكلمسها فتلتئم وتصير روحا
واحدة تحقق بحب وحلو وعطف وشوق ورتو - لانيهائي وامتلاك و بمصالح
عن هذا العالم وطير ن وسحب وأنهار وأشجار وعصاة وينابيع من ماء رائق
يخرج من يديك وشمس تسفل من بينك أشعتها فتسفل روحي وتظهرها
وتفتح قلبي وتدهشه وتطرد البعد عنه

يا من كأنها أنا . من أقول أحبك؟ هل تكفي الكلمة؟ هل تكفي هذه
الحروف لتحمل إليك ما بقيتي؟ أنت التي هدأت عندها روحي بعد نيه .
واستقرت ببابها سفني بعد طول يحار . أقول لك أنه أحبك . فمسي بدمي
زهورك وانثريه . وأنا أحبك . كم أحبك .

اليوم يوم رائق وجمير . تسبعت بصورتك وخرحت في الصباح . فابنت
شوقي والزملاء ورأيت الصبح بينهم ونفثت لأن مما كنا نود أن نضر .
من أجلي . من أحبك أنت . ومن أجلسنا معا . اليوم وغد . .

من أوراق فخر الدين»

النيل يتدفق في جلال يسيطر على نيل بنها . الظلام لا يملح في إخفاء هذا
لقوي الذي يملأ المكان بوحوده وبأماوجه المديبة القصيرة الانكسارات.
يرتسم الكورنيش هامشاً كأنه ينتظر السماح من النيل للمرور على جنبه .
أضواءه نصفرة المتعاعدة تقض مضاع من جمال نهر ليري . محمد
الشيخ يسير منمهلاً بحوار فخر الدين . كان فخر الدين يشعر بشيء يشده
إليه . لا يعرف ماذا بالضبط . هل هي وسامته وابتهامته وظرفه؟ هل هي
ساملته المتفاهية وشرهه؟ هل هي مهيبته كمحام والتي جعلت فخر الدين

يتطلع إليه كمستقبله؟ لا يعرف ، لكنه كان سعيدا عندما تلقى دعوة محمد للمحبة إلى بها ومضاء ليلة فيها . كانت هذه فرصة أيضا للتعرف أكثر على عبيد . ذلك المتمرد العاث لساحر الذي لم يمهقه فخر الدين أبدا وكانت فرصة لإعادة بناء الجسور بين أعضاء النادي واللجنة وإنهاء الخلافات بينهم . أفاق فخر الدين من أفكاره على صوت محمد الشيع وهو يعلو بالضحكات . نظر إليه محمد ثم شبك ذراعه في ذراع فخر الدين واستمرسل في الحديث عن النيل وجماله وبريقه هي بها .

- الأمر الذي يختلف كثيرا عن النيل القاهري المحافظ بالكبري والنوادي وشرطة الآداب . كان أبي يحب النيل كثيرا وهو الذي علمني حبه وحرصه هي نفسي . لم يكن صامدا بالطبع ، لكنني كبرت على تمشيات أبي على نيل واصحابه به . كانت هذه أجمل الأيام . ومن ثم ورثت هذا نحب كشيء مسلم به .

سمعت محمد وقطب حاجبيه

- والكره أيضا .

سأول فخر الدين هي دهشة :

كيف يمكن أن يكون الكره مسلما به ؟

تقلصت عروق في رقبة محمد الشيع وهو يستطرد :

- عندما يدق باب بيتكم الخشبي في فجر يوم عادي ككل الأيام ، ويهرول أبوك بلعبة الجاز في يده ناحية الباب وتتوارى أمك خلف الباب ، وتمسك أنت الكبير الصغير بتلابيب إحتوتك الصغار الممزوعين ويستمع الباب ليدخل منه أفواج من العساكر بملابسهم السوداء والمحبرين بشواربهم وجلابيبهم المريمة . هؤلاء الذين عشت حياتك تبعد عنهم ، ما لقيتهم

هي الطريق من هرمط، شرهم ، يدخلون جميعاً إلى قلب بيتك ويدوسون كل شبر فيه ، كل شر تشهكه أحذيتهم الثقيلة المحملة بالطين وبالسطوة التي لا قاهر لها ، ويخرجون بعد أن يفعلوا ببيتك الذي كان قلعة أمنك ومستقرتك ويأخذون معهم أبائك رب البيت ومعنى الأسرة والطمأنينة ومصدر قوتك واحتمالك من الدنيا ، أبائك حامى الحمى والظهر الذي كنت تحسنى فيه وتلجأ إليه من انتقام أطفال الحارة ، أبائك اليد الكبيرة الحشنة التي كنت تتعلق فيها فتسلم لها نفسك في سكونة وأطمئنان لا حد لها ، يسحبونه أمامك على الأرض ويأخذونه في ظلمة ليدهم القابع خلف الباب الذي لم يعد يفلق عليك أبداً ولا تراء مرة ثانية .

- ألم تعرف أبداً أين ذهب؟

- قالوا لنا فيما بعد إنه رُحِّل لسجن القلعة ثم لا أدري أين . ولكن اسمه مسجل دخول في سجلات سجن القلعة الحربي مع بقية أعضاء الإخوان المسلمين الذين تم اعتقالهم أيامها ، وعبر مسجل هي كشوف الترحيل أو الخروج ، ولا توجد معلومات أكثر من ذلك . مسح محمد الشيخ وجهه بكف يده واجتهد في الابتسام قليلاً . ثم استطرد حاكياً لفخر الدين عن الإخوان المسلمين وعن حياة أبيه المعمورة بالإيمان والصلاح والسيرة الطيبة . وكيف كان يقول دائماً ، إن الإسلام دين المستضعفين في الأرض وثورة المستقبل وأمل الفقراء . حكى محمد كثير عن أبيه وعنه هو أيام كان في الجامعة أثناء مظاهرات 1971م وكيف احتلوا الجامعة والمطبعة وأجبروا السلطة على التراجع . وأنه بنفس المنطق يجد من الضروري الآن تجميع كل القوى بغض النظر عن اختلافاتها من خلال البحة للعمل على إخراج الحرم من الجامعة وعودة حرية التعبير للطلبة

* * *

حجرة صغيرة بيضاء الجدران . شباك خشبي واسع وأخضر اللون . على حافة الشباك نايب وعليه كبريت . على المكتب الإيدل الرمادي القامع أمام نافذة جهاز تسجيل وشرائط عديدة ملقاة على سطح المكتب . من حله مكتبة خشبية تكسبت فوقها أكوام من شرائط التسجيل وعدد من الكتب . سرير معدني معد بعناية أم وممروني عليه ملأه برصاء ذات خطوط حضراء عريضة . من النافذة يمتد شارع ضيق مؤد إلى النيل .

- ما هذه الرعاهية يا عبده؟ ساكن على النيل؟

ابسم عبده ومد يده ليمس صوت البيتلر الآتي من التسجيل .

- هل جريت البابية؟

- جريته ولم يجعني .

ضحك عبده وهز كتفيه :

- أعترف ما هو أحسن شيء هي الدنيا؟ الـ «بيتلز» ، يلي ذلك الـ «سوبر

ترامب» . اسمع هذه الأغنية مثلاً . كلماتها تقول : «عندما كنت صغيراً لم

أكن أحتاج إلى أحد ، ولكن هذه الأيام ولدت» .

توقف عبده فجأة ونظر إلى هجر الدين متسائلاً :

- هل قابلت محمد الشيخ؟

- نعم ، بالأمس .

عاد عبده برأسه إلى جهاز التسجيل وأخذ يعبث ببعض الشرائط . ثم

قال يهدوء :

«إذن احترمني منه . محمد مباحث» .

قال لي يحيى إبراهيم :

- وعبد الصمد هذا كذب من كلاب إمبابة . وهو أحد بقادورات التي جرها علينا شوقي كامل إذ عرّفه عليه باعتباره صديقه . وهذا الشخص حريج تجارة ورث عن أبيه ورشة تصنع التوايت وحشب نقل الموتى وحلافه . ويبدو أن مهنته طبعت روحه بكأبتها . وهو له من الثقافة حظ لا أدري من أي صوب أتاه . وكنت أعتقد أنه شيوعي وإن كنت أشك في أن يكون له أية معتقدات بالمرّة . وقد بدأت المشاكل سريعاً بعد ظهوره . وبدأ بالدم لمحر الدين في شوقي . إلا أن محراب الدين غضب وقال له به لا يحب ذلك أبد . وواجهه بشوقي مباشرة . إلا أنه استمر بعد ذلك في الدم في شوقي لأحريين في الوقت الذي كان مستمر . هي ادعاء صداقته . بعد ذلك بدأ في ملاحقة لبنى مستعلاً براءتها في الواقعة بينها وبين شوقي أولاً ثم في الواقعة بينها وبين محراب الدين . وكان له ما أراد في النهاية . لعله ذلك عليه . كان من بين الطعنات التي قصت على محراب الدين .

- أتم تفتيه لبنى لما كان يحدث؟

- لا أعلم إن كنت قد أدركت أم لا . في الحقيقة أنا لم أفهم أبداً كيف تطلت لبنى عنه بهذا الشكل .

- وأنت؟ أتم تلاحظ شيئاً من البداية؟

- الحقيقة أنني كنت متفانيا هذه الفترة عن الجامعة . كانت إجازة نصف العام قد بدأت وكنت قد عدت لقضائتي في قويسنا .

- ماذا كنت تفعل في قويسنا؟

أطرق يحيى إبراهيم لحظات يفكر ثم نظر إلي من حلف نظارته
المسيكة وقال :
- لا أذكر .

- 6 -

- البروفة في قاعة 2 يا لبنى .
التفت لبنى إلى فخر الدين .
- حاضر سأتي حالا .
وأكملت حديثها مع عبد الصمد .
بدأ فخر الدين المشهد . أوقفه مراد الدسوقي
- واحد بواحد ، نحن ما رلقا في البداية ولا داعي للعجلة ، أنت يا
وحيد ، ما هو مشاكلك ؟
- القمر يا مريم .
- دن لما فخر الدين يقول كلمة مريم تدخل أنت من العمق ، بالضبط من
منبتك هنا ، تبدأ جملتك مع أول خطوة وليس عندما تصل لهدى ، أوكيه ؟
أعاد فخر الدين المشهد . قال :
- ولكن أين ذهب القمر يا مريم ؟
- نفتح باب القاعة ودخلت لبنى وعبد الصمد . التفت الجميع إليهما .
خبط مراد الدسوقي على البنش الخشبي وقال :
ما لحكاية يا لبنى ؟ بطلت التمثيل وسكتما ، ممكن تسمحي لما نمثل ؟
- آسفة ، المظبوطو كملوا ، لم أكن أعرف أنكم بدأتُم بالفضل في البروفة
عاد فخر الدين للحلف ، مالت لبنى على أذن عبد الصمد وهمست فيها

وتبدلاً صحكة توتر هجر الدين قللاً وعلا صوته

- الصوت في القاعة من فضلكم

كعنت لبني

- أسمعين . ممكن نمشي إذا حببتم .

نم يرد أحد . تقدم هجر الدين :

ولكن أين ذهب القمر يا مريم ؟

دخل وحيد زاعقاً في نفس اللحظة التي انفتح فيها الباب محدث أزيزاً

حاداً وأطلقت من فتحته رأس شوقي . نظر الجميع إليه ، وحبط مراد على

البش في استسلام :

- أوكيه يا جماعة ، استراحة .

نزل هجر الدين من على المنصة واتجه إلى حيث تجلس لبني وانضم

لهم شوقي ، الذي جلس بجوار لبني من الناحية الأخرى . وقف هجر الدين

أمامهم في المنتصف أمام لبني . ابتسم شوقي ومد يده إلى كشكول لبني

وسحب من أمامها . تصفحه بسرعة وهو يسألها :

- ما هي أخبارك ؟

- ماشي الحال .

نظر عبد الصمد إلى هجر الدين وقال

- هنالك مسرحية ممتازة الليلة في المسرح الحديث ، تحب تشوها ؟

نظر هجر الدين إلى لبني التي تقادت نظره . تمتع في سيق .

- لا ، لا أعتقد

نظر عبد الصمد إلى شوقي متماثلاً . أجاب شوقي على الفور

- طبعاً أحب .

انتظر ينتظرته إلى لبتى :

ها يا لبتى ، المسرحية الساعة 8 ما رأيك ؟

ردت لبتى :

- موافقة ، سأكون موجودة أمام المسرح .

مسح فخر الدين جبينه بيده محاولاً فك التوتر الذي يعتريه منذ الصباح ، الساعة الآن الخامسة ، والعرض المسرحي يبدأ هي الثامنة ، وفي قلبه وجع حقيقي .

- فخر الدين ، من فضلك ادخل غرفة الملابس واستعد للمأكياج .

- هل وصل صلاح ؟

- لا ، ثم يصل بعد . ادخل غرفة الملابس وانتظروه بالداخل حتى يصل ويعمل المأكياج .

دخ فخر الدين إلى غرفة الملابس . على الجدران بقايا أسماء طلبة سابقين قدموا عروضاً في مهرجانات سابقة وبقشوا أسماءهم على الحائط . جلس فخر الدين على الدكة الخشبية وأراح رأسه فوق ساعده . نفتح الباب وتخلت هدى .

مساء الخير يا فخر الدين ، مستعد ؟

أوماً فخر الدين برأسه وسأل .

- ألم ترى لبتى ؟

- لا ، ممكن تراجع النص بسرعة ؟

بدأت هدى المراجعة من الفصل الأول توقفت .

لا أرجوك الدور محتاج بمعال أكثر من ذلك أنت عايش تجمعه .
مشاعر يا أستاذ ، مشاعر لو سمحت
- آسف ، نبدأ من جديد .

★ ★ ★

مد صلاح يده أمام عيني فخر الدين .
- لا ترمش .
رقبه مراد بنظرة نظام . اتسعم فخر الدين في وهن . استكمل صلاح
لمساته في جفن فخر الدين . أعادت هدى تأمل وجهها في العرأة العثينة
بالعاطل . انفتح الباب ودخل محمد .
- يا جماعة ، بسرعة أكثر من ذلك ، لجنة التحكيم على وشك الوصول .
- أه ، يا محمد ، انتهى وصلت ؟
تبادل محمد ومراد نظرة . رد محمد
- لا ، لم تصل بعد .
بلغ فخر الدين ريقه بصموبة . تقلصت عضلات وجهه في يد صلاح .
- لا أرجوك ثبت عضلات وجهك .
تهدد فخر الدين وهو يكتف شفا يبدأ في قلبه
- حاضر ، حاضر .

فتح مراد الباب وانفتحت لصلاح .
- باقي كثير ؟
- أمامي خمس دقائق بالصبيح .
همس فخر الدين وهو يحاول أن يكون صوته طبيعي قدر الإمكان
من مصابك يا مر د تحجر كرسي في أول صف على اليمين

ضبط على لسانه واستطرد :

- باسم ابني .

- حاضرا

قالها مقتضيا وصفق الباب وراءه . أكمل صلاح عمله . أنهى تصنيف

الشعر وتبنيه . ابتعد قليلا لينظر لوجه هجر الدين

يا نهار اسود! شكلك قبيح! يا بني المقروض شكلك يكون شكل شاب

سعيد مقبل على لقاء حبيبته . أنت شكلك مهت! أعطيني بؤرة حمراء يا

هدى من فضلك . اهتمم . اهتمم يا حبيبي من فضلك!

الثامنة إلا خمس دقائق . هرولة مراد ومحمد وبقيّة طاقم الإدارة

المسرحية لا تقطع . هجر الدين يتبادل مع هدى مراجعة النص والحركة

في غرفة الملابس . صوت مراد يصل إليهما وهو يجري اختبارات الإضاءة

النهائية . الموسيقى التمهيدية بدأت تملأ في الصالة . أغلق محمد باب

الغرفة المؤدي للصالة . ووقف مراد عند أول الكواليس :

- كل شيء جاهز ، سنبدا .

وقف هجر الدين حاملا وزود الحمراء عند مدخل خشبة المسرح .

موسيقى «مون امور» تملأ رويدا رويدا مع انفتاح الستار . رموس المتفرجين

تبدو شاحمة وصفرة وكثمة . أضواء «البروحكوت» تملأ عيني هجر الدين .

في الصف الأول في الصالة . على أقصى اليمين . لمح هجر الدين مقعدا

خويا . على ظهره ثبّت ورقة بيضاء .

ابتسم شوقي كامل في وجهي بنصف شفته ، وأردف :

- بيا ، لقد ذكرتني بأجمل الأيام ، رحمه الله . كان قلبه ضعيفا ونفسه حساسة أكثر من اللازم . لم يحتمل الصدمة وراح فيها . لو كان يعمل قليلا وبلغ الموضوع كان حصمه مع الوقت . كان تمود وعاش وأصبح مثلفا . كنا فابلنا مشاكل وصدمات لكن استطعنا أن نتكيف معها . حسارة ، راحت حياته بلا جدوى .

...

طلعا كنا أصدقاء مقربين جدا ، ولنا أذكر جيدا ليلة وفاته .

بعد المسرحية مباشرة كان في حالة غير طبيعية لكني ظننت أنه الإرهاق من العمل والتوتر في الأيام الثلاثة الأخيرة . كان يشعر بدوخة وبأن ظهره يحبط في صدره من حين لآخر ويضايق نفسه ، وكان يترج قليلا مسنده حتى وصلنا غرفته بالمدينة الجامعية . تركني في الغرفة وراح دورة المياه . لما تأخر خرجت لأرى أين هو فوجدته ملقى على الأرض في النصاله الرئيسة أمام الباب . جريت ناديت المشرف الذي استدعى الإسعاف بسرعة ونقلوه إلى مستشفى الطلبة . لكن الهبوط الذي أصابه كان حادا جدا لدرجة توقف معها وصول الدم للمخ وهو في سيارة الإسعاف . وعندما وصل للمستشفى كان الموضوع انتهى رحمه الله . كان ممدا بجوارتي وكنت أرى وجهه . ويومها بكيت ، وظللت أقول له : لماذا يا فخر الدين . لماذا يا بني ، هل يموت أحد من أهل فتاة تركته؟ يا بني احقل . يا بني ارجع . لكن طلعا كان كلامي هو الجنون بعينه . لأن الموضوع كان انتهى الله يرحمه .

مقتل فخر الدين - كان صديقاً وشاكاً معتزلاً . لكنه كان هاشماً ريادة عن اللزوم وكان مثاقلاً أيضاً ريادة عن الممكن تصور أنه أحب البتة لدرجة أنه وضع عليها كل أحلامه وحياته؟ وضعها عليها فعلاً وليس بالكلام . وكم حدرته من ذلك . ولذا لم يحتمل الصدمة عندما تركته - الله يرحمه . لم تكن له هذه الدنيا .

* * *

- كان اليوم عاصف . بدأت المظاهرة عند سلم كلية الحقوق أمام مكتب حرس الجامعة . وكان غضب الله يدياً على وجه المقدم ماهر قائد الحرس . والتفت المظاهرة عند تحريكها بمظاهرة أخرى قادمة من عند كلية الآداب وسارت باتجاه كلية السياسة والاقتصاد والإعلام حيث انضمت أهد جديدة لها . وتجمعت أمام كلية التجارة حيث وقعت أولى المصادمات بين الطلبة وإدارة الجامعة . إذ صمغ عميد الكلية قائد المظاهرة على وجهه وشم بقية الطلبة المشتركين في المظاهرة ناعته . بهم بأعماط يحول قانون الأدب العامة دون ذكرها . فهجم عليه الطلبة وضربوه بالجزم ولم ينقذه سوى عسكري لأمن الذين أخذوه في سيرة الشرطة . النصف نقل إلى خارج الجامعة . وعند الظهيرة كان فخر الدين قد تولى قيادة المظاهرة ومر بها إلى كليات العلوم والآثار ودار العلوم ثم عاد بها وتجمع كافة الطلبة أمام القبة . كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً . ولهاذات ما زالت مستمرة وكان فخر الدين قد ترك قيادة المظاهرة بعد أن شكل الطلاب لجنة لمقابلة رئيس الجامعة بمآثر ألا يكون من صممها . وتوجه للأطعمشان على سير

الأحوال . وكانت الأمور حتى ذلك الوقت تسير على ما يرام . بحلول الثانية ظهر ، كان علم اتحاد الطلبة يرتفع فوق برج الساعة التي أحدث تدق دقات متواصلة إيدانا باستيلاء الطلبة عليها . ووقعت المحلطة أيضاً تحت سيطرة الطلبة وغادرتها أعمال هي هدمه . ولما رأى رجال الحرس أن الوضع قد تأزم تحصنوا بمكائنتهم ولم يغادروها وظلوا طوال الوقت يتبادلون المكالمات لتليفونية مع وزارة الداخلية . وعند الثالثة ظهر كانت تعزيزات من قوات الأمن قد وصلت وانتشرت بطول شوارع الجامعة وثررت . وكان الطلبة قد ثبتوا بالفعل ميكروفوناً أعلى البرج وهدموه . يذيعون منه الأغاني والبيانات .

- وأين كان فخر الدين ؟

- كان ينتقل بين الكليات . وبحوالي الساعة الرابعة قابل أول مرة مجموعة الفتيات الآتيات من كلية دار العلوم واللواتي أخبرنه أنهن قد خرجن في المظاهرة . لأنهن قد سمعن أن صابطاً بالحرس قد اعتدى على إحدى الطالبات . وقد هزغ فخر الدين لما سمع بهذا . ولما استقصى الأمر تأكد من أن هذه القصة الوهمية منتشرة بين كل طلبة وطالبات دار العلوم وبدأ يحس راحة حيانة مجموعة دار العلوم للاتفاق الذي توصلوا إليه في اللجنة . وعندما قابل كوانز الجماعات الإسلامية وأخبروه أن الشيخ قد اتفق معهم على تضمين مطالب الحركة فرض الري الإسلامي بالجامعة تأكد لديه بحسامه . وقد أصابه ذلك غضب شديد فطلق يبعث عن أعضاء اللجنة . ووجد الشيخ ومنيب هي المطبعة يتشاجران حول البيانات التي سيطنمونها . إذ كان الشيخ مضطراً على حد قوله لتمرير بعض البيانات التي أعدها

شباب لجماعات الإسلامية ، وتطور الأمر إلى الصدام بين أعضاء اللجنة وكوادر الجماعات الذين استحموا الجنازير في إنهاء الطنافة وانتهى الأمر باستيلائهم على المطبعة كاملة وطرد الباقين منها .
في نفس الوقت كان شباب الندى قد أحكموا قبضتهم على برج الساعة وبدءوا يذيعون أغاني لشيخ إمام .

وبحلول الخامسة كان طلبة دار علوم قد أدركوا أنه لا يوجد ضابط ولا طالبة ولا اعتداء فبدءوا في الخروج من الجامعة .
- وهل ظل بحر الدين في المظاهرة أم خرج ؟

- عندما انتقلت ببحر الدين كان حزينا للغاية ويكاد السمع يمر من عينيه وقال لي

ما العمل مع هؤلاء الهمج ؟ كل ما اتفقنا عليه غيروه وبدلوه وعلوا مثل من كنا نعارضهم .

وكان يريد الخروج من الجامعة وترك المظاهرة ولا يقدر ، ويريد البقاء فيها ولا يقوى . وظل في هذه الحالة حتى اقتحمت قوات الأمن الحرم الجامعي عند منتصف الليل واعتقلته فيمن اعتقلت .

من أقوال سيد أبو الخير

في محضر الشرطة

الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً . ثم يبق سوى ساعتين على صلاة
الفجر . لعلم فخرالدين نفسه هي نفسه وهو يلتصق بجدار جامع صلاح
الدين . لأرض العشبية هي حديقة الجامع مبللة ولكنها أكثر دحناً من
سلم الجامع الرخامي . موضع الإصابة هي كتفه ينز ألماً . وضع ساعده
تحت رأسه وغاب شيئاً فشيئاً في بحر البرد اللاسع ووجع الإصابة ونخر
لعظام من الانتشاء في البرد . مدد جسده كله على الفراش الأبيض الوثير
وسحب الملادة البيضاء على جسده . التدفئة في الغرفة تداعب النوم
وتغايه . مرت اتممرضة أمامه وانعنت على وجهه بابتسامتها العنوبة
والكآب الأبيض على رأسها . سحبت القطاء على فخرالدين وربت على
رأسه وأغلقت الضوء الخافت والباب خلفها . دوى صوت المؤذن فجأة فشق
الصمت وفضاء الغرفة والملادة والعلم وجسد فخرالدين المتعب من
البرد . قام للمسجد ففمه دفء الجامع حين دخل وأغراء بالتصدقوا على
هذا السجاد الأخضر الكثيف . اتجه للمراحيض وشمر ساعديه ليتوضأ .
- تقبل الله .

- تقبل الله منا ومنك .

انصحب فخرالدين للوراء وانكمش بجوار أحد الأعمدة . الإصابة هي
كتفه خفيفة . طلبة وش ليس أكثر . لكنها مؤلمة . خرج المصلون ثواراً ولم
يبق سواه وسقف الجامع العظيم الزخارف والقباب والاحتواء .
هيا يا بني .

رَمَق الرجل النواقف قرب الباب .

- سأجس قليلا هنا يا عم .
- الجامع سيفلق يا بني . هيا .
- اقترب فجر الدين من الرجل . ضهل الجسم ، في الخمسينيات من عمره . يرتدي بدلة زرقاء كعمال السكك الحديدية . وجهه نحس يبين فيه الصدق .
- سأجل هنا للصباح يا حاج فليس لي مكان آخر أبيت فيه .
- ممنوع يا بني . الجامع سيفلق .

* * *

شارع القصر ، يعني حاو عى عروشه دهيت السيرات والأوتوبسات والسخان ومطاعم المول . مر فجر الدين أمام دار الحكمة . جلس على سلالمها قليلا . يحشى لمودة للمدينة الجامعية الآن . لا بد أن رجال الأمن ينتظرونه هناك . مر أمام مبنى الحزب الوطني ودار الشعب وروز اليوسف ومحطة بنزين لتعاون . مر أمام المسرح لحديث والبنوك الأحبية . كل الأبواب والمواقد مغلقة والأنور مطفأة . عرج على ميدان سيمون بوليفار وشق الطريق عائداً من جاردن سيتي . المنازل العتيقة مألوفة بالآباء والأمهات وغرف النوم الدفئة . أضواء خافتة ومناظرة هي أدور متباعدة تؤكد حقيقة وجود هذه المنازل واحتوائها على حيوات محتواة ومدفئة . بدات صوة النهار توجع العين وتزيد الصداح تمكناً من الرأس والأكم نحرا في الكتف . لحم الجسم يتفتت إلى قطع صغيرة لا نهائية تشتت إلى الصم والاستراحة . لا ، لا أحد .

* * *

دفع فخر الدين لسأب الحديدى لأخضر ودحر سيارت الإسعاف القديمة تقب مطفاة الأنوار هي ققاء مستشعى العظيمة . تقدم إلى شاك لاستقبال . لم يكن أحد هناك . ننظر قليلا ثم بدأ يندى . ظهر من خلف الحاجر وجه مستيقظ من النوم لتوه . نظر فخر الدين إليه . كان وجهه نحىلا يبين فيه الصدغان ، صئبل الجسم . هي الخمسينات من عمره يرتدى بدنة ورقاء كعمال السكك الحديدية . نظر إلى كتفه ثم إليه وقال بارتباب

- أي خدمة؟

تقدمت سيارة الشرطة ، نصف نقل ، في شارع الزيات حتى نهايته ثم استدبرت يمينها في شارع التحرير ومضت في هدأة الصبح في اتجاه ميدان الدقي . قبيل الميدان انحرفت السيارة يمينها ومرفت من شارع السبكي للشارع المجاور . اجتازت حاجرا وتوقفت . نزل منها فخر الدين يصعبه رجلان . صعدا السلم الرخامي لمبنى مباحث أمن الدولة ودخلوا من الباب . أعشى عتبه الضوء الأبيض الباهر الذي يملأ الصالة . توقف الرجلان وقال أحدهما :

- لحظة من فضلك .

غاب الرجل وتركه واقفا بالصالة وحده . عاد بعد دقائق

- تقضى استرح .

جلس فخر الدين على أحد المقاعد الحديدية السوداء . المقعد شديد البرودة . عاص به مجذث صوتا من خروج الهواء منه . الصالة بيضاء لجدران لا صوت . مرت ربع ساعة ثم عاد الرجل وقاده إلى ممر هدى الإضاءة قليلا . سجادة حمراء رسمية تمتد على الممر وتمتص أصوات

مقفل حجر الدين
الخطوط . فتح لرجل بابا هي بهدية العمر وضغط على زر النور وأشار
لفخر الدين بالدخول . دخل . جذب الرخس الباب فأغلقه وتلك المفتاح
تكتبن في القفل .

الغرفة خالية ، كرسي خشب هي أحد الأركان . نافذة مفتحة . لوحة زيتية
وساعة معلقان على الحائط . الحائط بيضاء . الأرض مغطاة بموكيت
أخضر . مصباح نيون أبيض قوي هي السقف بزن طوال الوقت . مقعدان
جلديان متباعدين محور أحد الجدران . لا أحد هي الغرفة . جلس فخر الدين
على أحد المقاعد .

نظر فخر الدين هي الساعة . لثامنة . الساعة تحدث تكات مسموعة .
عقرب الثواني يمر ثانية ثانية . ترصد فخر الدين بعقرب الدقائق حتى رأى
يتحرك دقيقة . دقيقتين . ثلاث دقائق . كتمه يؤلمه
نظر فخر الدين هي الساعة . العاشرة . كتمه يؤلمه .

انفتح الباب هي الثانية عشرة . أطل رجل بدين مربع الوجه دوسطارة . قال
- فخر الدين عيسى هاشم ؟

- نعم .

- استرح قليلا .

وأغلق الباب قبل أن يسمع ردا .

هي الواحدة ظهرا . كان الألم هي كتفه عبقا ويمنعه من التركيز .
جذب لمقعد الجلدي الآخر بجوار مقعده وتمدد فوقهما . الجو بارد . انفتح
الباب ودخل محمد الشيخ وشوقي وسهير ومنيب وأحمد ومنى حمدي ولبنى
المرجاسي وعبيد وجمال وفطيمة و المخرج المشهور أحمد مراد و ثقلان
براهيم عوض وطارق بسيارته البيضاء وأستاذ القانون الدستوري ممسكا

بيانات الندي . ومراد يمشي الصلاة بحثاً عن لبنى ، يحيى إبراهيم
يصبح نظارته ، والسيد أبو الخير يتسلم وبعد التصمد يمسك بتأبوت ممثلي
بزجاجات بيضاء وهدوا جميعاً في الشرب . خلعت سهير ملابسها ووقفت
ترقص بساقيها السمر الفحيلتين بينما أخذت منى وابلى لتبادلان قبلات
محمومة بجوار المقعد الندي . محمد الشيخ قفز إلى العائظ و التصق
باللوحة الزيتية وأخذ يحطب على منبر جامع السلطان حسن . شوقي
يجذب فطيمة من ذراعها وهي تمد يدها لتطبق على صدر فخر الدين .
صوت صلاح الدين يردد في التميزيون ، أن لفارمن عيسى أن ينصرف
أن لفارمن عيسى أن ينصرف ونويزا ندي عيسى . يحيى يحمل حقيبته
الجلدية ويخرج مودعا إلى قويسنا . السيد أبو الخير يتسلم لمخرج أحمد
مراد وهو ينسحب منحنيًا ، نحو يحتق بأنماس فطيمة الراضة على صدر
فخر الدين وشوقي يجديها بلا عائدة . طارق يقود سيارته البيضاء في أرض
طابور المدرسة ويكسر الإشارات . صوت محمد الشيخ يعلو من فوق المسر
مناديا فخر الدين والسيد أبو الخير ينحني مبتهما . رأس جمال الصغيرة
تهتز بانفعال بين كتفيه الصفتين وهو يرقب سهير وهي ترقص بين أحمد
ومنيب وشوقي . تصاعدت حركات عبدة المجنونة وهو يرقص على أنغام لا
يسمعا سواه . ناصر يحمل حقيبته الجلدية ويخرج مودعا إلى أرض المطار
لجديد . يتسلم للصورة الفوتوغرافية في شهادة الجي سي . به . ابتسامة
فطيمة تتسع وهي تقرب وجهها من وجه فخر الدين وأنفاسها تخنقه . صوت
الشيخ يعلو وهو ينادي فخر دين ، يا فخر الدين . ابتسامة فطيمة تتسع
وتتسع . ابتسامة رسمية ومهدبة . هز العقيد سمير كتف فخر الدين بقوة
ففتح عينيه وجه العقيد يتسلم ابتسامته الرسمية المهدبة

- صبح التوم ، يبدو أنك مرهق .

اعتدل فخر الدين في جلسته ونظر حوله . اعتدل العقيد سمير في وقفته ووصل الابتسام . نظر فخر الدين إلى الساعة العميقة في أعلى الغرفة وإلى ممرش الأبيض من تحته . كانت رأسه ما زالت تدور ورائحة الفينيك والبنج تملأ أنفه . نظر إلى الساعة ثانية . الساعة - آلام في ظهره . وفي كتفه شاش أبيض .

* * *

أعاد العقيد سمير ظهره للوراء . استند لكرسيه الجلدي الضخم . على مكتبه المسيح كوب من الشاي يتصاعد منه البخار . صورة رئيس الجمهورية تتوسط الجدار خلفه ولوحة زيتية على اليمين . هرك العقيد سمير عينيه مرة أخرى وثبت نظارته وتوقف عن الابتسام . أخرج من الدرج ملفاً وضعه أمامه على المكتب الخالي . فتح الملف ونظر فيه . رشف رشفة من كوب شايه وأعاد الكوب إلى المكتب . نظر إلى فخر الدين من أعلى النظارة .

- فخر الدين عيسى هاشم . من مواليد 1967م . طالب بكلية الحقوق جامعة القاهرة . السنة الثانية . تقدير عام جيد بالسنة الأولى . تقطن بالمدينة الجامعية

نظر إليه ثانية من فوق النظارة .

- مضبوط ؟

- مضبوط .

- متى انضمت للنادي ؟

..

انضم لنادي الحركة الطلابية في يناير الماضي وهو طالب بالدرجة الأولى ويمارس نشاطه بشكل منتظم في النادي منذ ذلك التاريخ وانتداء من أكتوبر الماضي أصبح من قيادات اللجنة الوطنية للدفاع عن حقوق الطلبة والمسئولة عن التنسيق بين التيارات والجمعيات المختلفة داخل الجامعة كلها . من مدبري المظاهرات هذا العام (مرفق الصور) وكاتب عدد من منشورات اللجنة وبياناتها . مشترك بفريق المسرح منذ السنة الأولى . من الذي أدخلك النادي ؟

... -

عميم العقيد ثم استورد .

- تم تجنيده عن طريق كل من شوقي كامل الطالب بالسنة الثانية بكلية الحقوق والذي كان يتردد عليه بشكل مستمر في غرفته بالمدينة الجامعية خلال العام الماضي ويحيى إبراهيم الطالب بكلية الآداب والذي يشاركه غرفته هذا العام.

صمت العقيد لحظة ثم نظر إلى فخر الدين

- اسمع يا فخر . في الحقيقة أنا ليس لدي وقت لأصعبه معك في استجواب لا قيمة له . قلدي كل المعصومات . أنتي أحتاجها هنا.

- إذن لماذا قبضتم علي ؟

زحق العقيد بفترة

- أنت لا تسأل . أنت هنا لتجيب فقط . فاهم ؟

تناول كوب الشاي ورشم منه رشمة . استورد بهدوء

- قل لي إذن . ما الذي دفعك بالانضمام للنادي وتسيير هذه المظاهرات ؟

كان سيد أبو الخير تيمسا وشبه منهدر . ربت فخر الدين على كنفه وهما
يتجهن ناحية العيطان خلف أبي القدة . الشمس تتهيا للغروب خلف مساكن
مدروسي الجامعة لعاشدين من الخارج وتصيب السماء بعمرة قانية . سارا
قليلاً حتى بلغا الحقول وجلسا على جدع شجرة ميتة . بكى سيد كثيراً
وفخر الدين صامت يرقب الأفق . عندما تعالت سيد نفسه قليلاً بدأ يحكي
عما حدث له في مباحث أمن الدولة منذ ذهب هناك بناء على تعليمات
المقدم ماهر . وكيف ظنوا يضبطون عليه نفسه وجسديا .

- لا لم يذبوني مثلما يرى في الأفلام . ولكن لهم طرق أخرى . مزيج
من التخويف والتشكيك والتعقير . مع إنهاء جسدي ومعنوي يجعلك غير
قادر على المقاومة . شيء فطيع .

انهار سيد أبو الخير مرة أخرى في البكاء . وطوال المساء لم يستطيع
فخر الدين أن يتحدث معه . كان غائبا تماما . فجأة يعود لمحدث ويتص
مقاطع مما حدث له ثم يجهد بالبكاء لمدة طويلة وينيب عنه كأنه لا يشعر
بوجوده . وفي الصباح لم يجده فخر الدين في غرفته ولا في الكلية ولم يره
بعدها لمدة أسبوع عجم فيها أنه قد سافر للبراس .

* * *

- اسمع يا بني ، الساعة الآن الثانية عشرة . وأنا بصراحة تعبت منك .

- وهذا يهدي يا سيادة العقيد ؟

ماذا بيدك؟ يا بني صار لي خمس ساعات أنتكم معك وأسألك وأنت
تلقني عليّ حطبًا . حصرتك فأكبر نفسك واقف في المظهرة؟ المظهرة
انتهت يا حبيبي وأنت الآن مقبوض عليك وأنا أحقق معك . جاؤني إجابات

عاقلة . أنا لا أريد سماع خطب عن الحرية و المستور والتعبير عن الرأي . يا بني هناك أمسايب أخرى بإشارة واحدة من يدي أستعملها معك ولن يكلفني الموضوع شيئاً .

- أنا أجيب على أسئلتك بصراحة .

- بصراحة؟ حضرتك فإكر نفسك سعد زغلول؟ يا بني أهق وكلمني بلغة أفهمها .

مسح فخر الدين وجهه بيده وأطرق قليلا . ثم نظر للعقيد سمير وقال .
- اسمعني يا سيادة العقيد . أنت تتحدث باسم السلطة وبقوتها . ولذا أنت تعتقد أنك تحتكر الصواب لألك أقوى . وهذه هي المشكلة الرئيسية التي تحول دون حدوث تفاهم بيننا أنا أعلم جيدا أنك أنت لأقوى لأن لألك تسيطر على وسائل القوة التي تصعب السلطة تحت تصرفك . وأنت تستطيع فعلا بإشارة منك أن تعرضني لأمسايب أسوأ ما توصف بها أنها غير إنسانية . أنا أعلم كل ذلك . ولكن ذلك كله لا يجعلك على صواب وأنا أعلم جيدا . أنك محظى لأني أراجع عن حقوقي البسيطة جدا والتي لا يستطيع أحد أن ينكرها أنا لا أفعل شيئاً يهدد أمن الدولة . أنا معترف أسي عضو بالنادي الذي ذكرته . وبأني عضو باللجنة المسؤولة عن تنظيم المظاهرات . ولكني أقول في نفس الوقت إن ذلك ليس فيه ما يخش بالقانون بل هو من ضمن حقوقي الأصلية التي يكفلها الدستور لي ولكل مواطن . ومستند لأن أقول ذلك هي أي محكمة .

هزك العقيد سمير ذقته بيده وهو ينظر نحو الباب خرجت الكلمات بهبطه من بين شفتيه .

- هل تعرف ما هي المشكلة؟ المشكلة أنك لا تعيش في الدنيا أساساً أنت شخص وهمي . لقد قابلت في مهنتي هذه أصنافاً شتى من البشر .

منهم المصلون لمصحوك صبيهم بكلماتين . ومنهم الأكدياء الذين صحكوا على المنفلين . وأنواع كثيرة من هذا على ذلك . أنت شيء مختلف تماما أنت وهمي . مائة هي المائة .

ضبط على جرس بجوار الكرسي يظهر زجر على الباب يرتدي بدلة ورقاء كعمال السكك الحديدية . قال له العقيد سمير دون أن ينظر إليه .
- خذ من هنا . صعه في الحجز .

* * *

تغير سيد أبو الخير . تغير كثيرا . لم يرد فخر الدين أن يرجع ذلك إلى رحلته إياها إلى مباحث أمن الدولة وإنما قال . ربما هو الوقت . ربما التخرج . ربما أدرك عمق الأزمة وتمقيدها ومن ثم استعالة تغيير العالم كله في يومين . ولكن سيد أبو الخير كان قد تغير بأعمق من ذلك . تغير من داخله . أصبح دائم لثياب وبغايا ودائم التمعج بموعد لديه أو باناس سيقابلهم أو سيتصل بهم أو يسفر للبرلس أو بأي شيء في الدنيا ليبرز احتفائه . لم يتوقف عن حضور اجتماعات النادي أو اللجنة ولكنه كان شاردا طوال الوقت . كأن شيئا ما هي روحه انطما . صارت عيناه أقل ثباتا . وصار يحدق في الأرض وهو يكلم الناس ولا ينظر أبدا هي عيونهم . قل كلامه وصارت قصائده أكثر العازا وضاعت منها رثعة البحر وضوية الترمس والصدف . تعسفت أحواله المالية وإن كان قد أصبح يعتمد بالحديث عن سيرة أهله أو أحوالهم . نعم . تغير فعلا سيد أبو الخير .

* * *

هي لحجر ، وجد فخر الدين يحيى جالساً على الدكة الخشب ماضٍ سافيه
أمامه وعافد يديه على حجره . نظارته السمكة ملقاة بحواره على الأرض
مهشمة ، وشاربه طال وتدلّت شعيراته على شفته . كان ينظر للسقف أو
للجدار . وعندما وضع فخر الدين يده على كتفه انهمص ونظر إليه . دقق
لنظر فيه فلما تعرف عليه التصق به وركن رأسه إلى صدره في صمت .

- تخيل! لم أعرفك إلا من صوتك.

- هل كسروا لك النظارة؟

تهد يحيى :

- النظارة؟ وهل لم يكسروا سوى نظاراتنا يا عزيزي؟

صمت فخر الدين . كانت يده ما رالت على كتف يحيى وشعر بالدهاء
لأول مرة منذ أيام طويلة يتسلل إليه .

- كيف حالك يا حسام؟ وكيف حال العرب؟

- العرب في أسوأ حال يا مولاي ، لا أمل لهم غيرك . العرب ينتظرون
أن تكفي أخيراً نداءهم .

- ماذا كان هذا؟

سأل فخر الدين وهو يمسح في التذكر .

- معقول سيبت؟ هذا صلاح الدين .

- نعم إنه هو هو ، اسمعوا ، هذه طبوله ، انظروا هذه سائره .

ابتسم يحيى إبراهيم لأول مرة منذ عدة ليالي . رفع رأسه وبصر إلى
فخر الدين وابتسم ثم ألقى بها ثانية هي استسلام :

أنت أزوع شيء هي الدنيا يا فخر الدين .

صحك فخر الدين ونظر إلى يحيى . كان تائها بدون نظارته ولم يكن

يرى تقريباً.

* * *

استقبله العقيد سمير بابشامة واسعة. كان هجر الدين حائر القوى تماماً

تفصل . استرح . أنا اسف جدا . أتمنأك معنا . تفصل

جاس هجر الدين على العقيد .

اسمعي جيداً يا هجر . لقد فحطنا مملك جيداً . وفحصنا أقواتك .

وتناقشنا فيها ، وخلصنا إلى شيء واحد ، إنك عنصر ممتاز . طالب مجد

وممتاز . محب لبلدك وتخاف عليها . وأنا شخصياً سعيد جداً بهذه النتيجة .

تشرب شاي ؟

- شكرًا .

ضغط العقيد على الجرس دون انتظار الرد . ظهر الرجل على الباب :

- واحد شاي سرعة . اسمعي يا هجر وفتح أذناك جيداً سأدعك الآن

تخرج وتعود للمدينة ، بعد ما تشرب الشاي طبعاً . لكن أريدك أن تتأكد من

شيء واحد ' نحن هنا لسنا أعداءك أبداً ، لسنا أعداء للطبقة ولا لأي أحد

آخر . نحن كلنا شركاء وهذه بلدنا كلنا . كلنا نتعاون معاً ونعمل من أجل

مصنعة بلدنا لكن بطرق مختلفة ، كل في موقعه .

انفتح الباب ودخل الرجل حاملاً كوب الشاي . وضعه أمام هجر ليدن .

البخار يتصاعد منه دافئاً . نظر هجر الدين للكوب . لم يكن قد وضع شيئاً

هي معدته منذ يومين . تقلصت معدته أمام الشاي الساحن أكمل العقيد :

- نحن مثلاً ، عملنا هو الحفاظ على الأمن . على النظام تمام . من

أحل أن يناح للجميع فرصة التعبير عن رأيه في نظام ودون تهديد لسلامة

لدولة . أرايت الجماعات الإسلامية وما فعلوا يوم المظاهرة؟ بالحتاريرا

صربوكم بالحتارير لستولوا على المعطية . هل يرضيك هذا ؟

لا، ولكن ...

- وأصدقائك الآخرين! الشيوعيين والناصرين وخلافه . أياها استخدموا العنف لمنع الآخرين من الدخول لبرج الساعة . كل هذا خطأ وعللنا . نحن لسنا ضد مصلحة البلد طبعاً لا ، لكن المشكلة بالنسبة لنا ، والتي عادة ما توقعنا في أخطاء مثل خطأ القبض عليك ، والتي تسبب في تشويه صورة الجهاز لدى الناس ، المشكلة أننا لمست لدينا المعلومات الدقيقة التي يمكننا من التمييز بين الوطنيين وبين المفرضين 100% . ومن ثم نضطر أحياناً إلى أخذ الطبيب مع الرديء للاحتياط . اشرب الشاي اشرب .

...

من ثم فمن مصلحة الجميع ، مصلحة البلد ، ومصلحة الطلبة ، ولجامعة ، ومصلحتنا ، أن تكون معلوماتنا دقيقة . نحن طبعاً لنا عيون وآذان في كل مكان ، بما هي ذلك ، الجامعة والمدينة ، لكن مستوى دقتهم يحتاج دائماً إلى تصحيح ، وهذه مهمة تحتاج إلى شباب وطني واع لحقيقة مصلحة بلادهم بعيد عن لشعارات الطنائة والفوضائية التي عانيت أنت منها ، شباب متحمس ولكنه بعيد النظر وعاجل . يقوم بتدقيق معلوماتنا بإخلاص وبفهم لمساعدتنا على معرفة الطبيب من الرديء . ولن أطلب منك شيئاً محدداً ؛ مجرد اتصال تليفوني مرة كل فترة . رقم تليفوني في هذا الكارت . خذ .

مد العقيد يده ووضع الكارت بجوار كوب الشاي ؛

- اشرب شايك .

الجو بارد بالخارج . فخر الدين مهندس ثعبت البطانية على مرقته

مقتل جحر الدين .
 الصغيرة الممدة على الأرض . صوت محمد منير يأتي دافعا من التسجيل
 الصغير . يحاول أن ينام ساعات فلائذ قبل البعد . دق قلبه بعنف عندما
 فكر في البعد . هل سننجح؟ دق الباب بخفة فدق قلب فخر الدين أكثر . فتبع
 فخر الدين الباب . جمال . يا ساترا دلف جمال بسرعة وأغلق الباب وراءه .
 - سمع يا فخر الدين . لا بد من أن أرجع حالا . عبيد وأحمد فُهِضَ
 عنيهما أمس في بنها . كفى ذهب عساكر للقبض على الشيخ وعني ولكننا لم
 نكن في بنها . يبدو أن البوليس عرف بموضوع مظاهرة بكر .
 وحجم فخر الدين . نعمتم :

- وكيف سيعرف البوليس؟ هذا الموضوع لا يمرعه سوانا نحن العشرة؟



جرح لعقيد تظارته وهرك عينيه . هر رأسه يأبى وهو ينظر للساعة .
 اسمع يا بني أنت طلعت ديني وبصراحة ليس لدي وقت أكثر من
 ذلك لأصيحه معك . أنت هاكر بمسك بطل وبني . لكن الحقيقة أنك لا شيء
 إطلاقا . أنت وهمي وغير موجود . ولا قيمة لك . وإن كنت تريد الخروج
 لأن والذهب لمعدن الدقي لتصرخ بأعلى صوتك وتشتتم رئيس لجمهورية
 فلا مانع لدي . تفصل وأب أعدك أنه لن يتعرض لك أحد من الشرطة . هل
 رأيت الرجل المحنون الذي يسير في شارع القصر العيني وهو يربط أعلام
 أمريكا في قدميه وماشي بدوس عليهم ويسب في أمريكا وفي الحكومة؟ من
 تعتقد أنني أهتم به؟ أنت مثله بالضبط بل أسوأ . على الأقل هو يقول رأيه
 بقوة . أما أنت فتحاول النفع في ميتهن . تفصل . انفع مثلهما تريد . لكن بعيد
 عن دماغى . أنت لا تصنع لأي شيء هي الدنيا ولا حتى محير لكن أحب

أنا أقول لك شيئاً واحداً قبل ما تخرج . المعلومات تصل إليّ . ولو حببت
أحبب لك صورتك وأنت في حمام المدينة الجامعية ممكن أحبيها . أنا لا
شيء يقف أمامي . أنت الحاسر . وأنت الجاني على نفسك لو كنت بتهم
كنت تعاوبت معي . ولعلمك نصف الجامعة تتعاون معنا . لكن أنت حمار .
وأنا لا أحب الحمير .

...

- لكن قبل ما تمشي أحب أهزجك على شيء واحد . تعال . قرب . هذه
صورك يا بطل الأبطال هي لمظاهرة . مضبوطاً وهذه البلاغات؟ أتراها؟
بلاغات من شهر . من ستة شهور . بلاغات من لسنة لقائنة .
بخط من هذه؟ عرفت؟ هذا . خط حبيبك . شاعر الوطن . الممزي . سيد
بك أبو الخير .

- 9 -

- كلام فير صحيح طبعا .
ابتسم سيد أبو الخير وهو يهز كتفه هازئاً . دفع نظارته بين عينيه
وعاد بظهره إلى نوزء في كرسيه لنفسيح . خب المكتب . صورة رئيس
الجمهورية تتوسط الجدار وعلى الجانب لوحة زيتية .
- من الذي قال لك هذا . الكلام الفارغ؟ فخر الدين مات؟ طبعا كلام
فارغ . فخر الدين رميلي وصديقي وأعرفه جيداً . لقد تخرج في الكلية وعمل
قليلاً بالمحاماة ثم سافر للجارج . هاجر أعتقد . است متأكد . في الواقع إن
كان قد عاد فقد انقطعت صلاتي به منذ سافر .

ولكن لدي شهادات تشير لموته هي السجن أو تعبير أدق في مستشفى

الشرطة أثناء اعتقاله بعد مظاهرات الجامعة .

- غير صحيح الواقع أن فجر الدين تعب صحياً ونفسياً أيضاً بعد مظاهرات الجامعة هذه وظل بعدها فترة في حالة اكتئاب ولا يكاد يخرج من غرفته ولا يكلم أحداً ولا يرد على أحد . حتى صيُّ أ . وكان مجلس الكلية قد اجتمع وقرر فضله . ولكن بعد وساطات من جانب الزملاء استطاعوا إقناعه . وكان البطل الرئيسي في هذه الوساطات هو داج رئيس اتحاد الطلبة والذي أقتنع فجر الدين بأن يعلم الدوره . وفعلًا ذهب فجر الدين وقابل الدكتور سعيد والدكتور يونس وتفق منهما بمبنى أو بأحر . وعاد للدراسة . لكنه كان قد تفجر كثير . صار حاد الطباع ، قاسياً ، ولم يكن يطيق أحداً أو يكلم أحداً . وكان لا يذهب للكلية إلا نادراً ، لبعض المحاضرات أو للامتحانات . ثم أنهى لدراسة وعمل بالمحاماة قليلاً وبعدها سافر . من الذي قال إنه مات ؟

* * *

- كنت جالساً في غرفة الحجز واضعاً رأسي بين كفتي . وكان الدمع يسيل من عيني مدراراً لا أستطيع إيقافه . وكنت نذني ظلاماً أو شبه ظلام لا أدري . فلم أكن أرى جيداً ، منذ كسرت نظارتي . كانت أطياف أبي وحالي وأمي وأخي الصغير تدخل عني الغرفة وتجالسني . كان أبي يقرعني لأنني لم أسمع كلامه ولم أصدق أن هذه الرفقة ستمود علي بالصبر . وكانت أمي تحصر لي طعاماً . وأخي كان يسألني متى أحذه للقاهرة . كنت أنظر إليهم من حولي ولا أراهم ولا أرى غيرهم . فتُح الباب هابط صوء لا أدري كنهه ولا مصدره . ودخل عن شيخ شيعي مترنح ثم سهرت بحواري كتلة بشرية

ومستلني فاستعصت . سمعت نفسا ثقيلًا كأنه يخرج من بين رجلي وجاء صوت أعرفه يناديني . كان هو فخر الدين عيسى . التصلقت به . كان مريضاً . كأن به حمى أو شيئاً كهذا . ويقتصر جسمه كله . وكان غزير العرق مبتلاً بكامله . حدثته فلم يرد عليّ . وكانت حشيرة أنفاسه تصلد أذني . ناديت الحرس فلم أسمع رداً . سألت فخر الدين فلم يرد عليّ . فمعت إلى ما كان مصدر الضوء وتحسسته . هو الباب . خبطت عليه بيدي وقدمي ورأسي وصرخت . لا أحد يرد عليّ . عدت إلى فخر الدين . وطفقت هكذا أتردد بين الباب وبين فخر الدين حتى نضج . كان فخر الدين قد بردت حرارته . وسكنت حركته . وذهبت الحمى عنه . وذهب عني راح راح الاستثنائي راح أروع من هي حياتي وأهم ما فيها . راح وزحل عني . ونزكني أواجه هذا الحزن اليفيظ وحدي .

«من أقوال يحيى إبراهيم»

حفر الباطن

لا تذكر الموتى فقد ماتوا فرادى
أو ... عواصم

سأراك في قلبي غدا

سأراك في قلبي

وأجهش يا بن أُمي باللغة

لغة تفتش عن بنتها ،

عن أراضيتها وراوينا

تموت ، ككل من فيها ،

وترمى في المعاجم،

محمود درويش

للمعلم فخر الدين نفسه داخل لزنط العبري الأخضر ، وانكمش في برد الليل على محطة الأوتوبيس واقفاً وحده . ثلث فوانيس السيارات القادمة هي مبنية وتمرق مخلفة رذاذ ماء على ملابس عسكرية . لأضواء ليلية للسيارات لذهشة تصبغ ظلمة الطريق بألوان صفراء وحمراء . تجسست بطارات فخر الدين الأوتوبيس لقادم هو ، هو 777 ، لمطيم قدم مدقعه المحاطة بأشرطة البيدة لثقيلة تحت الكرسي . أخرج محمضته البنية وشد الكرسيه و لتصريح وأنماها ، العودة سمعت 2200 ، باقي خمس دقائق كان 777 يهرق في الظلام مسرعاً مقابر الإمام شافعي مقابر الدراسة . كل شيء يمر في ظلام السريع للأوتوبيس سقطت حدائه العسكري نزل وسط صمت القبور في مدفن الأسحية . يلتوي الطريق لأسفلتي الصيق أسس كوبري لأباحية ويصعد وفخر الدين بحية البوابة لحصينة . يقى نسلام وصحا على جندي الشرطة العسكرية المتأفف من البرد ويمضي داخل . يستوقفه لنداء لتأخر للعندي :

- لكرنيه و لتصريح .

- تفضل .

جندي الشرطة ينظر في الأوراق بلا اهتمام ثم يمد يده ويخضع طاقية

فخر الدين الخضراء . يجذب شعره بيده :

- شمرلك طويل .

يتأمله الحندي لحظات ثم يعطيه الكارييه و لتصريح ويلقي بالطاقة إلى الأرض . ينحني فجر الدين ويلتقطها ، يصعد على رأسه ويمضي مساعدا المنحدر لأسفلتي القوي . ماء المطر لمتجمع يسقط هي خطوط متعرجة على الأسمنت المبطل مُشَكِّلا أنهارا وترى وبحيرات صغيرة وبازدة . يمر الماء أسفل حذاء فجر الدين دون توقف . يواصل فجر الدين الصعود . قلبه يدق بسرعة مع زدياد حدة نعدار الطريق . توح له قبتا الشيخ المدهون بالوعدة . يصعد السلالم الحجرية المتبقية ، إلى مكتب الرسم .

* * *

اتسم جاد انشامة صفراء مرادوجه الكالج بيضاء . وضع يديه في بنطاله الأخضر ودفع قدميه في تشبب البلاستيك . الأصفر الميري في يده ليسرى عتبة سمن قديمة ملأى بالماء وعلى كتفه فوطه سمراء ملتصقة حول رقبته أهلا وسهلا . سري يا أستاذ هجرا

- الساعة لا تزال العاشرة

- العاشرة ؟ بأي توقيت يا عسكري ؟ توقيت فجر الدين ؟

انتمت إلى يونس وسأله بحددة :

- كم الساعة الآن يا عسكري ؟

غمغم يونس :

- ليس معي ساعة .

دلف فجر الدين إلى الغرفة الداخلية للمكتب .

جلس على حافة بفرش الحديدي . قوائمه تستند إلى حوائب من الطوب الأحمر لتعطف توزيه . دولا ب من الصاج مائل قليلا للأمام امتحت إحدى صلعته فأحدثت أزيزاً قطع الصوت بالمكتب . قطرت

الماء تتساقط من السقف لمعدي على الحائط أدبي يكسوه الحديد .
 سحان الشاي يثير فقاعات الماء في الكوب الزجاجي السميك المصنوع
 على سطح دولاب خشبي صغير . مفتاح النور مثبت بشريط لاصق أزرق .
 طنين المصباح لنور بارد على صفيح صر صفيح تليل الآتي من جبل
 النافذة الزجاجية انعكاسة ينجلي كسورها لوح كرتون عليه بقايا تجارب
 خط ولد كزى لعائلة عبد اسمعيل بدر . كتابات الخطاطين تنجلي الجدار
 الفاصل بين غرفتي المكتب . « أين أنت يا علي؟ مد هضرتين يده إلى جالون
 الماء وأمانه . لا ماء بالجلالون . جاء صوت جاد من اعمدة الخارجية :

- الجالونيات هارغة شيء طبيعي طالما سيدتك قصيت نسيحة الخارج

عاد محمدين لحافة السرير . ويد أي حلج حداته

حد الجالونيات وأملأها الماء موحود في حنفية البوابة

أكمل محمدين حلج حداته وأسلم جسمه إلى الفراش لأول مرة يتمدد
 على فرش مند أربعين يوماً . أرحى عضلات جسمه المشدودة وفرد كتفيه
 أسفل الوسادة أربعين يوماً من النوم على الأرض الحجرية ويومين بلا نوم
 إطلاقاً . مدد جسمه وأغمض عينيه . أطل جاد بوجهه الكريه .

- ألا تسمعتي يا عسكري ؟ قلب انتباه

* * *

مقتل فجر الدين

جلس جاد على حافة السلم الحجرية . على بعد أربعة أمتار وقف
هجر الدين يده مفروزان بجوار ساقيه ورأسه إلى الأمام . مرتديا كفة
ملابسه العسكرية . نفخ جاد دخان سيجارته بينما تجمع الجنود في حلقت
صغيرة هي أرض الطابور . خلف هجر الدين بدت أضواء قلعة صلاح الدين .
- يا عسكري اسمع الكلام! قلت لك ارفع المظلة على ظهرك وازحف .
- آمين .

- أفندم! أسف؟ ما معنى آسف هذه؟ أنت تافكر نفسك في شركة؟ أنت
هي الجيش يا عسكري .

- إذن دورني مكتب للصابط لتوبيخي .

الصابط التوبيخي مرة واحدة؟ تريد إزعاج الصابط التوبيخي في
منتصف الليل؟ ارحب يا عسكري .

وضع هجر الدين يديه في جيبه وبدأ يتحرك في اتجاه المكتب

- قف يا عسكري . قف انتباه معك

واصر هجر الدين السير في اتجاه المكتب . دحر من الباب الصاج . فخر
جاد وراءه . دلف هجر الدين للفرقة الداخلية وتمدد على حافة السرير . سمع
صوت جاد يدخل للمكتب وهو يسب بصوت عال . مدد جسده على الفراش
الوحيد . أربعين يوما لم أنم على فراش . فتح عينيه فوجد وجه جاد الكالح
معمرا من الغضب . جذب هجر الدين من سترته وأوقفه على لأرض . ركله
بقدمه ورمعه بيده ورفع يده الأخرى وهوى بها على خد هجر الدين فانبثق
الدم من فمه .

لا أحد يعرف ما الذي حدث بعد ذلك بالضبط . قال لي عبد الحميد
بن هجر الدين بصق الدم في وجه العريف جاد ثم صرعه صرعا مبرحا ولم

يقفده من يده سوى تدخل يونس وحامد اللذين أمسكا بفخر الدين وحديده بعيدا عن المكتب . وقال لي يونس إن جاد وفخر الدين كانا يتبادلان الصراعات بقسوة وهو ما حراه على التدخل . أما تقرير الشرطة العسكرية فيذكر أن فخر الدين اعتدى على العريف جاد بالصرب وأحدث بوجهه جرحا قتلما كما حطم أثاث مكتب الرسم برمته .

* * *

يبلغ الملازم أول شرف حسن الغريلاوي بذرة بنية اللون مع الشاي .
- هذا قرص . والبيت الذي يدخله القرص لا يدخله المرص .
ضحك ضحكة زاعقة فظهرت التجاعيد في بشرته السمراء .
- هذا القرص أحضره حصيصا من بلدنا . بلد صغيرة بعد كوم امبو . وهو بذر بطرحه شعر معين عندنا . إذا استخدمه الإنسان لا يصاب بأي مرض . المهم . يعود إلى موضوعنا . فخر الدين هذا كان «عسكري» غير منضبط . لم أر في حياتي مثله . كان «عسكري موهوب» لكنه يضل بموهبته عن المكتب . لا يصح رأسه في الشغل . وسيادتك تعلم أن شغلنا حساس جدا . لكن ، ماذا أقول لك؟ لا يوجد انتماء . كل واحد لا يرى سوى مصلحة نفسه . وليحدث ما يحدث طالما كان بعيدا عن قتال .
وشف الضابط حسن رشمة من كوب الشاي الموضوع أمامه . ومن خلفه بدت صورة رئيس الجمهورية .

- لقد حاربت في اليمن . كنت أدخل بلا مؤاخدة هي ماسورة المحاري لأمر من ناحية لأخرى . وكان الرصاص لا ينقطع من فوقنا . لو دقت رأسك يا حلو لا تجد نفسك . أهذه عسكرية هدية هؤلاء المساكر هي نعمة لا يشعرون بها . أحازة كل 45 يوم ولا عاصيهم يا فتندم الإنسان لا

بعلاً عنه سوى التراب . مثلاً فخر الدين هذا كان يأتي إلى دمشق يا فهدم
لديّ متحان . يا فهدم لديّ مصالحة . أنا عارف كل هذه الأساليب . لكن
كنت أتركه ينزل البلد . ومع ذلك حدث ما حدث . لأنه عسكري ليس لديه
افتناء . ماذا أفضل ؟

مثلاً جاد هذا الذي حدثت المشكلة معه . جاد هذا يمثلني أنا شخصياً
في المكتب . يعني في غيابه جاد هذا كأنه أنا . ثم ما المشكلة هي أن
يضر به على وجهه ؟ أما هي الخدمة منذ ثلاثين سنة ولو عدت العرات التي
صُربت فيها على وجهي ما استطعت حصرها . يعتبره مثل أخوه . الجيش
يعلمك الذي لم يعلمه لك أبوك وأمك . الجيش مدرسة يا فهدم ولا بد كل
عسكري يتعلم .

* * *

مد فخر الدين ساقيه منهكاً . الليل يطبق على الجبل الشاهق في
مو جهته . الممارسة تبدو شديدة الظلمة . ينحدر الطريق حاداً من تحت
قدميه في منحني نحو باب خشبي صغير في آخر السور الشائك .

من خلفه تبدو حارات الماء التي تؤدي إلى استراحة الصباط . خربير
الماء المتساقط من الخزانات غير المحكمة الإغلاق . يتواصل خلف أذنيه .
تتساقط قطرات الماء هي جداول رفيعة تجري بسرعة على المنحدر الرملي .
صحور الجبل التي سقطت يوماً ما هنا تملأ المشهد أمام عينيه المنميتين .
مسح فخر الدين حبيته المتفصص بالآثام وبالخزن المعروف . كيف يسمح
لقلب ؟ قام وسار قليلاً باتجاه الباب الخشبي . حاجته ظلمة الجبل وروائح
الكريهة . سار باتجاه الخزانات صاعداً . بدت له في الأفق القلعة معسولة
بالماء وبالصوت المنهمر . استند لصخرة مربعة وجلس على حاجتها .

- أين أنت يا علي؟ أين حتميت كل هذه المدة؟
مد يده إلى حيث يتسرب الماء وملأ كفيه منه . رفع يديه إلى وجهه
وغسل الدم المتساقط من فمه

* * *

- كان عسكريه غير منضبط .
أسر إلي الضابط حسن في هدوء يقيني :
- هذا المكتب له نظام لو اختل نحرِب القاعدة كلها . هنا كل الجنود
أولادي . والله أن أراهم أكثر مما أرى أولادي . ومن ثم لا يوجد لدي خيار
وهاهنا كل على حسب عمله . عمالك جيد تأخذ مكافأة . عمالك أسود تروح
يا حلومع السدنة .

أما حكاية أننا كنا نجبره على خدمة الجنود عسكريه ملا مسي ماذا
تريد مسي أن أفعل؟ من بعد الطعام؟ عسكري .قديم أم الجديد؟ تجديد
طبعاً . ثم إن سيد القوم خادمهم . من ينام على الأرض؟ الجديد أم
قديم؟ الجديد طبعاً . ثم إن النوم على الأرض صعبة أيام .ليس لم يكن
نجد الأرض لننام عليها . كنا ننام واقفين أيامها كنت لا أزال جندياً . كنا
نعمل لخبز على الشمس . على الحجر الصوان .

نظر الضابط حسن إلي ثم التفت للعرصة الدخيلة :

- هات الشيشب يا عسكري . بعد إذنك يا فندم سأقوم للوضوء .
قام لصابط حسن ووضع قدميه في الشيشب الذي أحصره يوس .
تحرك باتجاه الباب الصاج . أمسك بملية النمن القديمة وملأها بالماء
من الجالون الأزرق الكبير الموضوع بجوار الباب . خط للخارج خطوة ثم
عاد ونظر إلي .

- آخر تقايمة . هضر الدين كان يريد لمكتب كله يشتغل كيف يا سيد كل المكتب سواسية ؟ انقدهم كالجديد ؟ والله شيء يصحك . لعسكري يا هدم له ثلاثة أشياء فقط : شره ومهماته وعلوسه . غير ذلك ينفذ الأمر .

* * *

عند باب المكتب كان جدد لا يزال واقفا . أمامه وقف يونس وحامد مرثدين كامل الزي العسكري .
- انتبهوا ارشد .

زحف الاثنان في الأرض الطينية . ثمم أحد الجنود الواقفين في آخر أرض الطابور شيء ما ومضى . مر حجر لدين من أرض الطابور كانت رأسا يونس وحامد يبدون من وسط الطين وقف حجر لدين أمامهم وتنادلوا النظرات .

* * *

- لا يا سيدي . هذه النقود جميعها للمكتب . أنا أيضا أدفع وهل أضع شيئا في جيبتي ؟ هذه نقود المكتب . معاش الشاي مثلا . الشاي الذي تشربه حصرتك . كل هذا بعلوس المكتب . لأكل . بدلا من التعيين الذي لا يؤكل بشري طعاما للمكتب كله . ثم إن هذا شيء اختياري وليس جباريا .

أنا أقول للعسكري ادفع يدفع باختياريه . هي الهمم يا هدم كلها مستعدين ندفع أي شيء من أجل كوب الشاي . كف نطل بالأربعين يوما بدون تعيين . ولو رفعت رأسك يا حلو لا تجد نفسك . هدم المساكن هي نعمة . عسكري لا يقدر هذه النعمة لا يستحق الإجازة . عسكري ليس لديه انتماء للمكتب ولا لأسرة المكتب لا يستحق الإجازة

مسح الضابطا حسن عرقه المتصبب على جبينه الأسمر بمنديل قماش

أبيض به خطان أورانج .

- هذا العسكري المعمر فخر الدين ، كان دائما يشنكي طيب قل لي
حسرتك من يأكل الأول . القديم أم الجديد؟ من يشرب الشاي القديم أم
الجديد؟ القديم طيبا . ثم إن هذه مسألة ذوقية . ونحن هنا أسرة واحدة .
أنا مثل أبيه . لو الأكل قليل هل سيأكل هو ويترك أباه ؟ طيبا لا . نفس الشيء
هنا عسكري أقدم منك قال لك تحضر الأكل تفقد . مثل أحبك . لكن
فخر الدين كان متكبرا . على العموم لقد نال جزاءه . ولعلمك يا فندم هذا
أول عسكري من المكتب يدخل السجن .

★ ★ ★

في مبنى القيادة يحيط جنود الشرطة العسكرية بالمداخل والمخارج
والنوافذ . سجادة حمراء تمتد في العمر وحتى السلالم الرخامية اللمعة
التي تقود لمدخل القاعدة . جنود دورية النظافة ، أنهم أعمالهم ويمدون
لثكنات الجنود حاملين الجرادل والمقشرات . آخرهم يحمل سلة مهملات
ويعضي باتجاه الجبل ليفرعها هناك . في الطابق الثاني وقف فخر الدين
وجاد أمام غرفة الضابط النوبتجي . الصول حبي بيديه الزائفتين يحمل
ملفا وأوراقا ويروح وجيء في توتر . ظهر العسكري مراسلة الضابط
النوبتجي من الباب وأسر للصول حبي بكلمتين . تبادل الصول وجاد
نظرتين . مضى الصول للدخل خلف المراسلة . خرج المراسلة بعدها
بقليل حاملا صينية عليها بقايا إبطار وشاي . لحظات ثم ظهر الصول
حبي برأسه ومادى على جاد . نظر فخر الدين لحلمي وقال :

- أين أدخل للضابط ؟

طيبا لا ؟

مفكلاً الفكر الذين ، وأغلق الباب . أطن فخرالدين من نافذة العمير . يبدو مكتب الرسم بعيداً وصغيراً . بدت رأس الضابط حسن من وسط الصحن وهو خارج من الجبل حاملاً علبة الصمن القديمة . « أين أنت الآن يا عبيد » خرج جاد من الغرفة مهتسماً . وجنّاه الكاحلتان منفتحتان . مر أمام فخرالدين دون أن ينهم بيئت شقة . تبعه الصول حبيي بعدها بدقيقة . نظر إلى فخرالدين بعينه الزئفتين من بين أوراقه وتمتم ،
- عشرة أيام حبس .

* * *

رفض حكمدار تسجن تحديث معي قال إنه لا يذكر شيئاً عن شخص اسمه فخرالدين ، وعندما سألته عن سجلات الصحن قال إنه لا توجد سجلات

- هذا صحن الوحدة وليس له سجلات فمن الممكن أن يدخله أي جندي في أي وقت هذا ليس سجناً حربياً ، مجرد حجز .

* * *

حبيبتي

الآن تركوني . الساعة تقترب من منتصف الليل ولدي شعور فظيع بالمرارة ، كأن حلقى علقم . بالأمس كنت أود الكتابة إليك ولكنهم لم يتركوني قبل الفجر . كنت قد وصلت لدرجة من الإنهاك حالت بيني وبين نفسي . ما يحدث هنا شديد الكآبة والعبوس . لا أكاد أحتمل . بالأمس بكيت . بكيت وسأل الدمع من عيني ولم أستطع منعه . بكيت وأنا أقاوم اليكاء وأبكي وأقاوم . إنهم يهينونني يا حبيبتي . يدوسون كرامتنا ونسائيتنا وكل شيء طيب يداحلقنا . يتعمدون إهانتنا ، ولا أستطيع الاحتمال .

الرملاء هنا طيبون ، وهم جميعا يمانون ولكنهم يتأقلمون مع الوضع ويعتادونه مع الوقت . لقد حاولت أن أفضل ذلك ولكني لم أستطع . شعرت أني لو تأقلمت على هذا السوء سأفقد كل ما قد يكون جميلا بداخلي . كما رحصت وثرث في مرات لكني وجدت النتيجة واحدة ، إما أن تنمدي الأمر ، أي أمر ، أو تعصينه ومن ثم تُعَازِي بأوامر من نفس النوع ولكن أقسى وأشد إهانة للنفس .

لا أستطيع أن أضمن احتمالي لهذا الوضع أكثر من ذلك . لا أستطيع أن أضمن احتمالي لمسألة الطاعة العمياء وتقبل هذه المهانة المخزية أكثر من ذلك . إنني أحاول تصادي المواجهة ولكني كثيرا ما أشرف على الانفجار .

ممى هنا علي ، وهو العزاء الوحيد لي ، ولكنه يفيب كثيرا : لأنهم يرسلونه في مهمات كثيرة . ربما أنفجر يا حبيبتي ، ربما أنفجر وعندها لا أدري ماذا ستكون النتائج . لكنهم يدوسون قلبي .

قصاصة من خطاب

كتبه فخر الدين إلى شيرين :

- 2 -

كانت الشمس قاتلة عندما جاء جنود السجن ليأخذوه . الحرارة تلهب
أسقف المكاتب الصاج وتحيل بطونها إلى جهنم لرجة . السلالم الحجرية
تزيد من توجه الشمس وتضاعف حرارة المكان . ما هذا الحر في قلب
الشتاء ؟ تقدم جنود السجن على السلالم الحجرية باتجاه مكتب الرسم .
تجمع الجنود داخل المكاتب . لا أحد في أرض الطابور . دقائق الأحذية
المسكورية المنتظمة لجنود السجن ترن على حجر السلالم . كان باب مكتب
الرسم مفتوحا . بالداخل وقف جاد مرتديا ملابس المسكورية كاملة . أمامه
جلس فخر الدين . بدون طاقيّة . حلق الرأس . الملم الحلاق أدواته وخرج
من المكتب . دخل حكيماور السجن إلى المكتب . أمسك بيدي فخر الدين
وفيهما . تقدم فخر الدين وسط جنود الحراسة إلى منتصف أرض الطابور
إلى السلم الحجري . يداه مقيدتان خلف ظهره . مضمومتان ومقلقتان ،
عيناه خائيتان من أي تعبير ووجهه منهبط تماما . شمس حارقة تصب في
قلب ظهيرة الشتاء . انتظم طابور السجن . فخر الدين في الوسط وصفى
الجنود يهبطون المنحدر ويفيرون شيئا شبيهاً . زعن جاد فجأة :

- أين طاقيّة علي ؟

رد يونس في انكسار :

- أخذها فخر الدين معه .

رائحة عطنة تضح من الممر . بقايا الطعام تتجمع في برميل أسود
كبير . ومن حوله الأرض مبللة من بقايا سوائل تتسرب من أرضية المطبخ .

باب المطبخ مفلق برتاج ضخم ولزج الملمس . الجدار الخارجي متكس وحول النافذة الوحيدة هالة من السواد . أمام باب المطبخ مباشرة باب السجن المدهون في قلب المقطم . من نافذة الباب الحديدي تتكسر ميون محدقة . حكمدار السجن مستلق أمام الباب بجوار سلاحه القديم . أصوات تملطلق في المطبخ ثم يفتح الباب . يخرج جنديان يحملان إناء أسود ضخماً . كلب أسود مقطوع الذيل يعبث في زاوية المطبخ . تموء قطرة هي الهرميل وتطل برأسها ناحية باب المطبخ المفتوح . ينصفق الباب ويتجههر الجنود حول الإناء الضخم .

- معلكة انعدا

حامل الإناء ينظر حوله في تحد . تجلس الجنود شيئاً فشيئاً . يخرج حكمدار المطبخ من جيبه ورقة مطوية . يفردها ببطء وهو ينظر للجنود . يبدأ في التناداة . يدخل يونس حاملاً إناء التجهيز يتبعه حامد . حكمدار المطبخ ينادي :

- السواقين ، السكرتارية ، العمليات .

يتقدم يونس وحامد . زعمى حكمدار المطبخ .

- سلمه فرختين ونصف .

سار يونس وحامد يحملان الفراخ والأرز . توقف يونس ونظر إلى حامد في خبث .

- اسمع! أنت ناوي تعمل عبيد ؟ فرختين ونصف لثلاثين نفر لا تختلف عن فرختين لثلاثين نفر . ثم إنهم كلهم يعملون ذلك .

وضع يونس فم الدجاجة في فمه وأحد يصيح بثلث مسموع الصوت ناوول حامد المتردد ريع الفرحة وابشتم له هبانت بقايا الدجاج في فمه .

سالت بقايا السم من العالقة بالدجاجة على شفته السفلى المنفرجة . مسح يونس فمه بظهر يده ثم ضرب كف يده في إنياء الأرض وغرف .
- كل . لرسول كان يأكل بيده . كل .

على جدار السلم الحجري كان فخر الدين جالسا مع علي في انتظار التبيين . لاحظت رأس يونس في أسفل السلم وهو يصعد هاتفا : فراخ . تجهز الجنود على متداد لسلالم معترضين طريق يونس الذي أخذ يراوئهم وهو يسب ويلعن حتى وصل إلى علي . نجاس أعلى السلم ووضع الإناء أمامه والدجاجتين . نظر علي إلى الإناء والدجاجتين . رفع رأسه وطاف بعينه على الجنود المتجمعين حوله . عاد بعينه إلى الإناء وهو يزوم ويهر رأسه . نظر إلى فخر الدين وقتل بلهجة الصميدية
- وكيف أقسم فرحتين على ثلاثين نمر ياد الله ؟

مسح الضابط حسن جبينه بالمنديل

لا يا قديم . بعد خروجه من السجن مباشرة تم إلقاء الحاقه هنا باعتباره غير صالح للخدمة في مكان حساس كهذا . وأُعيد إلى كتيبته في قلب الصحراء عند البحيرات المرة . عليه يتعمم الأدب ويعرف الجيش على أصوله .

* * *

أز باب السجن الضخم وهو يتفتح . دفع الصول بقصر الدين من ظهره إلى داخل الظلمة السيئة . رائحة عطنة تروح من المكان ورطوبة مشيمة تطبعه . استدار فلم ير شيئاً . انقلب الباب فازداد الظلام حلكة . خرج شبح ضخم من حلمه وفتح بصوته المبحوح .

- احلح الحزام والأقربول والبيادة والطاقيّة والساعة وأي حلوس تكون معك . قبل أن يُتمّ جملته هويت صفعة على خد فخر الدين من الخلف . استدار وهو يزعم فجذبه الشبح من أمام .

- نفذ يا عسكري . لا تلتفت بدون إذن .

بدأت عينا فخر الدين تمتاد الظلمة . خلع ساعته ومعلقاته ووقف بملابسه الداحلية البيضاء في ظلمة السجن .

ربطها وجذبها منه شخص في الظلام . كان الشبح واقفاً أمام نائمة الباب الوحيدة .

- تسعة استعد .

وضع فخر الدين يديه خلف رأسه وهبط بنصف ساقيه إلى الأرض حتى لامسها بركبتيه . عاد إلى الوقوف .

- عد .

عاود فخر الدين الهبوط والوقوف .

- واحد ، اثنان ، ثلاثة .

عاحلته صفعة أخرى من الخلف فالتفت ضارباً بقبضته المجهول في الهواء . جذبه الشبح من خائلته :

- أنتوقف التمرين بدون إذن يا عسكري يا مقفل ؟

جاء صوت من النافذة .

التعيين يا حكمدار المسجن

تراجع وهو يسب ودفع الباب فبانت لوحة من الضوء غشيت عيني
 فخر الدين ثم اختفت . جلس إلى الأرض ، رطبة وغير مستوية . طقطقت
 عظام ساقه وهو يجلس على الأرض . على جدار المسجن المبلل بدت
 رسومات بالطباشير الأبيض ، نخلة وتليفزيون وإبرياء وأسماء ، ساعية
 وعنية وجماليات وفتحية ، وأبيات شعر ركيك وعبارات خارجة ، في زاوية
 الغرفة بدت رأس صلعاء وعينان نصف مفتوحة مثبتة على فخر الدين .
 نظرة باردة ، ميتة الوجه متراخ العضلات ، ذراعتان ممدتان بجوار
 جسده المرخي المستند إلى الجدار ، في الزاوية الأخرى اثنان يملأ بهما
 الداخلية ، وثالث يملأ به كامنة يدخن سيجارة يتلذذ ، أظلمت نافذة الباب
 ثم صر القفل وفتح الباب وبدأ شبح لحكمدار مرة أخرى في فلكة الضوء
 المنبعث من الباب ، أن الباب وصر القفل مرة أخرى .

- أين الجديد ؟

وقف فخر الدين .

- لماذا لا ترد يا مسجون ؟ قم اطلع النخلة هات البلع .

- أي نخلة ؟

- النخلة المرسومة على الحائط يا روح أمك .

- دع أمي في حالها .

أحمر الحكمدار :

- اجننت يا مسكري ؟ ترد على حكمدارك ؟

وهوت يده الفلينة على خد فخر الدين فسال دم خفيف من فمه .

نظر فخر الدين إليه في وجهه ، وبصق الدم عليه . صمت المسجن لحظة

وحدثت العيون هي رعب . مد الحكمدار يده ومسح الدم ببطء من على وجهه . نظر في يده . ارتعشت قليلا . ثم ردها وهوى بها في غضب جنوني على وجه فخر الدين في صفعات متتالية . أمسكه من وسطه ثم قذف به إلى لجدار ركلا في بطنه . ارتطم فخر الدين بالجدار ووقع على الأرض . لملم جسمه واستند إلى الحائط وقدم . نظر للحكمدار ثم بصق الدم في وجهه . استشاط السجن جنونا . صلت صيحات الحكمدار على ضربات وركلات الباقيين الذين هجموا جميعا على فخر الدين . تفجر الدم من وجه فخر الدين وخفت حركته شيئا فشيئا . صاح الحكمدار في الجندي ذي السجارة

- ولديا قطعة عليه!

- 3 -

قال لي الجندي وهو يرفع حقيبته على كتفه
- كسمريت ؟ تأخذ هذا الطريق حتى الدوران . ستجد تمثالا عنده .
تمثالا أبيض . تدخل شمال . هذه هي كسمريت .
أغلقت رجاج سيارتي وواصلت المسير . هذه إذن هي مدينة فايد .
صغيرة . الرمال تمتد من حولي وحتى مرمى البصر . مضيت في الطريق
الذي أشار علي به الجندي . بدت لي في الأفق ملامح لنصب تذكاري
مجهول . لا بد أن ذلك هو الدوران . سيارات نصف نقل معبأة بالجنود
الراجلين إلى معسكراتهم . مضيت عبر الطريق فوصلت إلى درب نصف
ممهدة . مضيت فيه حتى نهايته .

لاحظت لي في الأفق معسكرات الجيش ورايات بادية للعيان . لا بد أن هذه
هي كتبة فخر الدين . ركبت السيارة على جانب الطريق وأغلقت أبوابها ونزلت

الرمال تملو وتهبط، هي الطريق إلى مدخل الكتبة ، وتجد الطريق أطول مما يبدو . مشيت قرابة نصف ساعة في تلال من الرمال والشمس تسطع فوقها . بقايا ومخلفات متنوعة متناثرة خلف التلال ، قطع من أسلاك شائكة وخود قديمة محرومة ملقاة ، اقتربت من الكتبة أكثر . غرفة مبنية من الطوب والصاج وبها نافذة وحيدة . أمامها قدر طعام كبيرة . نظر إليّ الجندي الواقف بالباب . حبيته برأسي فأجاب التحية وهو يتعني بعينه . ملايبه الممزقة مكسوة ببقع من الزيت . مضيت أكثر داخل الكتبة . مبان متناثرة من الطوب ومغطاة كلها بأسطح من الصاج . رمال واسعة تفصل بينها قواعد الصواريخ تبدو شامخة وسط هذه المباني المنخفضة . فوق التلال لصحربة ثبتت أجهزة رادار مختلفة الأشكال . اقتربت من أحد العدائي . طرقت الباب الموارب ودفعته . نظر إلى الصول الجالس خلف المكتب في تسالول :

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

- أنا عمر فارس ، وكيل نيابة .

- أهلا وسهلا .

- كنت أبحث عن الرائد عصفور .

انهبطت أسارير الصول وقام :

- أهلا وسهلا ، أهلا .

مد يده مسلما فسلمت .

- حضرتك تريد الرائد عصفور ؟ تفضل معي ، من هنا ، تفضل ، سرت

خلفه خارجا من المكتب . مررنا بين المباني . التفت إلى :

ولكن كيف دحاث ؟ لم يبلغني أحد من البوابة بوصول زوار

- لحقيقة أنني لم أعرف أين البوابة بالضبط . لقد دخلت من هنا .

وأشرت بيدي باتجاه المطبخ ، نظرت إلى حيث أشرت ثم نظرت إليّ
وابتسم .

- أهلاً وسهلاً .

* * *

- وما العمل الآن بعد أن صرنا قلائل ؟

- قلائل ؟ اتسمي جيوش فرنسا وصقلية وحيش ملك إنجلترا وفرنسا
المعبد وفرنسا لصليب معاً ، قلائل ؟ إنك خائف يا عزيزي

أطماً الحندي التلفزيون فقطع حبل أحلام الجنود المتحلقين أمامه
علت صيحات الاستنكار من الجنود لكنه لم يابه . صفق بيديه معنا انتهاء
السهرة وبدأ هي إغلاق الأبواب . تحرك فخر الدين من على الدكة الخشبية
وأصم قدميه في الحذاء الكاوتشوك الأبيض . خرج من البوابة وسط أمواج
الجنود الخارجين وهم يستعيدون مقاطع فيلم القامصر صلاح الدين كانت
الليلة رائقة السماء ، وسمعت منعشة من الهواء تهب من ناحية البحير ت
فتلطف من حرارة أغسطس القانطة .

سار فخر الدين باتجاه السور هي آخر الكتبية . لم يكن يستطيع أن ينام
الآن . بعد ساعة لديه مناوبة على جهاز الإشارة . مضى باتجاه السور فوجد
عدداً من الجنود جالسين أسفل النخلة القصيرة الواقفة وحدها هناك .
ألقى السلام وجلس فأصبحوا له المكان . ابتسم له أشرف وسأله إن كان
لديه مناربة هو الآخر . أوما فخر الدين برأسه . ابتسم أشرف وأردف
- إذن كلنا لدينا مناوبة جماعة .

كان الجالسون كلهم ساهمين . منذ أول أغسطس لم يستطع أحد منهم

أن ينزل في أحازته . حتى أشرف لم يستطع حضور إكليل أخته الذي تم من أسبوعين . مع أنه من الزقاق إلا أن القائد رفض بتاتا إعطاءه أي أجازة ولو ليوم واحد . حافظ لم يعد يعرف شيئاً عن أرضه ولا عن النزاع الدائر بينهم وبين عمه حول حدود الأرض من ناحية المصرف في قرية يهرب نجم . عماد ساهم كعادته ومنطو على نفسه . تنهد سلامة وتمتم :

- حالة الطوارئ هذه جاءت على دماغنا .

- ومن يعلم إلى متى يستمر وقف الأجازات

قال أشرف وهو يعبث بمصا قصيرة في الرمل :

- وسدام حسين هذا ألم يستطع الانتظار أسبوعاً واحداً ؟ كنت حضرت

زواج أختها

ساد صمت حزين . وكان موعد المناوبة يقترب .

* * *

سألت :

- هل كان جندياً مشاغياً ؟

خلع الرائد عصفور البهريه الأسود ومسح بيده اليسرى صلعة رأسه

وابتسم من خلف نظارته الرقيقة :

- فخر الدين عيسى ياسيدي كان ككل جنود المؤهلات العليا . كثير الكلام

والرد . لكن الميري ميري ولا يمكن السماح بذلك هي الجيش كل المجندين

عادة ما يسبون نفس المشاكل في أول فترة تجنيدهم ثم يتأقلمون مع وضع

الجيش مع الوقت . لكن فخر الدين هذا كان عجيب الشأن . كان كل يوم كأنه

أول يوم له بالخدمة . وكان عنيدا أيضاً وهذا هو سبب المشكلة . سدفني يا

فندم . وأنا هنا أحدثك بصفة غير رسمية وليس لدي بلا مؤادة ما

يجبرني على الحديث إليك ، إن المسألة برمتها مسألة عند . لولا عنده
هذا لثم حل المشكلة بمنتهى البساطة . وحتى آخر لحظة كانت المحكمة
العسكرية مستعدة ترجع في قرارها أخذاً في الاعتبار حالته النفسية أو أية
حجة أخرى لو كان هو قبل التراجع عن عنده . لكنه لم يقبل . رحمه الله لم
يكن طبيعياً . أليس كذلك يا حضرة الصول ؟

ثم نظر إلى موضعاً :

- الصول إبراهيم كان معنا خطوة بخطوة .

- تمام يا هندم . تمام كنت دائماً أقول لسيادة الرائد إن فخر الدين

وند طيب لكن دماغه هي المشكلة .

استمع الصول إبراهيم ضيانت أستاذاته البيضاء اللامعة . ظل مبتسماً

لحظة حتى التفت إليه الرائد عصفور :

- تمام يا إبراهيم .

الصول إبراهيم نفسه كلم فخر الدين عدة مرات وحاول معه . سواء هنا

قبل أن نتحرك أو في الميدان . لكن فخر الدين كان دائماً ما يخيب أمله .

بعد ذلك يا سيادة الرائد ، أشرح لسيادة الوكيل . يا هندم والله لقد

كلمته أكثر من عشر مرات ، وكنت أقول له إن الجيش هو الجيش والأوامر

هي الأوامر وإن الطاعة يجب أن تسود والا ينقلب الجيش لفوضى . كان

يسمعني وهو ساكت ثم يرد علي ردوداً غريبة . لم أكن أفهم ماذا يقصد ،

ولكني مع ذلك قلت له . قلت له : إنه مثل ابني ، وأنه مهما كان عنده من آراء

فهو حر ، لكن يهمني الأوامر ؟ وهذه حرب يا هندم وليست هذار . يا الله .

الله يرحمه . كان السبب هي كل هذه المشكلة .

ضغط الرائد عصفور على زر أحمر مثبت في الحائط بشريط لاصق

أزرق ظل ضاعطاً حتى ظهر على الباب جندي قصير القامة :
- الشاي بسرعة يا دة .

★ ★ ★

خلع فخر الدين الساعية من على أذنيه وبدأ في فك الشفرة . كان قلبه يبدق بشدة وهو يملك رموز الرسالة التي جاءت . عيون أشرف وحافظ وسلامة وعماد منقطة في نومهم القلق هي انتظار دورهم في المناوبة . فخر الدين مبهونه تتسع وقلبه يبدق وهو يمضي عبر السطور . عندما أنهى فك الرسالة كلها احتاحت رعدة ورد . أعاد قراءة الرسالة مرات .

وصدها أمامه على المنضدة والتفت إلى زملائه أيقظ أشرف أولاً ووضع الرسالة في يده دون كلمة واحدة . وبعدها كان أشرف يقرأها أيقظ الباقين جلس الخمسة حول الجهاز ينظرون للرسالة دون أن يحرروا أي منهم على الكلام . ساد صمت وفلق عميق . نظر فخر الدين للورقة الملفاة بينهم على المنضدة . مد يده ولمسها . ارتعشت يده وهو يمسكها وقام واقفا :
لا بد من أن أسلمها لقائد الكتيبة .

★ ★ ★

- يا سيدي المسألة لم يكن فيها تحريض سياسي ولا يحزنون .

رشف الرائد عصفور رشة من شايب الأسود وأستطرد :

- كل ما في الأمر أن فخر الدين عسكري غير منضبط . لم يعرفوا لا هي مركز التدريب ولا هي القيادة في القاهرة كيف يكسبون الروح العسكرية . روح الطاعة والنظام . الموضوع كله أنه رفض تنفيذ الأوامر وهذه جريمة يعاقب عليها القانون العسكري . مسألة التحريض هذه مسألة ثانوية .
قطعه الصول إبراهيم بإبتهامته بيهاء الأسفان .

- بعد ذلك يا هندم هي الحقيقة أن أول الشغب بدأ هنا هي الكتيبة
عندما وصل أمر التحررك . لأن فخر الدين ساعته رفض تميم الأمر . وكان
يمكننا قانونا محاكمته عندئذ . إلا أنك ولتبعه معك معه ، وهذا خطأ يجب أن
نعترف به . نتاورنا معه واستطعنا إقناعه بأن يلزم الدور وأن يحمي الأوامر
ويرحل مع الكتيبة . والحقيقة أننا كنا نعلم أننا بذلك قد حللنا المشكلة
على أساس أنه لم يبق عيال أو عند شباب وبأخذ وقته ومجره وينتهي . ولكن
مثلما قال سيادة الزائد لسماعته فإن فخر الدين كان كل يوم كأنه عسكري
جديد ، لم يكن يتعمق أبدا .

ثم إنني تصرفنا طبقا لقانون . ولم يكن هناك حل آخر ولا تحولت
لعملية نموضي نحن هي حيث هنا ولما هي جامعة . وبموافقة قائد
القوات المنوب تم تحويله لمحكمة عسكرية ميدانية . وهذه المحكمة هي
التي أصدرت الحكم ولست أنا
بالضبط يا هندم .

* * *

بدأت الأمراء تهر المكاتب المظلمة شيئا فشيئا ووسط ظلمة
الصحرَاء الشرقية ، على حافة البحيرات المرة ، ظهرت بقع متناثرة من
نضوء الخافت . استيقظ قائد الكتيبة على صوت فخر الدين واتسعت حدقتا
عينيه عندما رأى الرسالة . وهي المكاتب الأخرى كان النبا يسري سريعا
فيوقف نائمين ويتركب عناصر لجنود . وعند الفجر كانت كل الكتيبة تعلم
أنها تلقت أمرا بالتحررك إلى الطهراس . ما أن أشرف على فخر الدين وسأله
والقلق بمصر وجهه :

- ما العمل ؟

عيس عماد ونظر بعيدا . انفتت إلى حافظ في صيق وقال له .

- أنت لا تفكر إلا في النزاع اللعين بينك وبين عمليدا

ارتدى طاقيته وسار بعيدا ناحية قواعد الصواريخ . هرش سلامة رأسه

وشرد وهو ينظر إلى حافظ :

- هل تعتقد أننا سنحارب فعلا ؟

نظر إليه حافظ :

- نحارب ؟ نحارب من ؟

لم يرد سلامة وواصل الهرش في رأسه .

- تعال نصلي الفجر .

مصبا ناحية المسجد . مال أشرف على فخر الدين وسأله

ما العمل ؟

نظر فخر الدين بعيدا ولم يرد . القائد ممسك سماعة التليمون مند

نصف ساعة . ينظر إليها ولا يجرؤ على الاتصال . «هل أوقفته؟» . وقف

عماد عاسا وهو ينظر إلى الصواريخ الشاهقة في غيش المجر . كانت

رأسه تكاد تنمجر من ارتفاع ضغط الدم . لا فائدة . لا يجرؤ على إيقاف

قائد اللواء . مد يده ووضع السماعة وهو ينظر مجددا إلى الرسالة . دق

جرس تليفون فاستفض ورفعها فورا . جاء الصوت حادا :

- أين أنت يا سيادة العقيد ؟

- تمام يا هندم . العفو . كنت . كنت أحاول الاتصال بسعدتك . لكني

كنت أخشى إزعاجك .

- إزعاجي ؟ يا مني أنا أكلتك من القيادة من القاهرة . ألم تستلم الإشارة ؟

- تمام يا هندم . استلمتها وهي في يدي .

- التفاصيل الخاصة بالتنفيذ ستصلك غدا صباحا مع مخصوص.
رئيس الأركان موجود الآن بقيادة اللواء ومعك كافة التعليمات الخاصة
بالمعاملات . تتوجه إلى هناك فوراً ومعك ضابط العمليات بالكتابة .
تمام يا فتد .

وضع العقيد سماعة التليفون . وإذن الموضوع بعد . كنت لود لوسائته إن
كان الموضوع بعد أم تهوئش . خبط العقيد رأسه بيده وقام من على مقعده .
-- هل سأحارب هملا ؟ وأين ؟

- يا أشرف! أنا لن أتحرك من هنا .

نظر أشرف إلى فخر الدين ولتست عفاء .

- ماذا ؟ لن تتحرك ؟ كيف ؟

- مثبعا أقول لك . أنا لن أتحرك من هنا .

- تحرك بسرعة يا غبي .

دفع العقيد بقدمه عسكري المراسلة وأكمل ارتداء ملابسه . لاح له
ضابط العمليات قادما من وراء الباب :

- سيادة المقدم جاهز ؟

- تمام يا فتد .

أدى حافظ التحية وهو يسلم اللوردية . كان التقيب رأفت يقف في
مواجهته :

- هل تعرف موعد التمييز ؟

- لا يا فتد .

- وأين سيذهب القائد وضابط العمليات الآن ؟

- لا أعرف يا فتد ؟

- طبيب انصراف يا عسكري

مضى فخر الدين مدثرا نحو أسور . من بعيد بدت له مياه البحيرات
المرّة شديدة الزرقاء .

* * *

لمر ضيق . على الجانبين بقع عشوائية من أشجار الخروع ونباتات
النصار . نافورة قديمة متهاكة يسبح ورق الشجر المتساقط في مائها .
كذب بشي اللون يعبث بشيء في فمه على حافة النافورة . جنود تجري من
حين لأخر بين أبواب المبانى . كاب أحد الضباط يطل من نافذة حديدية ،
ينظر إلي ثم يختفي . يتسع العمر أكثر ويزداد تخرج الأرض . بضمة سلام
متأكلة تقود إلى كشك صغير على اليمين . مررت بجوار الكشك في اتجاه
العبادة . عسكري ضئيل الجسم واقف في كشك يقلي بطاطس . بخار
الزيت يكون حلقات مصفرة ملتحقة بجدار الكشك . مبنى مستطيل من
الصاج . هذه هي العبادة .

كان خليل نائما عندما دخلت . منذ عودته من حرب الخليج وهو محجوز
بالمستشفى العسكري . الطبيب المناوب شاب مجند . أكد لي أنه سليم
ولا يشكو من مرض عضوي ولكنه مصاب بلوثة وضلالات ومحجوز هنا
لحين انتهاء مدة تجنيد . عندما أغلقت الباب خلفي فتح عينيه ثم أغلقهما
بسرعة . تقلب على جانبه الأيسر . ظللت واقفا في صمت . ظل في مكانه
لحظات ثم هز رأسه وقام .

- نعم كنت موجودا يوما . وسأروى لك الحقيقة كلها فلا تسمع إليهم .
هم يقولون عني إني مجنون ! لأنهم يحافون مما أقول . أنا لست مجنون
ولكني رأيت ما حدث وأقول الحق ولو على رقبتى . ولهذا حجزوني هنا

رغم انتهاء مدة تجنيدي . نعم لقد انتهت مدة تجنيدي . انتهت منذ سبعة شهور وثلاثة أيام . ولكنهم لا يريدون تسريحني . كانوا في البداية يطلبون مني أن أسكت وبعد ذلك قالوا عني إنني مجنون . حرام . ربما لا يرصى بالظلم أبداً وما حدث لفخر الدين كان ظلماً وقد رأيته بعيني . كنا جميعاً أعصابنا تمبانة وكانت العساكر متصابقة وعلى آخرها . لم يكن أحد هنا يريد أن يذهب للسعودية . ما لنا نحن وهذا الكلام . لقد دحنا الجيش نؤدي الخدمة سنة أو سنتين وننتهي . كل واحد منا عنده مشاكل ومشاكل لو لم ينتبه لها يجوع فيها ناس . هم كانوا سألونا إن كنا نريد دخول الجيش أم لا ؟ سألوا إن كنا نريد أن نحارب في السعودية أم لا ؟ ثم نحارب من ؟ نحارب ولاد عرب مسلمين ؟ هي الدنيا جرى فيها حاجة؟ المهم . العساكر كلها كانت في حالة غير طبيعية . وكنا خائفين بصراحة . حتى اتصالات والضابط كانوا خائفين . والله كانوا خائفين . أنا شفت بعيني المقدم رأيت بيكي بالدموع في مكتبه يومها . لكنه لما شافتي داري وجهه .

سمعت خليل لحظة . ثم استطرد :

- يومها . حوالي الخامسة مساء . فخر الدين دخل لمكمدار مكتب الأفراد وقال له إنه لن ينادر الكتيبة ولن يذهب للظهران . مكمدار الأفراد ظل يتكلم معه حوالي ساعة . في البداية كان فاكر أنه يقول أي كلام أو أنه خايف . لكن لما وجد الموضوع كبير قام أحذو لقائد الكتيبة . بقية العساكر لما سمعوا بالموضوع هاجوا . وخرج كثير منهم ناحية مكتب القائد وقالوا إنهم هم أيضاً لن ينادروا الكتيبة . الرائد عصمور هو الذي كان مناوباً يومها لأن القائد وضابط العمليات كانوا في مأمورية في قيادة اللواء . ظل الرائد عصمور والضابط إبراهيم يهدوا في العساكر ويتكلموا مع فخر الدين .

وفي الآخر حملوا على المصحف أمام المسافر أجمعين أن الموضوع لا فيه حرب ولا يحزنون وأن الموضوع حاحلت في السياسة وتحويف للعراق حتى ينسحب ، وقالوا لنا أيضًا إنه لا توجد أسلحة جبهة أو أراضي أو معدات تصلح للمعركة . بعضها الجنود هبات وبدأت تجمع مهماتها استعدادا للرحيل .

- وفخر الدين ؟

- فخر الدين قال إنه سيفقد الأوامر ويرحل مع الكتيبة بناء على هذا الكلام . وقال لي - والله ما زلت أذكر كلامه كأنه كان بالأسر - إن الذهاب للظهران في حد ذاته ليس مشكلة ، لكنه لن يشارك في قتال هو ليس طرفًا فيه ، وأقسم لي على ذلك ، وكان معنا بقية المسافر .

* * *

البحر أزرق . فتح فخر الدين عينيه على اتساعهما ليمألهما بزرقة البحر ، طير أبيض بعيد يهبط نحو الماء مرهرف ، ينقطع بمنقاره شيئًا من الماء ، ثم يخلق جناحيه ويعلو في الهواء متباعدا . البحر أزرق من أمام ومن خلف ومن الأجناب . كله أزرق . وهذه السفينة تزحف على بطن تبحر كأنها لا تتحرك . منذ ليل الأسر المظلم بميناء السويس الكثيب وزحام شحن المهمات والمعدات على ظهر هذه السفينة العمياء وأنا بقط . كأنني أنتظر تنفيذ حكم إعدامي في صباح بطيء المجيء ، وأقول : لا حزن مثل هذا الحزن الذي يكتم أنفاس البحر وأنفاسي . يا ليتني طير ، يا ليتني بحر . نظر فخر الدين إلى جسم السفينة الحديدي ، قديم ومعتكل ، على ظهر سفينة بدت لعربات المصفحة لتتراضة كأنها توابيت . من يهادي من يموت ؟ تركب الجنود حر الأسرة المرفقة في بطن السفينة الخائقة واستلقوا على السطح فوق وبين العربات والمعدات . عربات مصفحة وعربات نقل .

عماد سفتقل يا ترى ؟ جثثا لم حثت الأعداء ؟ الأعداء! نظر فخر الدين مليا للعرصات، الصول إبراهيم والرائد مصطفى والمقدم رأيت ينامون هي كباشهم فيم يفكرون الآن ؟ قائد الكتيبة وضابط العمليات رحلا مع قائد اللواء في المناثرات العسكرية . بالأمس رأيتهم في نشرة الأخبار يصافحون الرئيس . ألف مبروك . أسند فخر الدين رأسه إلى السور الحديدي البارد السور بارد وواسع جنبه كله . تقلب في نومه على الأرض . لا فائدة . قام عماد وجلس على الأرض مبتعدا عن هذا السور الذي ظل يشق جنبه طول الليل كسيف . فتح عينيه نصف فتحة . كان الضوء حادا كأنه دبابيس داخل جفنه . أزاح الغطاء من عليه . بطاطين بطاطين . من قال إن الجو برد كي أتعطى ببطاطين ؟ منذ دخلت الجيش وأعطوني هذه البطاطين وصارت عادة لدي أن أتعطى بها . حتى في الصيف . هل لأنها الشيء الوحيد الذي أملكه في هذا الجيش ؟ الشيء الوحيد الذي أنا حر فيه ؟ فتح عماد عينيه ونظر عبر السور . البحر! كان عماد يمشق البحر . منذ طفولته وهو يهرب من المدرسة ليذهب ويجلس على كورنيش الشاطيء . ما أجمل البحر يا إسكندرية! ما أجمل بحرك . وما أفتح هذا البحر الإجباري الذي يحاصرني! فرك عماد عينيه . حلمت أنني أغرق في بحر عميق وكنت مربوطا برمح حديدي يشدني إلى القاع . إذا كان هذا السور هو الرمح! نظر عماد إلى كاوتش المصفحة الرابضة إلى يمينه . ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟ كنت أعاكس الفتيات السمر الجميلات على الكورنيش . وكانت أمي تطاردني بالعرائش كي تزوجني . وكان أخي يواصل رسوبه بالجامعة وكان التأجيل مستمر . صار عمري 29 عاما . وكنت قد قبلت في الدراسات العليا في باريس . كان جواز السفر في يدي ، والفلوس في البنك ، وكان

بنقصني حتم التجنيد . ما الذي جعل أحيي بنجح هذا العام ؟ فرقت عدة
شهور فقط . وكنت أخلق الآن في الطائرة إلى باريس . إلى مونتبارناس وسان
ميشيل . نجح أحيي . تبهده أخيرا ووجدت نفسي ملء الجيش . ووجدت نفسي
في هذه السفينة الحفقاء أذهب إلى أرض تم أحبها أبدا ولم أتصور أن
تعاها قدمي يوما .

- قالوا لي إنهم لا يقبلون المسيحيين فيها ؟

أكمل أشرف حديثه إلى سلامة :

- أعني قالوا لي إنهم لا يخلطون المسيحيين . وقالوا لي إنه ممنوع على
المسيحيين المقيمين هناك دخول الأراضي المقدسة . قلت لهم . موافق .
ومن قال لكم إني أريد دخول الأراضي المقدسة ؟ أنا أريد عقد عمل . أريد
أن أعمل فقط . لكن الرجل في مكتب التسجيل بصحني بأن أبحث في بلد
أخرى أفضل . قال لي ربما الإمارات أو الكويت . هناك لا يدققون في مسألة
الدين هذه . الآن أنا ذاهب إلى هناك لكن بدون عقد . أذهب هكذا هل
تعتقد أننا سنمر على الأماكن المقدسة ؟

لا . لا يمكن . تتم حافض وهو ينظر حوله ليتأكد ألا أحد يرى دموجه .
بالأمس قالت له أمه في تليفون إن عمه قطع الماء عن أرضهم . وأنها
ستضطر لتركه يأخذ القهراطين المتشاجر عليهما بدل المشاكل . وخاصة
وأنها وحدها مع أخيه الصغير وأخواته البنت منذ سفر أخيه للمراق في
الصحيف العاصي . أين أنت يا أبي لتري أعمال أخيك هنا أنتهي فرصة
غياي واستولى على أرضنا بالمافية؟ وأنا أترك أرضي تؤخذ وأرحل إلى أين ؟
دقق البدوي للنظر باتجاه البحر وهو يحمي عينيه من ضوء الشمس .
أمن النظر لحظات ثم خفض يده إلى حواره . نظر إلى ابنه الذي كان

يمسح الحمل بعيدا :

- ما الحسريا جاسم ؟ هذه عاشر سفينة أراها اليوم تمر من أمام الشاطئ ،
ربط جاسم الحمل وجاء إلى أبيه ونظر إلى حيث يشير . أمعن النظر
لحظات . كانت هناك سفينة صغيرة تمخر عباب البحر باتجاه الشاطئ .

- 4 -

والآن والأشياء سيده ، وهذا الصمت يأتينا سهاما

هل ندرك المجهول هينا . هل نخفي مثما كنا نخفي ؟

أم يا دمنا الفضيحة ،

هذه أمم تمر وتطبخ الأزهار في دمنا

وتزداد انفساما .

هذه أمم تقتش عن أجازتها من الجمل المرخرف .

هذه الصحراء تكبر حولنا

صحراء من كل الجهات

صحراء تأتينا لتنتهم القصيدة والحساما .

هل نختفي فيما يفسرنا ويشبهنا

وهل نستطيع الموت في ميلادنا الكحلي

أم

نحفل مثذنة ونعلن في القبائل أن يثرب أجرت قرأتها ليهود حبير ؟

الله أكبر

هذه آياتنا ، فاقراء

طوى هجر الدين ديوان محمود درويش . نظر إلى الغلاف : مديح الظل

العالي . نظر إلى الصحراء من حوله : لا ظل هناك . فتح الديوان وأكمل القراءة . كانت الشمس حارقة ، وداحل الخيمة كان الحر خانقا . طوى فخر الدين الكتاب وحمله إلى داخل الخيمة . كانت الجنود ممددة على الأرض من الحر . وضع في مقلته وسحب زمزية الماء . رفعها وشرب جرعتين . أغلقها وردھا . مرت علينا خمس عشرة ليلة هنا . ثم ماذا ؟ كن الطعام يأتينا كل ثلاثة أيام ، يوزعه علينا الصول إبراهيم ونحتفظ به في المخالي . أما الماء فكان يأتي كل يومين . ومنذ ثلاثة أيام صار يأتي كل يوم . كانت مدينة الظهران على بعد نصف ساعة بالسيارة لكن البنزين الموجود معنا محدود ولا توجد أوامر تحرك للسيارات . لاح أشرف قائدا من حلف السيارات الواقعة . يلهث . انكب على مقلته وأخرج الزمزية وأفرعها في فمه . جلس لحظات ثم اقترب من محر الدين

هل تعرف ماذا رأيت هناك حلف السيارات على بعد ربع ساعة سيرا على الأقدام ؟

وما الذي جعلك تسير ربع ساعة في الصحراء ؟

ابتسم أشرف :

- لا يهم لأن . سأقول لك فيما بعد . المهم أتعرف ماذا رأيت ؟

- ماذا ؟

- أجناب

- ماذا ؟

- أجناب . وغالب أميركان . يأتون بالسيارات وينزلون معدات وخراطيم وخزانات وأشياء كثيرة أخرى . ثم يتركوها ويذهبون ويعودون ثانية وهكذا . وعلى فكرة ، فيهم سوار لايسين ميري .

رفع عماد رأسه وأصاح السمع ، ثم سأنه

- بسوانة هل تحدثت معهم ؟

- لا .

- وكيف عرفت أنهم أمريكيان ؟

- شكلهم أمريكيان . طول وبيض ووجوههم محمرة . ثم من سيأتي هنا

غير الأمريكيان ؟

- نحن !

قال فخر الدين :

- ربما يجهزون لهم معسكرا .

- هي هذه الحالة سيكون معسكرا كبير . لو رأيت كمية المعدات التي

يغرفونها ، تكفي بلد . سأذهب ليلا مرة ثانية . هل تأتي معي ؟

نظر إليه فخر الدين وقال لا برأسه . رفع عماد عينيه إلى أشرف وقال

- أنا أتى معك .

* * *

خلع الرائد عصفور نظارته ووضعها على الدفتر المفتوح أمامه . مسح

عينيه بيديه . عصرهما ، كانت وجنتاه منتفختين ومحمرتين قليلا

- موضوع حفر الباطن هذا كان مختلفاً . فقد كنا هي الظهران منذ

أواخر أغسطس تقريبا . وكانت لأحوال هي البداية صعبة لأنه لم يكن

هناك استعدادات لكن مع الوقت تحسنت الأمور وخاصة أننا كنا بجانب

معسكر للجنود الأمريكيين وكنا نحصل على الطعام والماء من عندهم

لأنهم لا أطيل عليك . مللنا هي الظهران حتى أول يناير . وكنا قد بدأنا نمل

وحاصة أنه لم يكن هناك أحارات أو أي اتصالات بأهلنا . حاصة بالنسبة

لجنود . في هذا الوقت صدرت لنا الأوامر بالتحرك إلى حمر الباطن .
 الجندي فخر الدين أثار شغباً بالميدان . رفض التحرك . رفض تنفيذ الأمر
 وحرش بقية زملائه على رفض التنفيذ . الوضع أصبح سيئاً جداً وخطير .
 وبسراحة الموقف لم يكن يحتمل أي لعب من هذا النوع ، هذه حرب ونحن
 لم نكن وحدنا والدينا كلها متوترة . قائد الكتبة لما شاف الموقف اتصل
 مباشرة بقائد القوات ، وجاءت الأوامر صريحة ، أي شغب أو عصيان يواجهه
 بأقصى درجات الحزم . وهذا ما تم .

* * *

النجوم تلمع في سماء الصحراء المظلمة . لم فخر الدين نفسه في
 الربط الميري الأخضر . أحكم إغلاق أذنيه . البرد ينحدر في المظلم
 مباشرة . كان الصوت لا يزال يأتي من ناحية معسكر الأمريكان . منذ
 انقروب أمس والاحتفال مستمر . ذهب عماد ليقتضي السهرة مع صديقه
 التي تعرف عليها . أشرف أيضاً ذهب معه ليشرب بيوة ويحتفل برأس
 السنة . من خمسة أيام ذهب ليحضر عهد الميلاد . مع أنه أرثوذكسي وليس
 كاثوليكي ولكنه قال إن أي شيء أفضل من لا شيء إلى متى سيستمر هذا
 الاحتفال ؟ إلى متى سيستمر هنا ؟

* * *

- سعادتك نحن كنا في يناير ، وصدرت لنا الأوامر بالتحرك إلى حمر
 الباطن . وهذا كان معناه الاشتراك عملها في القتال .
 - وهل كان القتال قد بدأ ؟

- لا ، ولكن كانت هناك عمليات استطلاع والغام وخلافه تتم . وكانت
 الأوامر أن نتوجه للمنطقة ، وهذا معناه أننا لن نقوم بحماية السعودية مثلما

قالوا: لما هي البداية وإنما سنشارك في القتال . وهذا هو ما قاله لنا فخر الدين عندما أبلغونا بالأوامر . ومن ثم رجعنا جميعا للتنفيذ . يومها كانت موجة كبيرة . وبعد حوالي ساعة كان جنود الشرطة العسكرية قد جاءوا وطوقوا الكتيبة بحالها ، وقبضوا على فخر الدين . عندما حدث ذلك بقية المساکر خافت وكله جمع مهماته استعداد لتنفيذ الأوامر والتحرك الحمر الباطن . - وأنت .

- وأنا أيضًا يا فندم . نعم أقولها بصراحة . أنا أحب فخر الدين وكل شيء . لكن هذه مسألة حياة أو موت . وإذا كنا لا نريد أن نموت في الحرب فمن باب أولى ألا نموت مضروبين بالنار . بصراحة أنا أيضًا خفت . أنا مثل كل المساکر : بني آدم . خفت ونفدت الأوامر .

- وأين ذهب فخر الدين ؟

- على حسب الكلام الذي سمعناه ، فإن الشرطة العسكرية أخذه إلى مسكرها في الظهران حيث ظل محبوسا فيها لفترة . وبعد ذلك نقده لبحر الباطن للمحاكمة .

- والتنفيذ ؟

- التنفيذ كان في الظهران .

* * *

ابتهم الصول إبراهيم فباتت أسنانه البيضاء

- نعم يا فندم حضرت المحاكمة . أنا كنت كاتب الجلسة ، وما رلت أذكرها وكأنها كانت بالأمس .

- هل لديك صورة من المحضر ؟

- نعم يا فندم . توجد صورة منه في مكتب السجلات هنا ، والأصل

مقتل، فبحر الدين موجود في لقضاء العسكري . والحقيقة أنه لم يكن هناك أحد من القضاء العسكري موجود : لأنها محكمة ميدانية لها قاضي واحد هو قائد القوة . ولكن أرسلنا أصل المحضر بعد ذلك للقضاء العسكري وفقا للقواعد .

* * *

- أنت متهم بمصيان أوامر القائد في ميدان المعركة ، وبتهريض زملائك الجنود على المصيان . هل تقر بارتكاب هذه الجرائم ؟
- أنا لم أحرص أحدا . لقد رفضت «المساهمة في عملية قتل جماعية ، ولما سئلت عن «نسب أجبت .
- إذن أنت معترف بمصيانك للأوامر .
- أنا مقر بمصياحي لأمر التحرك إلى حفر الباطن .
- هل تعرف عقوبة هذه الجريمة ؟
- هذه ليست جريمة .
- هل تعرف عقوبة هذا المصيان ؟
- لا .
- لإعدام رميا بالرصاص .
-
- هذه خيانة صظمى .
- أنا لم أخن أحدا .
- ورفضك التحرك ؟
- التحرك لحفر الباطن هو الخيانة بعينها .
- التحرك لحفر الباطن كان أمرا عسكريا يا جندي .
- كونه أمرا لا يجعله حقا .

- ليست مهمتك أنت أن تعدد الحق من الباطل
- أنا لم أحده شيئاً لأحد ، أنا رأيت الحق حقاً فاتبعته ورأيت الباطل
باطلاً فاجتنبته .

- وهل من الحق أن تمضي أمر قيادتك هي ميدان حرب ؟
- أمر قيادتي باطل ، وهذا ليس ميدان حرب .
- كيف لا يكون ميدان حرب ؟ وفيه كل هذا القتال إذن ؟
- هذا القتال أنتم المسئولون عنه .
- نحن المسئولون عنه ؟ أهل سخن الذين جعلنا العراق يعتدي على الكويت ؟
- هذه سياسة ، وأنا لم أشارك في سياسة من قبل كي أتحمس الآن عواقبها .
- ماذا تقصد ؟

- أفقصد أنكم أنتم المسئولون عن السياسة أنتم وحدكم . لم تسألوني
من قبل عن رأيي ، لم تستشيروني . ولم أشارك معكم في قرار . أنتم تعملون
ما تشاءون ، ومن ثم تطلب من حقكم أن تحمِلوني تبعاً لأفعالكم .
ولكنك مواطن هي هذه الدولة . أنت لا تعيش وحدك في الفراغ . أنت
مواطن هي دولة لها مصالح وسياسة . ولا يعقل أن تنتظر الدولة موافقة
الأفراد وخذوا واحداً لكي تأخذ قراراً

- أولاً أنا لست مواطناً ، أنا رعية . المواطن يشارك في إدارة وطنه
وأن لم أشارك . وبالتالي لا أتحمّل مسئولية أخطاء من أدار . المواطن له
حقوق وعليه واجبات . وأنا لم أسمعكم تتحدثون عن الوطن إلا ساعة تقديم
الواجبات فقط . المواطن عضو في جماعة . لها مصالح مشتركة ، ولكنكم
تخضعون الجماعة ومصالحها لمصالحكم أنتم وتعملون منها مجرد رعية
لأوامركم أنا لم أشارك ولم يني وبينكم عهد كي أصونه . ثانياً سياسة

دولة ومصالحها التي تتحدث عنها ما هي إلا سياستكم أنتم ومصالحكم أنتم ، وهي تقود إلى الحرب وإلى الخراب مثلما ترى . وليس لكم أن تحضروا الناس لمصائب تجنون أنتم من ورائها المصالح .

- أليست مصلحة الجميع في ردع المعتدي ؟ في إقرار العدل ؟

- العدل كل لا يتجرأ . ولا يمكن أن تقيم العدل في دار وترك الظلم في بقية الديار سائداً . إن كان الموضوع موضوع عدل ، فلتبدأ بإقامة العدل في كل مكان وعلى قدم المساواة .

- ولكن لا بد من البدء في مكان ما .

- ولم هنا ؟ ولم هناك ؟

- هذه سياسة الدولة .

- تماماً مثلما تقول ، هذه سياسة ، وسياسة الدولة ليست حقاً أو عدلاً . وليست واجبة .

- ولكنك جندي في جيش هذه الدولة ، ولا تستطيع التحلل من واجبات الحندية .

- مكروه أخاك لا يطل ، ثم إنني لم أجد للدفاع عن ملكية آبار النفط .

- أنت تتدخل الآن في السياسة

- هي التي تتدخل في حياتي ، أنا لم أطلب أن أدخل الجيش ولا أن أرحل لحماية النفط .

ولكن ألا ترى أن الدفاع عن هذا الذي تسميه ملكية آبار النفط قد يكون دفاعاً عن الوطن ككل ؟

هذا دفاع عن وطنكم أنتم ، عن نفطكم أنتم ، عن سيارتكم وقصوركم وراحتكم . عن مناصبكم وسلطة نموذجكم ومضادكم ، ليس عن وطني ولا

راحة بالي ولا حرمة بيتي ولا قدسية كرامتي وحقي .

ولكن الوطن لا يتجزأ ، الوطن كل هذا .

- أنتم الذين جزأتموه .

أنت تدحل نفسك هكذا هي طريق مسدود .

- وهل أمامي طريق مفتوح وتركته ؟

- نعم أمامك . اسمعني يا بني ، نحن هنا جميعا إخوة . نحن لا نضمر

لك أي عداوة بل على العكس . هل تعتقد أنه من السهل على أن أفق هي

الميدان وأحاكم جندياً من جنودنا ؟ هل تعتقد أنه من السهل على أن أصدر

ضدك حكماً ؟ هل تعتقد أنه من السهل على أي منا أن ينفذ عليك هذا

الحكم ؟ طبعاً لا . أنت هنا بالصدفة . لقد جُندت مثل آلاف غيرك . ولكن

الصدفة شاءت أن تُورع أنت بالذات على هذه الكتيبة وأن تكون تلك الكتيبة

دون غيرها التي يتم انتقالها للتحرك إلى الظهران . لو كنت تأخرت في

الدراسة قليلاً ، لو كان اسمك يبدأ بحرف آخر ، لو كان عسكري آخر قد

جُند أو سُرح ، ما كنت أنت الآن هنا . وما كان الأمر قد صدر إليك ولكانت

حياتك قد سارت بشكل عادي جداً . هل توقف حياتك من أجل صدفة ؟

دعها تمر . فقط اعترف بأنك أخطأت . سنقول إن أعصابك كانت تعبانة

من طول الإقامة في الصحراء . وتنفذ الأمر . وينتهي كل شيء .

- أنت تريد مني أن أقتل نفسي بيدي لتوفر على نفسك وحز الصمير لو

حكمت بقتلي .

- من الذي طلب منك أن تقتل نفسك ؟ نفذ الأمر وكن على ثقة من

النصر . هل تظن أن العراقيين يستطيعون إصابتنا بخسائر ؟ نحن لسنا

وحدونا . ألا ترى كيف أن قوتنا جميعا ، نحن والعلماء ، لا نصارع ؟ هل

لديك شك في النصر ؟

- أنا لا أرى نصرا على الإطلاق ، لا هي كسب القتال ولا هي خسارته .
كله هزيمة .

إنك بذلك تحكم على نفسك بنفسك . ماذا ستحسر لو حاربت ؟

- إنسانيته واحترامي لنفسي .

- لكنك ستحسر حياتك كلها لو لم تحارب .

- على العكس ، سأخسرها لو حاربت معكم . لو مضيت معكم في هذا الفي

أموت . أموت هي نفس اللحظة التي أوافقك فيها ، حتى لو ظل جسدي يتنفس .

- ألا تنهم أن عصيانك هذا هو موت بلا فائدة ؟ هل تظن أنك ستمنعنا ؟

- لن أشتريكم معكم على الأقل .

- أنت بذلك تتعبر .

- بل أسترده حياتي منكم . وأطلق دمي في أعناقكم .

أنت لا تفهم . نحن على استعداد لفعل أي شيء ممكن لإيقاظك . أنت

لا تتصور صعوبة إصدار حكم بإعدام جندي .

- وأنت لا تتصور صعوبة تنفيذي أمرا يحولني إلى قاتل مأجور . أنت

تجد من الصعب قتل ، ولكنك تجد من السهل قتل الآلاف ممن لا تعرفهم .

- هذا أمر لا اختيار لي فيه .

ولكني أنا أستطيع الاختيار . وقد اخترت .

سمعني جيدا يا بني ، سأقول لك هذا الكلام للمرة الأخيرة ، فاسمعه

جيد ، وكرر فيه قبل أن تردد على إجاباتك العقيدة هذه . أنت شاب صغير ،

وأمامك الحياة بأكملها . الحياة عريضة وغنية . الحياة أعنى مما تظن

لحياة ليست سعادوش تأخذ أو تتركه . إنها بحر طويل وعريض مليء

بالمواقف وبالمواقف والاختيارات . هي البداية وأنت شاب يخيّل إليك عند كل موقف أن الحياة ستوقف هنا ، وأنه إما كذا أو الموت . لكنك عندما تمر من الموقف تكتشف أن ذلك كان شيئاً تافهاً ، كان مرحلة ، عتبة هي سلم طويل . ومع اجتيازك للمواقف بحلوها ومرها ، مع مرور الأوقات المصيبة والأوقات السعيدة ، تتسع روحك وأفقتك وتضم كل شيء وتعلم كم هي جميلة وعالية . الحياة هي كل شيء ، وأنت لا تملك حق التفريط فيها لأنها بلا رجعة ، ولا شيء يستحق أن تضحي بحياتك من أجله لأنها هي أغلى وأشمل من أي شيء . هذا هو النضج . وعندما تعرف أن هناك مواقف ينبغي أن تحني لها رأسك حتى تمر . كلنا يجب أن نحني رؤوسنا كي يمر هذا الوقت المصيب . وبمدها نرفع رؤوسنا مرة أخرى ونفكر فيما العمل .

هل تظن أنني سعيد بهذه الحرب ؟ هل تظن أن أحداً منا سعيد هنا ؟ هل تظن أن القيادة التي أرسلتنا جميعاً هنا سعيدة ؟ كلنا مضطرون . وكلنا نحني رؤوسنا للعصاة كي نعيش وننقذ ما يمكن إنقاذه . هل تعتقد أننا نريد قتال العراقيين ؟ بالطبع لا . نحن نقاتل ليس فقط العراقيين ولكن عشرات وعشرات من زملائنا السابقين ممن التحقوا بالجيش العراقي بعد تقاعدهم . نحن نعلم هذا . ولكننا جميعاً مضطرون . نحن نشق بأيدينا في لحمنا ، ولكنه الحل الوحيد والا ذهبنا كلنا . هذا المجنون المسمى صدام حسين هو الذي وضعتنا جميعاً أمام هذا الاختيار المستحيل . ماذا تنتظر منا أن نفعل ؟ هل تعلم ما معنى أن تقطع الماء من ناس في صحراء ؟ كأنك تضربهم بالرصاص . وهو يريد قطع الماء عن الأمريكان والغرب . النفط لهم كالماء لنا . هل تتصور أنهم سيسمحون له بالسيطرة على شريان حياتهم ؟ هل تعرف ما معنى الأمريكان والغرب ؟ هل تعرف ما هي قوتهم ؟ إن لديهم ما يكفي لتدمير الأرض بمن عليها وما

عليها عدة مرات . هل تظن إنهم ستركبون هذا المجنون بتحكم فيهم ؟
 مستحيل . سيضربونه سيضربونه . ونحن إما معهم أو ضدهم . لا يوجد
 حل وسط . لا يوجد رمادي . أنت معهم فتجرو معهم أو ضدهم فتفرق فيمن
 سيفرقون . ولا يوجد من يستطيع تحمل مسئولية إغراق شعب باكينة . هو
 مجنون يفرق شعبه إن أراد وشعبه يتركه يفعل ما يريد . لكننا لسنا مجانين ،
 ولا نستطيع أن نقف في مواجهة الإعصار . علينا أن نلجأ وأن نطلب
 أرضا إن لزم الأمر حتى يمر هذا الإعصار . هل تفهمني ؟

- نعم أفهمك . أنتم لا تستطيعون الوقوف في وجه الإعصار . لكني
 أنا أستطيع . ماذا أملك أنا كي أفقده ؟ لا شيء . ولا يوجد من يستطيع
 إيذائي ، لا أنتم ولا أمريكا ، لأنني لا أهتم . أنا لست تاضعا مثلما تقول
 ولكني على الأقل لست جباناً مثلكم . ولا ألتصق بذيل الحياة الدليلة التي
 تتعلقون بأطرافها ولا تقاتلونها أبداً . أنا لي مثلما تشاء حظي ، أنا حر ،
 حر . وأنا أستطيع أن أقول لا لأمريكا وأن أقول لا لكم . ماذا سناخذون
 مني ؟ حياتي ؟ حياتي التي سناخذونها ليست ملكي أساساً والا ما استطعتم
 التحكم فيها هكذا . لكنني في ذات اللحظة سأسترد منكم حياتي ، تلك التي
 أمتلكها وأستطيع السيطرة عليها ، حياتي أنا ، ملكي أنا . أسترد حريتي
 واحترامي لذاتي التي تحتلونها .

اليوم أقولها لكم عالية كالرماساة التي ستقتلونني بها اخرجوا ،
 اخرجوا من حياتي . اخرجوا مني ، ودعوني وحدي ، أموت في حريتي رجلاً ،
 كامل الإرادة والإنسانية ، لا يمل عليّ خطواني سوى سميري . أرى الحق
 حقاً وأتبعه والظلم ظلماً وأنظله . اذهبوا أنتم لسادتكم واتركوني سيداً على
 بقايا روحي . لعنة الله عليكم . أضدتم حياتي من الخارج . والآن تريدون

التسلل إلى داخلي لإسهاد ما بقي لي فيّ . والله لا يكون هذا أبداً . تركت لكم
الشوارع والمباني لتعسدها مثلما أردتم . ولكنكم لن تطولوا نقاء روعي ما
دعتم حيا .

صمت القائد القاصي . نظر إلى أوراقه وإلى سحابات العبار هي
الصعراء من حوله . ثم تمتم بصوت حميض :

- أهذه أهوالك الأخيرة ؟

- أنا رزق عهد الله . كنت راميا بالشرطة العسكرية آنذاك . وكنت
واحداً من الثلاثة الذين كفوا بتنفيذ حكم المحكمة وإطلاق الرصاص على
الجندي فخر الدين عيسى . نحن الثلاثة من أمهر الرماة في السلاح . لا
نخطئ البتة . وقد سبق لنا تنفيذ أحكام مشابهة . وجرت العادة على أن يتم
حشو طبنجاتنا نحن الثلاثة من قبل القائد . بضع طلقات حقيقية هي أحد
الطبنجات وهي الأخرتين «فشنلده» . ونطلق ثلاث مجموعات متتالية من
الطلقات . لا يمكن أن يفلت المحكوم عليه من الموت . ولكننا لم نكن نعرف
من الذي نفذ الحكم فعليا . المقصود من ذلك هو راحتنا النفسية . ولكننا
لم نكن نهتم في الواقع . الموضوع كان يتم بسرعة وكأننا نعمل تدريب رماية
بالإضافة لأننا لا نعرف عن المحكوم عليه سوى اسمه . وأحيانا حتى لا
نعرف اسمه .

- وما الذي حدث يوم إعدام فخر الدين ؟

الذي حدث بالضبط أن المحكوم عليه كان مربوطا أمامنا في أساري.
على بعد عشرة أمتار . وطبعا كان معصوب العينين . صدر لنا أمر التنفيذ
بعد تلاوة الحكم فرفعنا «الطبنجات» وشننا . صدر لنا أمر الصرب هي

مقتل فخر الدين
 نصر اللحظة التي وقعت فيها الصواريخ على القاعدة . ربما تذكر هذه
 المرة التي أصابت فيها صواريخ سكود العراقية الظهران . لقد أحدثت
 إصابات هادحة هي معسكر الأمريكان وفي القاعدة بتاعتنا . صدفة غريبة
 هذه كانت المرة الوحيدة التي أصابت فيها هذه الصواريخ العمياء أحدا .
 لما الصواريخ ضربت القاعدة أحدثت إصابات جامدة مثلما قلت لسعادتك
 وحدث ربنا لك شديد . أنا شخصا لم أطلق النار . ولا زميلي الذي كان على
 يميني الذي انبطح على الأرض مع بداية صوت الانفجار . ولكني أذكر أنني
 سمعت صوت إطلاق النار من زميلنا الثالث قبل صوت انفجار الصواريخ
 مباشرة . بعد ذلك حدث هرج ومرج شديدان وقتل جنود كثيرون والقاعدة
 دمر معظمها . وطبع لم يعرف أحد ما الذي كان يجري بالضبط . حتى
 الطينجات بتاعتنا فقدت وزميلنا الثالث مات في الحادث .

في اليوم التالي كانت الأمور بدأت تستقر قليلا وبدأت جهود الإنقاذ .
 ساعتها لم نجد فخر الدين ، أقصد جثته . وكان هناك حفرة كبيرة مكان
 الساري الذي كان مربوطا إليه وحولها أنقاض ضخمة وبقايا أحد الصواريخ ،
 طبعا لا أحد يعرف ماذا حدث بالضبط ، ربما دفن تحت الأنقاض . لا أحد يعلم .

- ولكن الرصاصات التي أطلقها زميلك الثالث ألم تقتله ؟

- لا أحد يعلم أين كانت الطلقات الحقيقية . ربما قتله رصاصات زميلي
 الثالث ، ربما قتله الصواريخ ، ربما مات تحت الأنقاض ، ربما لم يقتل ، لا أعرف .

* * *

لا يد سعادة تلك ربنا لا يرضى بالظلم أبدا . وما حدث لصخر الدين
 ونكل العماد كركا ظلمنا .

اقتراب مني خليل وهو جالس على فراشه . كان المرائش المعصني يثر .

وكان لجوحارا خانقا داخل الفرفة الصباح .

عندما اقتادوا فخر الدين لساحة التنفيذ ، كنا كنا نكاد نموت داخل
الحيام والعنابر . وراح جماعة من الصاكر تكلم القائد وتستسمعه . لكنه
قال إن الحكم صدر وصدق عليه قائد القوات . أشرف فهم راح قابل
فخر الدين بتصريح من القائد وحاول إقناعه بتقديم التماس بالعفو عنه ،
لكنه عاد وهو يبكي . كنا كنا قاعدين في المنابر مثل التائهين . لم يكن
نصدق ما يجري من حولنا . وعندما سمعنا صوت الرصاص انفجرتنا في
البكاء . لكن الانفجار الأقوى تلي . وتتابعت الانفجارات . وصار النهار
ليلاً وليل نهاراً ، وخلصنا القيامة قامت من اهتزاز الأرض تحتنا وسقوط
أسقف المنابر فوقنا . هذا غضب الله . وجرى من استطاع الجري منا وسط
الحجارة المتساقطة من كل صوب . وكانت بيوت الضباط تنهار وأصوات
سهارات الإسعاف تأتي من معسكر الأمريكان . جريت ناحية ساحة التنفيذ
فشاهدت فخر الدين مقبداً في الساري وعيناه معصوبتان . كان الضرب
مستمراً والسماء تمطرنا بقذائف وطلوب . وتزلزلت الأرض بنا وشاهدت
بعمني فخر الدين يملو أمامي في الهواء وحوله صوء مسلط . ظل يملو ويملو
حتى اختفى من أمام عميني وشعرت بحبطة قوية على رأسي . وعندما أفتت
وجدت نفسي في المستشفى الملكي العسكري .

الجمعة الحزينة

رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة
على دمة يائسة
أعادت له قلبه
وقالت ،
يكلفني الحب ما لا أحب
يكلفني حبه
ونام القمر على
خاتم ينكسر
وطار الحمام
وحط على الجسر والعاشقين الظلام ...
يطير الحمام
يطير الحمام

محمود درويش

احتاجت عضلات وجهه فخر لدين وحرك ذراعيه في الهواء وهو يحاول أن يجد الكلمة المناسبة . كان يحس أن يجرح إحساسها بكلمة لا يقصد معناها ، وكان هذا الجرح يمنعه من الانطلاق في الحديث كعادته .

أنا أحتاجك يا شيرين بالقرب مني ، لا أستطيع الاستغناء عن وجودك سميه نوعاً من الارتياح الشديد ، نوعاً من الصراحة والوضوح و الشعور ، إنك أنت نفسك ، إحساس العثور على روح يمكن أن تهتم ، وتهتم بك .

هل تفهميني ؟

خففت شيرين عليها وهي تهرب من سهام عينيه المتسائلة في صراحة . ما هذا ، الكائن الغريب ! يتصل بي في منتصف الليل ويوقظ البيت كله لكي يقول لي إنه يريد لقائي لأمر عاجل !

- ألا يمكنك الانتظار إلى يوم السبت وتناوب في المحكمة ؟

- في المحكمة أقول لك أمر عاجل . لو كان عليّ كنت جئت إليك الآن في بيتكم

- لا لا ، لا داعي للتهور يا صديقي ، أراك غداً في الثانية بعد الظهر .

منذ ساعة وهو يتكلم ولا يقول شيئاً . يتكلم عن المواظب وعن العلاقات الإنسانية والحب ، ولا يقول شيئاً محدداً . هل الارتباط يمثل هذا الرجل ممكن ؟ هل أحبه ؟ هل يريد الزواج مني ؟ ولكنه لم يقل لي ذلك أبداً هل يمكن الارتباط به مع كل جنونه هذا ؟ لا أدري . لكنه لم يحدثني من الأصل ، هناك أشياء كثيرة تشدني إليه وأحياناً أشعر أنني لا يمكنني الاستغناء عنه ، وأحياناً أخرى أخاف منه ومن حديثه وأشعر أنه من عالم آخر . لماذا لا يحاول أن يكون أكثر تعقلاً ؟

- هل تسمعيني يا شيرين ؟

أه أم . طيفاً أسمعك

- يبدو من شكك أنك لست معي إطلاقاً .

- يا سيدي قلت لك مائة مرة إنني أسرح بعيني فقط . لكن دعني كله

مركز معك . أكمل أكمل .

- ما رأيك أولاً فيما قلته ؟

هزت شيرين كتفيها وتحولت بعينيها إلى برج شيرتون الجزيرة القابع

في قلب النيل .

- ماذا تريدني أن أقول ؟

أريك أن تقولني رأيك فيما قلت لك

تتمتع شيرين هي صيق

لماذا لا تكمل حديثنا ونحن في الطريق ؟

عبر بحر الدين وشيرين أسفلت شارع الكورنيش الضيق . مرا في صمت

أمام مطعم سويس إيزر .

تعرف ! أحتي لها صديقة ساكنة في هذه العمارة .

- تحبني ! لا بد أنها لا تخرج من الشقة أبداً . على الأقل ليست في حاجة

إلى الخروج لمشي على النيل . يكفيها الجلوس في شرفة البيت لتري النيل

كله تحت قدميها .

- فعلاً المنظر من الشرفة جميل . لكن الشقة نفسها تجلن . و سعة

جداً وأنيقة جداً .

- هناك من الشقة هل تعرفين ما معنى شرفة على النيل ؟

- طبعاً . ولكنك لن تقضي ليلة نهار في الشرفة !

صمتت قليلاً وسارا . همس هجرالدين :

- نرجع إلى موضوعنا ، ما رأيك هي كلامي ؟ هل تهمين يا شيرين أنا فعلاً هي حاجة لأن أراك دائماً ، لأن أتحدث إليك دائماً ، أشكو إليك وأخرج منك وأحلم معك . كأنك فتحت باب روحي إليك فسات ولا تتجمع ، لا بين يديك . لم أعد أستطيع ألا أراك إلا وأنا على موعد لأراك . أستجمع كل ما يحدث لي كي أحكيه لك عندما أراك ، وأحتمل كل ما ألقني كي أتلك وأضعه بين عينيك . هل تهميني ؟

أحمر وجه شيرين . وقتت والتفتت للطريق

- لا بد من أن أغير . شارع وحدي .

شارع مراد خاص بالسيارات التي تقطع بهار الجمعة هي ، شوارع وتسرع قبل بداية المباراة . عبرت شيرين الطريق وحدها يتبعها على مسافة قصيرة فخر الدين لم يفلح ، صرار فخر الدين خلال الشهور الثمانية الماضية هي إقناعها بأن يعبر الطريق مع .

لا محل للنقاش ، هذا طريق الذهاب والإياب من بيتنا . ولن أتحمل أن يراني أحد معك في الشارع .

عند تمثال نهضة مصر ، لتقيا ثانية :

- فخر الدين ، أنا فعلاً تأخرت ولا بد من أعود حالاً للبيت .

- وكلامنا ؟

- نكمله فيما بعد . أنت تعرف الظروف . فعلاً يجب أن أعود الآن . سلام .

نظر إليها فخر الدين وغمق لون وجهه ولم يجب . ابتسمت شيرين :

- لا ، أرجوك لا تودعني بهذا توجه . ابتسم يا رجل ! سأحاول أن أبقى

معك هذا . بعد المحكمة . ابتسم من أحلي .

- كيف أنتسم إن شاء الله وأنت تذهبين دون أن تكمل حديثنا ؟

سماع يا فخر الدين ، من أجل شهرين . لا أستطيع أن أذهب وأنت
مكثرت هكذا ويجب أن أذهب .

اجتهد فخر الدين في استحضار شبه ابتسامة على شفثيه فالتفتتها
شهرين والتفتت بسرعة لشارع . أوقفت بإشارة وانحناء وء مهتدين ؟
أحد التاكسيات . التفتت إليه وابتمت ونوحت بأصابع كف يدها . انطلق
بذ السيارة عليها وهر بها محلماً عاموذاً من دخن أبيض . تابع فخر الدين
رأس شهرين وكنتيه من الرجاج الخلفي للسيارة حتى اختفت عند نهاية
الطريق أمام الجامعة . عاد بضع خطوات تلوزاء حيث الموقف . ووقف
ينتظر الأتوبيس

« يطير الحمام

يحمل الحمام

أهدى لي الأرض كي أستريح

هأنني أحبك حتى العنب ...

صباحك فأكهة للأغاني

وهذا المساء ذهب

ونحن لنا حين يدخر ظل إلى ظله في الرخام

وأشبه نفسي حين أعلق نفسي

على علق لا يمانق غير الغمام

وأنت الهواء الذي يتمرى أمامي كدمع العنب

وأنت بدية عذلة ، لموج حين تشبث بالبر

حين عترب

وإني أحبك . أنت بداية روحي وأنت الحتام

يطير الحمام

يحط الحمام ،

محمود درويش

« من أوراق فخر الدين »

قالت لي منار هي شرود :

- كنت شيرين لمأحة الفهم وذكية . ذكية القلب والنفس منتعشة الروح
متمتحة . كانت كعائلة رائحة بها شقاوة وحلاوة وخفة دم . وكانت كأم مطمئنة
بها حنان وسماحة وغفران لا نهائي . كانت كمراقة في مدرسة بها تواطؤ
مع زميلاتها . كانت نقية بريئة كراهبة . وجد فيها فخر الدين أرضاً مباركة
يستطيع أن يحمل فيها في أمان وأن يريح فوقها جناحيه المنهكين من التعب
ومن الطيران بلا جدوى . واستطاع فخر الدين أن يهدأ عندها . وأن يخرج
رأسه من ريش كتفيه وصدره . وأن يرفع منقاره الذي كان قد سبه . وأن
يرى الزرع الغابت في أرضها ينمو شجراً وبحيلاً ووردة . . . استطاع الطير
أن يبدأ . كانت شيرين حبيبته . استطاع حناها أن يجد المنفذ للخروج
واحتواء هذا القادم من السماء . استطاعت رجسها ووضعتها أن تجد
الحناحين الحماقين اللذين يعلآن سماءها ويظللان أرضها . استطاعت
أن تجد الطفل الصغير الذي تسند به إلى ركبته ليحكى لها آخر النهار عن
شحنه وعن أمه وعن حلمه . واستطاع حبلها المشئت الصال أن يجد شكله
وحدوده وأن يتماسك ويتهدى . وعبر أيام وشهور حيهما بدا الزمن وكأنه قد

بذل سرعته وتباعدت ذكريات ماضية وكأنها كانت تخص أساساً آخر هي
عوالم أخرى . وهيئ لمحر الدين أن الأرض قد استعنت أحياناً ليهبط ويحيا
فيها وستطاع لقلب أن يهدي لنا هذه نعيته الأكيدة . ها هي تناديني
هستعدي يا نفس . ودثريني يا زوجة القلب كي لا أنطق مرة أخرى . كي
أمرعي موقعتي الأخيرة هي حربي الأخيرة . وميليني بدثر من حنان قلبك
وشتمالك محيئاً وامتلاكك أطراف روحي لتي بعثها لثراب والأعداء .
دثريني وشدي قوس روحي باكتمالنا . إني أت إليك يا أرضي علفي أجد
لحياة فيك أحياناً فحذيني إليك . وكان حجر الدين سيد قلبها وفائد حلمها
ونبع أطمئنانها .

صمتت منار ونظرت إلي . كان وجهها صافياً وشفافاً . أشاحت بوجهها
إلى النافذة . نظرت إليها . كانت عنهاها معروفتين بالدمع .

« أنا وحببي صوتان في شفة واحدة
أنا وحببي أب . وحببي لنجمته الشاردة
وندخل في الحلم . لكنه يتباطأ كحلا نراء
وحين ينام حببي أصبحونكي أحرس الحلم مما بره
وأطرد عنه الليالي التي عبرت قبل أن ستقي
وأختار أيامي بيدي
كما أختار لي ورد المائدة
هلم يا حببي
ليصعد صوت البحار إلي وكبتي
ونعم يا حببي

لأهبط عليك وأنت قد حللك من شوكة حاسدة

وسم يا حبيبي

عليك ضغائر شعري ، عليك السلام

يظهر الحمام

بحمل الحمام

« محمود درويش »

« قصيدة من خطاب

من شيرين إلى فخر الدين »

كانت محكمة الجيزة الابتدائية غاصة بالجمهور . الجو بارد بالخارج .
أصحاب القضايا ينتظرون دورهم عند الباب الخشبي الضخم الذي ينصل
القاعة عن الصالة الخارجية . حلقات من المتحاضرين حول محاميهم
وأوراق مكدسة هي الملفات تحت إبط الوكلاء . مر فخر الدين إلى غرفة
المحامين بصعوبة وسط الزحام . أشار له علاء المعامي برأسه فأجاب
الإشارة ومضى داخل الغرفة . كانت شيرين جالسة أمام المنضدة الطويلة
المغطاة بالجوخ الأخضر وواضحة أوراقها أمامها . بدت حصلة شعرها من
فوق الثوب الأسود الضخم . وضت رأسها فرأت فخر الدين . برقت عينها
ونبسخت ملامح وجهها . قالت له هي تهكم :

- خير ؟ كسبت ؟

الحمد لله .

وطبقاً كالمعتاد !

« يتم فخر الدين في تهكم هو الآخر .

صفاً

- أمرك عريب جداً .

ولم ؟

لأنك تستطيع بإشارة منك أن تتضم للمكتب الذي أعمل فيه وتكسب عشرة أصفاف ما تقاضاه الآن . هذا إن كنت تقاضى شيئاً أصلاً .

ضحك فخر الدين :

- معك حق هي هذه النقطة فقط . فهذه قضية مجانية . حتى مصاريف القضية ثم تستطع السيدة المسكينة أن تجمعها كلها .

- وطبعاً حضرتك دفعتها ؟

اعتدت شيرين هي جلستها ونظرت لفخر الدين :

- اسمع ، أنا ألكمك بجد . أنا لست ضد أن تأخذ قضايا مجانية من حين

آخر ، لكن مستحيل أن تكون هذه هي القاعدة !

- وما العمل إذا كان المظلومون عادة لا يملكون مالاً ليدفعوه لي ؟

- أولاً ، لا يوجد أحد لا يستطيع تدبير المال اللازم للدفاع عن حقه . أكيد

هؤلاء الناس يأكلون ويشربون ومن ثم يمكنهم توفير المال عند الضرورة .

ثانياً ، أنا لا أطلب منك ألا تأخذ هذه القضايا على وجه الإطلاق وإنما على

الأقل يجب أن تضمن لنفسك . ولنا إن شئت ، جداً أدنى . والا كيف نعيش ؟

نعيش مثلما نعيش الآن هل ترى أنني ميت لا سمح الله ؟

- أنا لا أهدر يا فخر الدين . نحن نحتاج لمال . ليس من المفروض أن

أقول لك أنا هذا الكلام . ولكن إذا كنا نتوي البقاء معاً بشكل أو بآخر فذلك

يعني كمية لا بأس بها من المال . بعد ذلك ، عندما نصبح معاً يمكنك أن

تعمل ما تشاء . ولكن الآن يجب ، أن توفر هذه الكمية . وبالطريقة التي تعمل

بها لا يبدو أننا سنتمكن من ذلك أبداً . الممرض أن تكون أكثر حرصاً
 مني على ذلك ، هذا إذا كنت تريدني معك طوال الوقت مثلما تقول . أنا لا
 أطلب منك أن تتحول إلى مصاص للدماء أو أن تتخلى عن قضيتك أو عن
 المظلومين . ولكن أطلب منك بعض التعقل ، وبعض الواقعية . يمكنك أن
 تجمع بين الأمرين . يمكنك أن تعمل في مكان مثل مكتبنا تحصل منه على
 دخل كبير وهي نفس الوقت تستمر في قبول مثل هذه القضايا شبه المجانية .
 بل إنك ستصبح أقوى وأقدر على خدمة المظلومين عندما تكون ظروفك
 أحسن . على الأقل أعمل ذلك لفترة معينة تثبت فيها مكانتك وشهرتك
 كمحام وتحصل على دخل يمكنك من الاعتماد على نفسك وفتح منزلك
 ومكتبك الخاص وبذلك تكون متوازناً أكثر وعنصرًا فاعلاً في الحياة بثقة
 وقوة وليس كالغريق الذي يحاول النجاة وانتاز الآخرين في نفس الوقت .

شهرين لحظة ونشرت إلى فخر الدين الذي كان ساهماً :

- عن ذلك . يجب أن أذهب الآن للبيت .

أرائد ، فأنجو من الموت

جسمك مرفأ

بعشر زنايق بيضاء ، صبر أنامل تمضي السماء

إلى أزرق ضاع منها

وأمسك هذا البهاء الرخامي . أمسك رائحة التحليل المحبأ

هي حوحتين على مرمز ، ثم أعبد من يفتح الير والبحر ملجأ

على صمة الملح والعسل الأوليين

صأشرب خروب إليك

ثم أنام

على حصة تكسر الحقل ، تكسر حتى الشهباء فيصداً

أرائك فتنجو من الموت . جسمك مرهاً

فكيف تشردني الأرض في الأرض

كيف ينام لنام

يطير الحمام

يحط الحمام ،

محمود درويش

، من أوراق فخر الدين ،

* * *

النيل يحري في هدوئه الليلي . يرتطم الماء بالعائط الحجري يحدث صوتاً خفيفاً كالحرير . شارع أبو الفدا عارق في ظلام أضواء سيارات متباعدة تمرق على أشجار الرصيف وأزواج العشاق المتشائرين على السور الحديدية المشبع بالليل وبالنهر . عينا فخر الدين مرّت من الشجر إلى الشجر إلى الجبين إلى هذين مشعبين يسحبانه إلى قاع النهر . تمرق نظرتيه في هذا البحر المتلاطم التحنان ويستمر في الهبوط إلى عمق لا نهائي الميون . تتسع العينان وتطبقان في خفر على نظرتيه فلا يرى سوى حديقتين عسليتين تعمرانه بحرارة هادئة ودفاء . ترتعش نظرتيه وتفرق أكثر وأكثر . صمت شامل وظباب . لا أحد يجسر أن يخرج من هذا الأسر العاشق العنمشق . لمست أصابعه أطراف أناملها هارتمد جسمه كله بتأثر من الأخذ . فتربت أصابعه أكثر من حواف أصابعها والتصقت . تداخلت أصابعه في أصابعها التي ينساب من بينها أنهار من عطش الماء . اجتاحت

أصابعه أناملها وانهمرت مطرا هي راحة يدها المشتعلة بالحنو الذي عمر
كفيه العذقتين المستسلمتين في حب مومن يفيض على الكثرين العتاديين
ويقطر من عمق عينيهما العطر إلى انهار عينيه فيهما ارتواء .

- يا أيتها المقدسة حين يفتح النهار يومي ، تشق الشمس صدري
وتخرج قلبي وضوئي ، وتتركني أمضي في الدنيا معرج الصدر . أحتاج
ملاك لي . أحتاج أن أصعبك فأملأ هذا الفراغ في وأعود للحياة .
- لا أستطيع .

- يا معبودة القلب الصغير الصغيرة ، هل يضيع الإله لشرعه الذي
من تعبدته؟

- لا تراوغ الكلمات . لا أستطيع .

- يا واحتي الخضراء ، لا تتركيني أموت على جوافك في صحرائي
القاحلة . أرشدني إلى دربك وضميني إلى نعليك وعيون مالك .
- لا أستطيع .

- يا وطني ، سقني تضالة منذ الخليقة تبحث عن مرافقك ، لا تردني
عنك ، أريد الرسو إليك أريد الرسو .
- لا أستطيع .

- هل تتركيني إذن أدوب عشقا وأنحل شوفا وأذوي سدي؟

- ألا ثمهم أنت أني لا أستطيع ؟ أرضي التي شقق العطر طينها نعلم
بمالك بروبيها ويغمرها ، بخمقة جناحك هي سمائها ، تحتويها ، بحماتك عبيها
وانضمامك . أما الواحة التي تفجرت عيونها هواكها تشقاق لعطشك وجفاف
بدك وهي نحسدها أن التي تموت حصرتها لصحرائك . ولكني لا أستطيع .

* * *

إلى أين تأخذني يا حبيبي من والدي

ومن شجري

من سريري الصغير ومن شجري .

من مرباي من قمري .

من خزانة عمري ومن سهري .

من ثيابي ومن خطري ؟

إلى أين تأخذني يا حبيبي إلى أين ؟

تشمس في أذني البراري ، تحسني موجتين

وتكسر صلعين ، تشربني ثم توقدني ،

ثم تتركني في طريق الهواء إليك

حرام ... حرام

يطهر الحمام

يخط الحمام

محمود درويش

«من رسائل شيرين التي

عُثِرَتْ عليها في أوراق فخر الدين»

* * *

صعد فخر الدين السلالم الرخامية الواسعة ، طراوة وبرودة خفيفة

تبعث في العمارة كلها ، أبواب الأسمر بمعالمه البيضاء يلاحظه بنظراته.

الدور ثالثة وقف المصعد ، دفع فخر الدين الباب الحديدي . لتعيق

وتقدم إلى شقة 9 ، تحضن اللافتة النحاسية الصغيرة المعلقة على الباب.

المهندس حسن محمود . تاهت أفكار فخر الدين فجأة كأنما انمحت . تلك

المصعد تكة عالية هي الصمت ثم بدأ هبوطه . حلق فخر الدين في اللافتة مرة أخرى وبلغ ريقه . مد يدا متردده إلى زر الجرس . لمسه فانبعث على الفور لحن من رفرقة المصافير المزيفة . قلبه ينفوس ويكاد يختفي . انفتح الباب وظهرت فتاة مشعة الشعر رثة الثياب . بقمة كبيرة من الابل على بطن فستانها ويداها التحيلتان بهما آثار صابون .

- المهندس حسن محمود موجود ؟

أومات الفتاة برأسها .

- من فضلك أبلغه أن فخر الدين عيسى يريد مقابلته .

تركته الفتاة واقفا وغابت قليلا . الشقة تبدو مظلمة من الخارج . خشب بني يكسو الجدران وزاوية بيانو أبيض تبدو في الداخل . انسحب الباب بالتدريج حتى انطلق في وجه فخر الدين . ظل واقفا لحظة في ظلام الردهة ثم انفتح الباب مرة أخرى .

- تفضل .

دخل فخر الدين . تركته الفتاة في الصالة ودخلت . ظل واقفا لحظة في الصالة ثم دخل إلى الصالون المواجه . الصالون مذهب المقاعد واللوحات وصور أفراد العائلة . صورة لشيرين وهي في المدرسة الثانوية . ساحرة مثلما هي . مكتبة خشبية ملأى بالتحف الصغيرة . وقع خطوات في الردهة . ظهر المهندس حسن محمود بطلعته المهيبة في روب قائم اللون . لا شبه في ملامحه من شيرين . مد المهندس حسن يده الكبيرة لقهر الدين وشد على يده . شعرات بيض نابتة في ظهر يده . جلس الرجلان في صمت ثم انفتح المهندس حسن الكلام .

أهلا وسهلا . لقد كلمتني شيرين عنك . الحقيقة أنني أفضّل أن يدخل

هي الموضوع مباشرة . تقبل . أنا أسمعك .

كح فخر الدين كي يملك زوره ولكنه لم يملك . بدأ الكلام هجاء صوته غريبا ومبهوحا :

- في الواقع ، وببساطة ، أني طلبت مقابلتك لأطلب منك يد الأنسة شيرين .

تعلقت عينا الرجل بفخر الدين الذي استنرد دون أن ينظر إليه .

- أنا مثلما تعلم حضرتك ولا بد ، زملها بالمكتب وتعرفت عليها من خلال العمل وأعجبت بشخصيتها ، ولما تيقنت أنها الإنسامة التي يمكن أن تشاركني حياتي ، جئت لأقابلك لأطلب يدها .

- جميلة هذا الكلام قالت لي شيرين . لكني أريد أن أسمع منك تفاصيل

ابتنسم فخر الدين ابتسامة شاحية وهز كتفيه :

أكيد سعادتك تعلم أني محلم . هي أول حياتي . من عائلة ريفية ، ولدي ووالدي توفيا وأنا صغير . بقية العائلة تعيش في الريف لكن علاقتنا للأسف منقطعة منذ مدة طويلة .

صمت فخر الدين هذبة ونظر إلى المهندس حسن . أكمل

- أنا أحب شيرين جدا وأحترمها ، وأحترم شخصيتها ...

صمت فخر الدين . نظر المهندس حسن إليه نظرة فاحصة . قلب

حاجبيه قليلا . مرت لحظة صمت قطعها متساؤلا :

- ماذا عن وضعك المالي ؟

- عادي . مثل أي شاب يبدأ حياته . أعتقد أننا سنواجه بعض المصاعب

المالية في البداية ، لكني أعتقد أن هذه مسألة ثانوية .

- بمعنى ؟

- بمعنى أن نمط الحياة الذي أريده للنفسي ولشيري ينحتل فيه المال أهمية ثانوية. المهم فيه هو الرضا عن النفس . عما تفعل وعن حياتنا ككل بالإضافة إلى أن المشاكل المالية ستقع علينا نحن الاثنين ومن ثم ستوحدا ولا تفرق بيننا . عكس المشاكل التي تنشأ من اختلاف الشخصيات والتي تكون بين الزوج والزوجة كنهما .

ابتسم المهندس حسن لأول مرة ابتسامة قصيرة ثم أوما برأسه مجيباً:

- كلام جميل واضح أن لك مستقبلاً في المحاماة . لكني أسألك عن وضعك المالي . عن مركزك الاجتماعي . عن وضع عائلتك مثلاً . أين هم ؟ ماذا يفعلون بالضبط في بلدكم ؟ هل سيأتون ليضعوا يدهم في يدي أم ما هو الوضع بالضبط ؟ هل عندك شقة أم لا ؟ ما هو دخلك بالضبط وهل سيمكثك من فتح بيت وتعمل مسئولية زوجة وأولاد ... إلى آخره . فهمتني ؟ - نعم فاهم قصدك . لكني لا أفهم علاقة هذه الأسئلة بطلبي .

مال المهندس حسن على فخر الدين برأسه ودقق النظر في وجهه وهو يهز رأسه غير فاهم :

- لا تفهم علاقة ماذا بماذا ؟

عاد بظهره للوراء واستند إلى مقعده الضميح . استطرد في تكلم
- حضرتك ناوي تتزوج في شقة أم في الشارع ؟ أعتقد أن هذا سؤال له علاقة مباشرة بطلبك!

- الواقع أنني أمكن حالياً في شقة صغيرة في بين السرايات
- بين السرايات؟

نعم .

- حضرتك جاي تهرج؟

ضاهت ملامح فخر الدين :

- أنا لا أرى أي تهرج في الموضوع .

قام الرجل من على مقعده وخطا خطوتين نحو باب الغرفة ، استد روهو

يدق الأرض بقدمه برتابة :

- حضرتك لا ترى أي تهرج في الموضوع شيء جميل جد . إذن أنت

قدم من الشارع لتطلب مصاهرتي ، بلا عائلة ولا أهل أي بالضبط من

الشارع . وطعما لا تحتكم على ملهم أحمر لأنك شاب تبدأ حياتك . وستأخذ

ابنتي لتمش معك في حشة في حوازي بين السرايات ، أما المال فليس نعط

حياتك ولا من اهتماماتك . ومتوقع أعطيك انفتي؟

أطرق فخر الدين لحظة ثم رجع رأسه :

- أنا لا أتوقع أن تعطيني أي شيء .

- لا أنهم؟

- أي أنني تمرقت على شهرين وأعجبت بها وأريد أن أكمل حياتي معها .

وبظنرا لأن كنتاليد تقتضي موافقتك فقد جئت لأحاول الحصول عليها .

لكن من الواضح أنك حددت موقفك من قبل أن تراني وفقا لمؤشرات المال

والمركز الاجتماعي . ولكن الحقيقة أن شهرين ليست فاصرا ولا ولاية لك

عليها . وموافقتها هي الفاصلة لا رأيك أنت .

صعد الرجل على فكيه بشدة واحمرت وجنتاه . فبض بيده على زاوية

الكرسي وأخذ نفسا عميقا :

- طيبة أنا غير موافق . والآن تفضل اطلع برء .

* * *

- لا بد أنك جنتك

سمعتني يا شيرين ، فقط توقفي عن الانصياع لأحكامك المسبقة وكلميني مثلاً أكلمك . أنت أحبك . وأنت؟

- أحبك .

- وأنا أريد أن أعيش معك بقية حياتي . وأنت؟

- أريد أن أعيش معك بقية حياتي .

- إذن ما دخل أهلك في الموضوع؟ أنت الآن عمرك 24 عاماً . أي لست

فاحصراً منذ ثلاث سنوات . وأنت محامية ولست جاهلة ولا في احتياج للميرك . لا نحتاج مساعدة أهلك في شيء .

- هذا كلام نظري يا فخر . نحن لا نعيش وحدنا في الدنيا . ماذا تظن

أني سأفعل؟ أهرب من البيت في الفجر وأتي إليك؟

- لا ، لا أريد منك ذلك ، لكنني أريد أن أقول للسيد والدك إنك قابلت

الرجل الذي سترتبطين به . ثم نتقابل أنا وهو للتعارف لا أكثر .

- أي هيلم هذا؟

- وما الفيلم هي ذلك؟

- الفيلم أنني لا أستطيع يا فخر الدين .

- يا شيرين أفهميني . لا أبوك ولا أي أحد آخر ممكن يعرفني أكثر منك

أن أطلبه أو يستطيع التحكم على أهضل منك . إذن لا معنى لأن أطلب الزواج

منك من شخص آخر . ثم إن ذلك أسلوب غير محترم أن أذهب لشخص لا

أعرفه لأطلب منه أن يعطيني ابنته كأنها جوال بطارية

- لا بد أنك فعلاً جنتك نحن نعيش في مجتمع يا حبيبتي . وهذا المجتمع

له قوانينه وله تقاليده المفروضة على أعضائه سواء أعجبهم أم لا . إذا

كنت تعيش وحدك ممكن تعمل ما يحلو لك ، لو كنا نعيش في بيتنا كنا فعلنا دخله ما يحولنا ، لكن لكي نحصل على هذا البيت لا بد من أن نمر من اللق . لا بد من أن نطعن لقوانين المجتمع .

- أنت تعلمين جيدا أن هذا غير صحيح . وعملنا ما الذي يمنعنا من أن نذهب الآن للمادين ونكتب كتابنا ؟

- الذي يمنعنا أني لا أستطيع

- إذن ، مسألة ليست مجتمع ولا قوانين وإنما مسألة أنك أنت لا تستطيعين تحدي سلطة أبيك بالرغم من علمك بمساوئها عليك .

- ربما ، ولكني لا أستطيع .

صمت فخر الدين وأطرق مائلا إلى الأرض . مستطيلات البلاط لرمادي تمتد بلا نهاية على الرصيف . عاد صجرج السيارات مرة أخرى إلى وعيه بعد أن كان مختفيا . كوبري القصر العيني بنوء سياراته المندفعة إلى الميزيل . شاب قصير القامة في كابينة التليمون أمام مستشفى القصر العيني يتحدث هي التليمون وهو مستند إلى جدار لكابينة الأزرق . وقتت أمامه ثلاث نسوة متشحات بمواد ومسكات بورقة بيضاء صغيرة ينتظرن خروجه من الكابينة .

- اسمعيني يا شيرين .

عاد فخر الدين بوجهه لشيرين التي تبيت عضلات وجهها على تعبير من تضيق .

- حتى لو وقتتك على الذهاب لمقابلة أبيك وطلب يدك منه . من الناحية العملية ولديك لن يفهمني ولن يقبلني . سوف يوجه إلى الأسرة التي يوجهها كل أب إلى عريس ابنته . وأنا ليس لدي إجابات على هذه

الأسئلة يا شيرين . ماذا أقول له ؟ هل من الممكن أن يفهم أحلامك وآلامك ؟ خصوصيتك وحساسيتك؟ الدنيا جديدة التي تريد بناءها بنا وحولنا ؟ هل من الممكن أن يفهم والدك هذا الكلام أو حتى يرى له أي قيمة ؟ أنا لست صريحا يا شيرين ، أنا حبيب وقلب وحلم وثورة وبكرة لك ولي . كيف تترجمين ذلك إلى لغة مفهومة لأهلك ؟

ثم إن أبائك هذا هو نصف مشاكل حياتك والذي تشكين دائما من تسلطه ومن عدم تفهمه لك . ماذا تريد مني أن أقول له ؟ عن إندك يا هندم سأحرر ابتك من تسلطك ؟

يا فخر الدين . يا حبيبي . أنا معك هي كل ما قلته . لكن يجب أن يكون وقعيين . يجب أن تفهم أنني لا أستطيع بمسب أن أفعل شيئا من قبيل ما تطلبه مني . ممكن أنفق معك نظريا على أنه كلام منطقي . لكن لا أستطيع . هل تفهم ؟ لا أستطيع تحمل الشعور بأي أخطأ . أو حتى أن بدا ينظر إلي على أنني محبطة . لا أستطيع تحمل نظراته هذه ولا أستطيع تحمل الشعور بالذنب حتى لو أكن مدبرة . قل إنها ريادة أدب ، سمها حساسية رثية . أو حتى تخففا . لكن أنا هكذا . ولورتي تبدأ عندما يكون هي بيت واحد . أو معك وليس قبل ذلك . ثم ماذا ستحسر يا أخي لو قابلته وأرحنتي ؟ ألا تستطيع أن تفهم شيئا أنت غير مقتنع بصوابه من أجلي ؟

* * *

وضعت منار حقيبتها أمامها على المنضدة . مالت على كوب الليمون المثلج ورشفت منه رشفة وهي تنظر في الأفق . كان يادي لشمس مشمس في عصر ذلك اليوم من سبتمبر والجو منممش . لكنها كانت حزينة ومضطربة الجبين . نظرت هي عيني فلاحظت لأول مرة اتساع عينيها وجمالها .

اجتهدت في الابتسام وقالت :

- لا أدري ماذا أقول لك . الموضوع كان أكبر من الخلاف حول طريقة لزواج أو حول شكلها . فقد استمرت علاقتهما بعد ذلك بشكل عادي وقررا تأجيل مشروع الزواج لحين . وكان المهندس حسن يعلم ضمناً أن شيرين لم تقطع علاقتها بفخر الدين . ولكنه كان يحاول بطرقه الخاصة أن يقضي على هذه العلاقة وهي هدوء . وقد نجح طبعاً عندما تعلم حضرتك . ولكن الفضل في ذلك لا يرجع إلى جهوده بقدر ما يرجع إلى شيرين وفخر الدين نفسيهما .

تهبت منار قليلاً ونظرت إلى الناحية الأخرى . كانت الشمس تقترب من الغروب وتصبغ الحوكة بحمرة . عادت بوجهها إلي وأكملت :

- الموضوع كان أكبر من ذلك وأعمق . كان اختلافاً حقيقياً . وللأسف لم يكن هناك حل ممكن .

* * *

احتازت شيرين بوابة نادي الصيد وتطلعت حولها . كان فخر الدين واقفاً على ناصية الشارع المقابل . اقتربت منه وتبادلا سلاماً مقتضباً . توجهها في صمت باتجاه ميدان الدقي . سارا صامتتين . طويلاً . حتى الميدان . أكملتا سيرهما في شارع التحرير . الخامسة عصراً والحركة هادئة عند ميدان الجلاء . البرد والريح ألقدا الناس في بيوتهم في هذه الجمعة الحزينة . عبرا كوبري الجلاء إلى الجزيرة . على اليسار شارع أبو لفدا . انحدرا يمينا في الشارع الصيق المؤدي إلى شيراتين الجزيرة . رصيف ضيق وبلا زور في هذا اليوم العاصف . حتى السيارات التي كانت تركن هنا عادة تركت المكان . جلست شيرين وجوارها فخر الدين صامتتين . اجتهدت

شيرين في تصنع الهشامة .

أوماً فخر الدين برأسه ونظر إلى شيرين في عينيها . حولت وجهها نحو
شيراتين القاهرة :

- يبدو أنهم سيشتدون ههنا آخر بجوارها

شيخ الهشامة على شفتي فخر الدين ثم وقفا في الصمت ثانية . هبت
ريح فجرفت أوراق الشجر الساقطة على الأرض . الحافة بين الرصيف وبين
النهر . أغلق فخر الدين سوستة النجاكت بيده . تداخلت شيرين في بلوغرها
لصوف . همست شيرين وهي ترمق فخر الدين بعين تختبره :

- يبدو أن الدنيا كلها حزينة .

- وهل هناك أحد آخر حزين؟

- أنا!

نظر إليها فخر الدين والتفت عيناها . نظرة فخر الدين مبللة بدمع
يقطر في قلبه صمتا . تراجعت عينا شيرين . نظر فخر الدين في الأرض
بين قدميه . ودق السور بظهر قدمه .

- ههلا حزينة؟

رق صوت شيرين :

- لماذا تقول ذلك؟

هز فخر الدين رأسه وبظر بعيدا ولم يجب . استطردت شيرين :

- هل ممكن تشك لحظة أنني أحبك؟

- أنا ...

همست فخر الدين . رق صوت شيرين واختلق .

- لماذا لا تريد أن تفهمني يا فخر الدين؟ أنا أحبك . ولا أستطيع

تحمل حياتي بدونك . لا أستطيع الحياة بدونك . ألا تفهم معنى أن تكون كل حيوط حياتي معيقة بك؟ لقد فكت حياتي كلها . وأنا غير نادمة على ذلك ، بالعكس . سعيدة بك وبحيبك .

- أنت لا تستطيعين . ببساطة شديدة . التقليدية والمحرز مترسخان بداخلك . لا تستطيعين حتى أن تتركيني أهك قيودك وأخذك .

. أنت الذي لا تستطيع أن تضحي بأي شيء من أجلي . أنت تعبد نفسك يا فخر ولا تريد أن تتزحزح قيد أنملة من أجلي .

- أنت تعلمين جيدا أنني أستطيع أن أضحي بأي شيء من أحلك . أي شيء ولا يوجد في الدنيا ما أفضله عليك . أنت تعلمين جيدا كم أحبك .

نكن ما تطليفيه مني ليس تصحية . أنت تطليين مني أن أتعير . أتنازل عن كل شيء نبيل بداخلي . أتنازل عما هو سيب وجودي ومبرره ، ولو فعلت ذلك

لن أكون فخر الذين الذي عرضيه وأحببته . سأكون شبهه فقط ، وستكونين أنت أولى واحدة تشتكي من غياب هذا القديم . مسنحيل! أنت تريدين مني

أن أتنازل عن تفردنا وعن حلمنا نفسه . ولم ؟ من أجل مظاهر ليس لها أي مبرر ولا تؤمين أنت نفسك بها . ولكنك لا تستطيعين الوقوف في وجهها .

- لقد تنازلت عن أشياء كثيرة . أنا لا أطلب منك أن تسكن على التبل أو تشتري سيارة آخر موديل . أنا أطلب فقط الأشياء الأساسية . الحد الأدنى

للحياة الإنسانية ، بيتا بيت يلما!

- هذا كلام عام جدا! بيت بجمعنا! موافق طمعا ، لكن أي بيت؟

- بيت . بيت آدمي لا أقول بالتكليف ولا في جاردن سيتي .

- هذا غير وارد أصلا . لا تكليف ولا جاردن سيتي . أنت تتحدثين عن

عالم لا أحبه وحلم حياتي أن أعيره . هذه ليست معاييرنا يا شيرين!

- نعم ، لكن أيضًا ليست معاييرنا أن نُسكن على السطح هي بين السرايات .

ما لها بين السرايات؟

- ربالة

- هذه «الربالة» هي الدنيا الحقيقية . هي المكان الذي عشت فيه حياتي كلها في هذا البلد . وهؤلاء الناس هم الناس الحقيقيون وهم الذين يمشون مصر كلها وليس الحرامية بتوع المهندسين وجاردين سيني!

- أعتقد أنه لا داعي للاستفزاز والشتيمة ثم إنني لم أطلب منك أن تكون منهم .

- لا ، أنت أذكى من ذلك يا شيرين . أنت أذكى من أن تطلبي مني المستحيل . أنت تطلبين أقل قليلًا . في البداية أعمل في المكتب بجوار قضايا المجانية ، ثم بعد ذلك ، أتوقف عن القضايا المجانية وأتسرع للمكتب وقضايا الفلوس ، ولفترة فقط يا فخر الدين بعد ذلك أنت حر . والفلوس مهمة يا فخر من أجلنا ، ثم تتطور قليلًا . لا داعي للبطولة الزائفة ومهمة المحامي الدفاع عن موكله وليس الفصل في القضايا ، وعليها كلما كان الموكل غنيًا كان ذلك أفضل .

- أنا قلت هذا؟ هل هذه هي فكرتك عني؟ ولما أنا بهذا السوء لماذا

تحبني إذن؟

- ماذا قلت إذن؟

- قلتُ ، لمفروض تنبيه أكثر للعمل في المكتب في هذه المرحلة . لم أقل لك ، رفض القضايا المجانية ، لكن أيضًا من غير المعقول أن ترفض قضايا كبيرة لمجرد أنك تظن أن أصحابها مذبذبون!

...

- نعم لا تنهكم . أنت تعلم جيداً أن هذه القضايا سيأخذها محام غيرك وسيكسبها وسيكسب من وراثتها . أي أنك - وأنا معك طبعاً - الوحيد الخاسر هي هذه اللعبة ، وبلا جدوى .

- لكنني لن أكون قد اشتركت هي تهرئة مجرم .

- النتيجة واحدة ، مع طارق بسيط وهو أننا خسرنا .

- أنا محام يا شهيرين ولست تاجرًا .

- ذكنا نريد الزواج سنحتاج لبعض التجارة ، ثم إن التجارة لا حيب ولا حرام .

- ولكن ليس أنا يا شهيرين . ليس أنا!

أرأيت؟ لا نستطيع أن نترشح عن نفسك قيد أمة

هناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يترشح عنها دون أن يحس نفسه وأنا أيضًا .

- و أنت أيضًا ماذا؟ لا نستطيعين الترشح عن الأصول والصح

والمروضة وعن معتقدات السيد ، لوالد الذي لا يحترم سوى المال؟ بالعكس لقد ترشحت كثيرًا ، ولكن هناك حدود .

- حدود .

- نعم هناك حدود . وهل يتحتم على أن ألبس ملاءة نف وأنزل أملاً

صفحة الماء من الشارع لكي أكون ثورية ومحترمة؟ ألم تر بذمتك منظر

السلم والزبالاة الملقاة عليه؟ والسمات القاعدة هي المدخل ومشويات الفسيخ؟

ما هذا؟ والمياه التي تخر عنك من السقف طول الشتاء ، والرشح على

الجدران؟ وأولادنا إن شاء الله يلعبون في شارع مع النبال المقرقة التي

يمرح لذياب على وجوههم؟ أهذه هي الثورية والأحلام والدنيا الجديدة؟

- هذه هي البيئة التي أعيش فيها ، وإذا كانت سيئة فدورها أن تعمل على تغييرها وليس الهرب منها لأنها في كل مكان .

- أنت حر فيما تفعل ، أما أنا فلا أستطيع العيش في مكان كهذا .

- وما الفرق بيننا؟

- الفرق أنني لا أستطيع . ارتحت؟ نعم لا أستطيع . سمني برجوازية أو

متحفلة أو تقليدية . مثلما تحب . لكني لن أعيش في بيئة كهذه!

- وأنا لا أستطيع أن أفعل ما تطالبينه مني .

هبت شيرين وافقة .

- الموضوع انتهى إذن ، فكر جيدا فيما قلته لك ، وإذا وصلت لنتيجة

كلمني في التلفزيون .

عبرت شيرين السور الحجري بقدمها واهتمدت مساعدة الطريق نحو

كوبري الجلاء . زبح أخرى كهب وتمصف بأوراق الشجر الساقطة على

الأرض الطينية الجافة بين الشارع والنهل .

* * *

رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة

على وردة يابسة

أعاد لها قلبها

وقال . يكلفني الحب ما لا أحب

يكلفني حبها

وبام القمر

على خاتم ينكسر

وطار الحمام

رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة

على دمة يائسة

أعادت له قلبه

وقالت يكلفني الحب ما لا أحب

يكلفني حبه

ونام القمر

على خاتم ينكسر

وطار الحمام

وحمل على الجسر والماشقين الظلام

يطير الحمام

يطير الحمام

محمود درويش

* * *

فأنت منار وهي شاحبة الوجه لاهثة

- نعم مات . كانت شهرين قد تركت المكتب من فترة وسافرت إلى فرنسا مع والدها . وكان فخر الدين ما زال يأمل في أن تعود إليه . كان في حالة يرثى لها ، حالة اكتئاب كاملة . وقد حاولت أن أساعده وأن أساعد شهرين ولكني لم أستطع . كان كل منهما على صواب بشكل من الأشكال وكنت كلما ناقشت أحدهما لا أستطيع أن أدحض منطقته ، لكن المنطقتين كانا متناقضتين تماما . شهرين كانت أقوى في الواقع . كانت غاصبة بشدة مما اعتبرته تخلياً عنها من جانب فخر الدين . وقد مكثها ذلك العصب من احتمال الانفصال ثم ساعد السفر على تأكيد قرارها بخروج فخر الدين من

حياتها . وبعد ذلك مثلما تعلم تزوجت من أحد أعضاء السفارة المصرية في باريس . كان خير خطبتها هو الذي قضى على بقية أمل فخرالدين في عودتها . وقد مات بعد ذلك بقليل . لا أريد الدخول في تفاصيل ذلك . أنت تعرف القصة ولا شك . من الناحية الطبية اكتئاب حاد مصحوب بسوء تغذية أدباً إلى هبوط في القلب ثم الوفاة . قال لي الطبيب : إنه كان يشك في أنه انتحار بتناول كمية كبيرة من الأقراص المهدئة ولكن ما يهمني هو الناحية النفسية لقد أحسست أن فخرالدين مات من قبل ذلك بفترة . مات موتاً بطيئاً في الفترة الأخيرة من حياته . كان في تدهور مستمر منذ بدأت مشاكته مع شيرين . وكان تركها له الحلقة الأخيرة في تدهور نفسيته . رحمه الله على قدر صلواته الخارجية كان هشاً للغاية من الداخل . ربما هشاً أكثر من اللازم . عندما رأيته قبل وفاته بأسبوع لم أعرفه كان شبحاً نحيلاً ومظلماً . كأنما اسجل إلى شفافية مطلقة إذا حاز التعبير . وحيل إليّ أنني أرى من خلاله . عندما أخبرته بخبر خطبة شيرين وكان ذلك يوم الجمعة فيما أذكر - شعرت كأنه تلاشى من أمامي تماماً . لم يكن رد فعله عنيفاً . هي الحقيقة لم يكن له رد فعل . لقد نظر إليّ وحيل إليّ أنني رأيت طريقاً في عينيه للحظة ثم لا شيء . انطفأت عيناه وانطلقاً هو نفسه . ولم يرد علي . ظلمت واقفة حوالي عشر دقائق ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة . لم يتحرك . لم يرمش حتى . رحمه الله . كان موته رحمة له ولمن يحبونه .

العشاء الأخير

وأكلت من الرغيف الفد
ما يكفي المسير
إلى نهايات الجهات
عشاؤكم ليس الأخير،

محمود درويش

كشمت ابتسامتها عن أسنانها البيضاء ثم عادت شفتاها واسطقتا مرة أخرى وقالت هي جديّة ،

- لا أعرف ماذا أقول لك . رحمه الله . لقد تأثرت جدا بالحبر وظلت فترة طويلة في حالة من الاكتئاب والعجز عن العمل بعد سماعي بهذا الحبر المشؤم
دق جرس التلغيمون فوضعت يدها على الساعة وابتمت ثانية .

- نسيت أسألك ، تشرب شاي؟

ردت على التلغيمون قبل أن تسمع الرد مني .

- نرجس مصطفى صباح الخير .

ظللت أنأمل المكتب . بينما انهمكت الأنسة نرجس في الحديث ،تليفوني.
مكتبها شديد الأنافة . بجوار الباب أرخف صغيرة مكتظة بملفات سوداء
مكتوب على كموبها بماء الذهب . كتب قانون قديمة في دولاب رجدي
مفلق . حامل معلقة عليه تقارير كمبيوتر في ملصقات ضخمة . أوراق متناثرة
على مكتب الأنسة نرجس ودبابيس وتليفونات . كانت المحادثة ما زالت
مستمرة وتبدو طويلة . تسالت خارجا إلى مكتب السكرتيرة ريثما تنتهي
مكالمتها . كان مكتب السكرتيرة حاليا . جلست صامتا على المقعد المواجه
لمقدمها الخائبي . مرت لحظة ثم سمعت صوت دق كعب عال على السلم .
دخلت سالي وهي تلهث . وضعت حقيبتها على المكتب ونظرت للساعة وهي
تسوي شعرها بيدها اليسرى . نظرت إليّ نظرة عابرة وجلست على مكتبها
أخرجت علبة سجائر وفتحت زرار قميصها العلوي وهي تهوي على صدرها
تتهدئ بعمق ثم أشعلت سيجارة . نظرت إليّ ثانية وسألت .

الأستاذ جديد معنا؟

عندما عرفت شخصيتي ومهمتي سألتني إن كان هناك حديد هي الموضوع فقدت أساء بعض الاستقصاءات . أريد أن تحكي لي عن حياتك هي المكتب . ماذا كان يفعل؟ كيف كان يتصرف في حياته اليومية هناك؟ امعالاته ، مشاكله . كل الأشياء العادية التي لم تذكرها في التحقيق . قالت

- كل ما أعرفه قلته في التحقيق . كان مجنوناً بعض الشيء . وأحياناً كان مجنوناً جداً . ولكنه كان طيباً أيضاً . لقد كنت حذرة معه منذ البداية؛ لأنه شخصية متقلبة وهوائية . كان شديد الهدوء . والبرود أحياناً . وكان ذلك يستقر بعضهم هنا لكنه كان يريحني أنا شخصياً . لأن لدي ما يكفيني من الزعيق طوّل اليوم (وأشارت إلى مكتب الأتية نرجس) . كان ذلك أيضاً مريحاً أحياناً على مستوى العمل . أذكر أنه ستلم مرة قضية مستعجلة جداً بعد أن رفضها الجميع لضيق الوقت المتبقي على نظرها . واستطاع أن يلحقها وكسبها فعلاً . وذلك في الحقيقة كان ميمت . عجاب لأستد حازم به . سمعت سالي لحظة ثم قالت وهي تسوي قميصها بيدها :

- الحقيقة أنه كان غريب بعض الشيء . في مرة جلس مكان حضرتك هنا ساعتاً حوالي نصف ساعة . وهجأة بدأ يسألني أسئلة غريبة من قبيل لماذا خشرت العمل في المكتب هنا وماذا أريد أن أفعل في حياتي .. إلى آخره .

هزت رأسها وهي تتذكر . نظرت إلى وهي ساهمة بعض الشيء ثم قالت لي : تعرف؟ أحياناً كنت أتذكر هذه الأسئلة بعد ذلك . وأسألها لنفسها : الله يرحمه . أكثر من تصايقوا منه هي المكتب مدام سوري . عمل معها ذات مرة في قضية لمدة ثلاثة أيام ثم أرسل لها ورقة مع الوكيل يقول لها إنه غير مستعد يبيع سميره ويدافع عن مجرم! كان ذلك قبل موضوع قضية

المعذرات بكثير . من يومها وهي لا تطيقه .

* * *

كان إدوارد منحنيًا على مكتبه بكرشه الضخم يدون ملاحظات في كارت أبيض وسماعة التلهمون معلقة على كتفه الأيسر . ابتسم مشيرًا لي بالجلوس ثم وضع سماعة التلهمون وواصل الابتسام .

- أنا آسف جدا ، ليس لدي وقت للاستفاضة في الحديث قلدي محكمة . حضرتك زميل وعارف .

ابتسمت ابتسامة باهتة فأكمل :

- على العموم لقد قلت كل شيء في التحقيق . فقط أريد أن أضيف إضافة ، الأستاذ حازم هو المسئول . لقد قلت له من البداية إن هذا شخص مجنون رسمي وسبب في مشاكل . حضرتك رجل قانون وفاهم . هذا النوع الذي يظل يتحدث في شعارات الحق والظلم أكثر مما يعمل في المحاماة نفسها ، هذا النوع مكانه ليس المحاكم . مكانه الصحافة ، الانتخابات ، يكتب شعرا ، هو حر في نفسه لكن بعيد عنا وعن عملنا ، حضرتك عارف بالمحاماة ، الأستاذ حازم لم يقتنع بكلامي ، إذن ماذا تريد مني أن أفعل ؟ اربط العمارة مكان ما يريد صاحبه ، وقد كان . وهذه هي النتيجة ؟ قام إدوارد من خلف مكتبه :

- اعتذرتي ، يجب أن أذهب الآن للمحكمة ، تحياتي لمحمود بك

* * *

عندما عدت للآنسة نرجس كانت قد انتهت من معادلتها التليفونية الطويلة . دخلت فابتسمت لي وطلبت من المسكوتبة عدم إزعاجنا . كانت نرجس هي الشخص الرئيسي المستهدف من زياراتي للمكتب في الواقع ،

فقد كنت على علم مسبق بمواقف وأقوال الآخرين . جلست نرجس أمامي وقالت في هدوء :

- فطر الدين عيسى كان شابا ممتازا بجميع المقاييس . وقد ارتفعت له من البداية . صدقتي . لا تستمع لما قد يقوله لك البعض هنا . فطر الدين كان إنسانا تقيا إلى أبعد الحدود وربما كان ذلك السبب في المشاكل التي جرت له هنا ، كان مثاليها زيادة عن الممكن . في الواقع هو كان يحب مهنته جدا ويحترمها . كان يحترم قيمة العمل نفسه كمحام وكان شديد التمسك فيها وهذا أيضًا كان يثير العدوات من جانب من هم أقل منه قدرة، خاصة ممن هم أقدم منه في المكتب والدين لم يتحملوا الثقة التي كان الأستاذ حازم وأنا نوليها له بالرغم من حداثة عهده بالمهنة وبالمكتب معا . والحقيقة أن فطر الدين كان حادا أيضًا في تصرفاته . كان صريحًا لدرجة جارحة في بعض الأوقات ، وقد كلمته كثيرًا في ذلك . قلت له إن الموضوع الواحد يمكن تسويته بشكل حاد وحارح ويمكن تسويته بشكل لبق . وكان يقبل كلامي ولكنه رحمه الله كانت الحدة في طبيعه .

أنا شخصيًا أعتقد أن سبب هذه الحدة هو الإخلاص الشديد والمثالية ولكن طبعا ذلك لا يدرر سلوكه.

من ناحية ثانية فإنه كانت له وجهة نظر خاصة في المحاماة وفي المكتب . كان رأيه أن المكتب مثلاً يجب ألا يقبل قضايا نمرق أن أصحابها مذبذبون ، طبعا هذا خلاف كلاسيكي حول دور المحامي والقاضي ولكن هي نهاية الأمر ، وبقض النظر عن أن هذه وجهة نظر مثالية أو حتى خيالية أكثر منها عملية . فهذا المكتب ملك للأستاذ حازم وهو الذي يحدد سياسته العامة وهو الذي يعين المحامين ويقيلهم . وهو غير مسئول أمامنا . أنا مجرد مديرة تنفيذية لهذا المكتب أنحرك في ضوء المخطوط العامة التي

يحددها لي . وكان رأيي الذي فكرته له هو أنه يعمل في هذا المكتب ، وعليه أن يخضع لنظمه وقواعده وأن ينفذ سياساته . فيما بعد ، عندما يكون له اسمه ومركزه ومكتبه الخاص . وهذا شيء أكيد في نظري ، يستطيع أن يطبق ما يشاء من نظم حتى لو أراد أن يعمل بالمجان . وهي الحقيقة فإن هذه كانت طريقة نيقة لإفهامه طفولية أفكاره هذه . وهذا شيء لم يكن ليعرفه إلا بالخبرة وبالتمرس في المهنة . مع الوقت فقط كان سيدرك أن لتفرقة بين المذهب والبريء بالنسبة للمحامي مسألة صعبة وغير مهمة في نفس الوقت ، وأن للمحامي ليس خليعة الله هي الأرض ولا المسئول عن العدالة الإلهية ولكنه حلقة في نظام معقد . نحن نعيش في مجتمع متشابك ومركب ولكل منا دوره . حتى القاضي لا يستطيع أن يزعم أنه يطبق العدل في الأرض . القاضي نفسه حلقة في سلسلة . ومدى عدالة حكمه مرتبط بالسلسلة كلها . إن كانت الحلقات الأخرى مختلفة سيكون حكمه هو أيضًا مختلفًا . ثم هي النهاية مسألة العدل هذه نسبية . ما الذي يشكل عدلا وما الذي يشكل ظلما ومن الذي يحدد ذلك ؟ هذه فلسفة القانون والقضاء وليست المحاماة . وهذه الأسئلة تشغل بال طالب الحقوق ولكن مع الوقت ينتهي إلى استعالة لقطع فيها هيئتها في غمرة الحياة ويندمج في دوره كمحام . هضر الدين كان غريب الشأن . لم يكن ينسى ولا يهأس . كان كل يوم كأنه أول يوم له في المحاماة . والنتيجة تمررها حضرتك أكثر مني .

- 2 -

شارع المعهد الجديد صيق ونصف مسفلت . تنبعث الروائح والأصوات المختلفة من المحلات على الجانبين وتنبعث النظرات المستفسرة من الوجوه الساكنة . بائع بطيخ يحتل ناصية على اليمين . هنا كان يعيش

فجر الدين . أمام بدع المطبخ محل ضيق يبيع أرغفة لكفتة الرعيف بحمسين قرشاً . دخلت هي الشارع الضيق المتعرج إلى اليمين . محل لبيع شرائط الكاسيت يصدر بأصوات متباينة . باب عريض من الحديد لصديء في مواجهته . دفعت الباب هأز . دحيت . بصمة سلالم عريضة ثم سلم ضيق وعال . فوق السطح . في الطابق العاشر توجد الشقة التي عاش فيها فجر الدين الأيام الأخيرة من حياته . سر باب الشقة وهو ينفتح أمامي . لم يدخل أحد الشقة منذ إغلاق ملف التحقيق . ورفضت صاحبة المنزل أن توجرها . عندما أخبرتها بحقيقة مهمتي أخرجت المفتاح من صدرها وأعطته لي دون كلمة واحدة . الشقة مكونة من غرفة واحدة وصالة صغيرة بها نافذة واحدة تظهر السماء منها وقمة المنزل المجاور . حمام صغير ومطبخ محشور بين الصالة والحمام . في المطبخ ، السقف الخشبي به بقعة كبيرة من الرطوبة والرشح . تحتها بقعة على الأرض من أثر تسرب المياه . خرجت إلى الصالة ثانية . منضدة صاج ومقعد عريض على الحائط . خطوت باتجاه غرفة النوم . كل شيء في مكانه منذ آخر يوم خرج فيه فجر الدين من البيت ومثلما وصفته معاضر الشرطة . فراش منخفض على الجانب الأيمن عليه أغطيته بيضاء غير مرتبة . فوق السرير ، على الحائط ، ثلاثة معلقَات صغيرة عليها صورة للمونايزا ولطفلين صغيرين . على الجانب الأيسر مكتبة مكعدة فيها الكتب والشرائط . التراب يعلو كل شيء في هذا المكان المهجور . على المكتب طاقم جلدي بني اللون قديم ومشق . قلبته على ظهره فوجدت إهداء وتوقيع شهرين حسن . نتيجة المكتب مثبتة على تاريخ الحادث .

نظرت إلى المرأة المحوز وهي واقفة عند الباب . قالت لي حمادة .

هل قبصتم على الفتنة؟

في المطبخ الصغير وجدت بوتاجاز أبيض . ناهضة صغيرة أمامها قلة ماء ناشفة ، لا قطرة فيها .

- 3 -

كان علي أن أقابل الأستاذ عباس فخري في دار لقضاء العالي . عندما بدأت أركن سيارتي في الموقف المجاور اجتاحتني شعور قديم جدا . شعور لم أحبه منذ شعور طويلة . رايت المنادي نفس المنادي الذي كنت أراه عشرين مرة في الشهر . دعفت له نفس البقشيش الذي كنت أدفعه له ومرت من السيارة وتوجهت للسالم العريضة وضمت قدمي عليها . كم من الوقت مر علي دون أن أدخل هذا المكان؟ صعدت السلالم ودلست من بين الأعمدة الصحفة الشاهقة ووجدتني صغيرا جدا وفير مرئي بملفاتي الصغيرة هي حقيبتني الصغيرة . كان الناس يتدافعون خارجين داخلين مثل أي يوم آخر . وكان المحامون يحرون ويلهثون مثلما كنت أفعل . كان كل شيء مثلما كان ومثلما كنت . وكنت أظن نفسي أنا الفابعة بمكتب النائب لعدم محور الحركة والنشاط . ذهبت فلم يتوقف شيء ولم يحدث أي شيء . ولا أحد يمرقني ولا أحد يقف لي وأنا أمر من بين الأعمدة إلى تبهو الدخلة حتى الساعة الذين لم أكن أكاد أسمع تحيتهم في الصباح وعند رحيلي في المساء . صرت أرقبهم من طرف عيني عن أن أعرف على أحد منهم أو يذكرني أحد . كانوا جميعا يرقبونني في استفسار . لم يكن أحد هنا يمرقني . كان الأستاذ عباس فخري وقتا مع عملاء له ومنهمك في حديث طويل . وقفت بجوار العمود في انتظاره حتى أتى . خرجنا من الدار مقاً وعبرنا الشارع باتجاه النقابة . كانت لافتات الدعاية الانتخابية تملأ حديقة النقابة . مقاعد الحديقة البلاستيكية البيضاء ممثلة بأعصاء النقابة المنحرفين

معلق في ظهر الذئب -

في أحاديث الانتخابات ، المناضد ممثلثة بأكواب شاي وليمون وعلب سجائر .
جلسنا في طرف قصي بعيد عن الزحام وجاء الشاي ساخنا . قام الأستاذ
عباس فخري لتحية بعض مؤيديه واستغرق معهم في حديث صاخب . غاب
نصف ساعة كاملة أكملت فيها شرب الشاي وتلقف أسماء المرشحين
عاد إلي وانحنى علي بكرشه الضخم والسيجار المعلق دوما في فمه :
- سامحني يا أستاذ . حصرتك شاي .

هتزت رقبته السمكة المحاصرة بالهاقة البيضاء المنشاة . عمل بيده
ربطة عنقه وهو يجلس على الكرسي الذي يتسع بالكاد له واستطرد .

- لقد فصلت أن تجلس في الحديقة هنا وليس في مكتبي لكي تخلق جوا
غير رسمي . ما دام الحديث غير رسمي ، أنيس كذلك ؟

أومات برؤسي موافقا وهو يضحك ضحكة صعبة وينظر إلي . أطل
النظر ثم قال فجأة :

هل تحب أن تبدأ أنت أم أبدأ أنا ؟ أقول لك؟ أبدأ أنا . سعادتك شاي
بنمسيك لأي درجة الوقت ضيق . سمح يا سيدي العزيز . قصة الأستاذ
فخر الدين عيسى كانت فضيحة بكل المقاييس . فضيحة أولا للمكتب
المحترم الذي كان يمثل المذکور . فضيحة لإنجاعة التي سلمته ليسانس
الحقوق دون أن تُعزّه دور المعامي من دور النهاية العامة . فضيحة
للقبالة التي أعطته ترخيصا بمزاولة المهنة . فضيحة أخيرة للمجتمع كله
الذي فشل في تربية أبنائه إلى حد . هذا ، الولد كان ينبغي محاكمته ،
مثلته مثل الجندي الذي يرفض تنفيذ الأوامر في ميدان المعركة هل سمعت
في حياتك عن محام يقف في محكمة الجنايات وبعد مرهقة طويلة عريضة
في القانون والفلسفة وكل ما يخطر على باله . يطالب من هيئة المحكمة
بتطبيق أقصى العقوبة على موكله!! هذه كارثة! والله العظيم كارثة.

هذا ، معناه أن نفلق جميعا مكائنا وتروح بيوتنا ولا نعمل ، وفي التحقيق سيادته يقول ، إنه اكتشف أن موكله مذنبون وما لك أنت إن كانوا مذنبين أم أبرياء؟ هل شغلك أن تقرر من المذنب ومن البريء ؟ إذن ماذا يفعل القضاة؟ يترافعون عن المتهمين؟ شيء غريب كل إنسان في هذه الحياة له دور ، دور محدد ومرسوم والمفروض ألا يخرج أحد عن دوره المرسوم وإلا أصبحت فوضى .

تلتقط الأستاذ عباس أنفاسه ، أخرج مشدله الأبيض ومسح المرق من عصبون وجهه ، هر رأسه في أمسى ، فسألته :
- وماذا حدث بعد ذلك ؟

أبدأ أنا كما رأي أنه محنون محنون بالمعنى الطبي للكلمة ، أي لديه اختلافات عقلية ونفسية يحب تقويمها في مصحة . وإذا لم يكن محتوياً يجب محاكمته . وكان هناك فعلاً رأي في النقابة أن يحوله للقومسيون الطبي ليودعه في مصحة عقلية ، لكن الرأي الذي ساد في المجلس وقتها ورينا بسامحهم كان الاكتفاء بفصله وإيقافه عن ممارسة المهنة . وفي رأيي فإن ذلك لم يكن إجحاً كافياً من جانب نقابة تحترم نفسها وتحترم مهنتها .
صعد الأستاذ عباس ثانية فقلت له

- نعم أنا على علم بهذه التفاصيل ، ولكنني كنت أسأل عما حدث بعد ذلك .
- أي بعد ذلك ؟ هذا كل ما حدث .
- أقصد ما حدث بعد إيقافه .

- ما أدراني أنا بما حدث بعد إيقافه؟ أنا لم أسمع عن هذا المجنون بعد ذلك أبداً

- وقصة معامتي بين السرايات؟

صعد الأستاذ عباس فجأة ونظر إليّ بعدة . كانت ملامح وجهه

متحمة. احتلجت عضلة هي رقبته ونظر هي ساعته وهو يقف
أنا لا أعرف ما هي قصة محامي بين السرايات التي تتحدث عنها همد
ولكن قل لي، ألم يكن هذا الموضوع الكتيب قد أخلق؟ من الذي فخره ثابته؟

- 4 -

أسمر الوجه، أسود العينين، قصير القامة ضئيل الجسم.
- أنا علي.

قالها لي كأنه يذيع سرا. ثم صمت. ظلت أقص عليه تفاصيل مهمتي
وكان ينظر إلي طوال الوقت وهو يهز رأسه. سكّ، فظل ساكنا.
نظرت إليه. كانت حبات العرق تتسلل في بطن من جبينه إلى صفحة
وجهه. لم يكن ينظر إلي. كان ينظر في قدمي. ظلت ساكنا، ظل صامت.
مرت لحظات. نظر إلي فجأة وقال في لهجة صعيدية واضحة.

- وبمدين؟

- لا شيء.

همهم وغمغم وأطرق برأسه مرتين ثم عاد للصمت.

- أريد أن أقص ما رأيت، ما...

- اسمع يا أستاذ! أنا لا أريد أن تضيق وقتك معي ولا أريد تكسير دماغ.

ما فائدة هذا الكلام؟

- لا أفهم.

- همد عظيم! حضرتك بتكلم عربي؟ أنا بالكلمك بالعربي. بأسأل

سؤال محدد. ما فائدة أن أقص عليك كل القصة وأحكى وأوجع دماعي؟

هل سيفيد ذلك في شيء؟ هل ستمثل بهذه الحكايا شيئا؟ هل تستطيع أن

تفعل أي شيء؟

- شيء مثل ماذا؟

مثل «لله بحرب بيوتكم يا أخي ! ألم يكفكم أنكم قتلتم الرجل ؟ ماذا تريدون بعد ؟ ماذا تريدون قل لي ؟ أنا أريد أن أفهم ! هل تريدون أن تقتلونني أنا أيضًا ؟ ولم لا ؟ ممكن ! ممكن تقتلوا أي واحد ! هي أي يوم يطلع في دماغ واحد منكم أنه يقتل شخص ما فيقتله . يا ليتكم تقتلونني يا شيخ معه وأرحتونني من قرفكم وقرف العيشة معكم ؟

صمت علي وأطرق ثانية . ثم استطرد بعد هنيهة . كان ساهما سارحا - أنا والله لا أصدق ما حدث . حتى الآن لا أصدق ما حدث . وأحيانا أقعد مع نفسي وأفكر كيف حدث ذلك . ولم ؟ ولا أستطيع أن أبلع النتيجة التي أصل إليها . دماعي ستفجر . وأصبح بجيتتي صدام غريب لا أعرف ما أصله ويبقى في رأسي طول اليوم . قل لي أنت أستاذ لماذا قتلوه ؟ ألم يتحملوا وجوده إلى هذه الدرجة ؟ تعرف حصرتك . فخر الدين كان معروفًا في بين السرايات كلها . وبالذات منذ رفته من النقابة . كان قد تخصص من المكتب وقرفته وتفرغ للناس . كنت أقعد معه على القهوة التي على ناصية الشارع . نشرب شاي . نلعب طاولة . وكانت الناس تأتي إليه وتسأله . كل من عنده مشكلة أو قضية كان يشرحها له بالتفصيل ويحدد له الإجراءات التي يجب أن يتخذها وكان يأخذ ثاني يوم لأي معام من المحامين الشباب العطلتين على أبواب المحاكم ويفهم القضية بكل جوانبها . حتى أرقام المواد التي لها علاقة بالقضية كان يحددها للمحامي . وكان أيضًا يمشي على أقدام المحامي . لم يكن يتقاضى عن ذلك أجرًا أبدًا . لكن صاحب المشكلة كان عادة ما يرمي لصاحبة المنزل صندوق فراع أو هাকهة أو شيء من هذا القبيل . وكانت هي تتولى إعداد الطعام لفخر الدين . أحيانا كان صاحب المشكلة يسألني وخصوصًا لو كان من خارج بين السرايات

وكنت أقول له يدع أي مبلغ يرصيه إلى صاحب محل الكفة الذي كان يرسل لنا العشاء على القهوة من حين لآخر .

ومع مرور الوقت اشتهر فخر الدين في الحي كله . بل في بر الحيزة كله وكان يأتيه ناس من المنيب ومن أم المصريين ومن كفر ظهرمس وصفط المنين ومباية . وبدأ المحامون الشباب يأتون للقهوة للجنوس معه واستلام القضايا بدلاً من أن يذهب هو إليهم . وتوطدت علاقتهم به . وكنت أحضر هذه الجلسات . كانوا أكثر من عشرين محامياً وكان فخر الدين يوزع القضايا عليهم ويحدد لهم الأتعاب وفقاً لحالة صاحب الحالة . وأصبح هؤلاء المحامون يأتون كل ليلة تقريباً حتى لو لم يكن هناك قضايا . وكان يأتي من يأتي من أصحاب القضايا . وكانوا في معظمهم غلبة . وأحياناً كان الخصمان يأتيان معاً فيفصل بينهم فخر الدين مباشرة . وأصبح سكان الحي كلهم يمتدحون به ويحجلونه ويحبونه مثلما لم يحبوا أحدًا من قبل . وعرض عليه كثير منهم تزويجه من إحدى بناتهم لكنه كان يعتذر في أدب . وأقسمت صاحبة المنزل الذي يسكن فيه ألا تأخذ منه شيئاً طويلاً حياتها . وصار الطعام يأتي إليها من سكان الحي كلهم بالندور وهي تعد له . وفي مرة حاول صاحب القهوة وصاحب محل الكفة أن يستأثرا هما الاثنان بإمداد صاحبة المنزل بالطعام لفخر الدين فتأثر سكان الحي وكادت تصبح خنافة وهددوا بإبلاغ فخر الدين . فنزع الرجلان فوراً . وأصبحت هذه المادة عرقاً أو أقوى . وصار فخر الدين يخطو أمام كل بيت فيخطو منه السلام . ويلاصق الصغار المجتمعين أمام الباب . ويدعوهم الرجال بالدخول وهو يشكرهم في أدبه الجم وتواضعه الدائم . ومن أمانته عهد إليه القادرون بتوزيع ركاة المدل والمطر فكان ينفقها في مواضعها والله على ما أقول شهيد . فقد كن رحمة الله يعرف المحتاجين والمعوزين

والأراميل وطلبة العلم وكان ينفق عليهم في السر من هذه التركة . ومرت مرة رفضت مستشفى بولاق الدكتور إدخال مريض من الحي فجمع الناس وذهبوا للمستشفى جميعاً ، فلما رأَت إدارة المستشفى سكان الحي كله أمام الباب حاهوا وأدخلوا المريض ، ومن يومها استقام لأهل الحي العلاج في المستشفى . رحمه الله لم تحدث أيامه ولا حادثة مزقة واحدة في الحي كله . وكانت سيرته موضع حديث الناس من البراجيل شعاعاً حتى المعاط جنوب الجزيرة .

صمت علي . كان ما زال ينظر في قدمي قلت :

- وموته ؟

- قال : قتله .

- وقتله ؟

- قتلوه الحونة . قتلوه الكلاب . قتلوه من قض مضاجعهم هدأة باننا

وراحتنا وأطمئنان عيشتنا .

- وأين كان أهل الحي ؟

...

- وأين كنت أنت ؟

- أطرق علي ، ثم قال :

- في أسوان .

-5-

أحرق فخر الدين رأسه من تحت البطانية . فتح عينيه ثم أمطقهما ثانية بقايا الضوء الذي تسلل داخل جفنيه يوخر مقلتيه . هزك جبينه بيده ثم أسند ظهره لسريز . ما الذي أيقظه مبكراً هذا الصباح . لا يدري . شيء غريب في

جو الغرفة لا يدري ما هو . نزل مبطنًا من على السور إلى الأرض تتعفن قدماء زردتي الشبشب . خارجًا من غرفة النوم إلى الصالة الصغيرة . أدرك فخر الدين أن هناك أمرًا غريبًا يسبح في هواء الشقة كلها . صمت غريب يطبق على المكان والزمان ويمتد ليشمل الكون كله . صمت جائم يصدره على الهواء وعلى الأشياء . فتح الحنفية فلم تجيء المياه . بحث عن الماء في المطبخ . تحت حواسه والماء يجلو بقايا الحلم من ثاي النوم في وجهه . الصمت الغريب يكسب الهواء مرارة . النافذة الوحيدة في الصالة مفتوحة على ضوء بلا شمس . ما الذي أيقظني مبكرًا هذا الصباح ؟ بقايا العشاء لا تزال على المائدة الصاج المربعة . هذا الصمت مبالغ فيه . لا صوت يأتي من الخارج . حتى نقرات المطر الليلي توقفت . حتى بحيرة الماء التي تكونت على السطح الخشبي توقفت عن تسريب قطراتها في المطبخ . وقف فخر الدين في الصالة يحديق في النافذة المرتفعة . لا شيء يبدو منها سوى سماء بيضاء مفعمة بلون رمادي داكن و قبة المنزل المجاور . نظر فخر الدين إلى قمة المنزل المجاور وأمعن النظر . من الذي ضلّط على نومي حتى خنق لحظته العابرة فأوقفها وأخرجني من الحلم إلى النوم إلى اليقظة ؟ . نظر فخر الدين طولًا إلى قمة المنزل المجاور ثم ارتسم على ملامحه هدوء وسلام . استدار إلى غرفة النوم فتح باب الدولاب الخشبي القديم . مد يده إلى جلبابه الأبيض وسرواله الأبيض . بحث عن جوربه الأبيض والتقطه . أكمل فخر الدين ارتداء ملابسه . حذاء كاوتشوك أبيض . أبيض شامق . وصباح . عاد فخر الدين إلى الصالة وجال ينظره على الأشياء مودعًا : المنضدة . الكرسيين الخشبيين . ساعة الحائط القديمة . المقعد العريض ذي القاعدة الساقطة قليلًا . طرف السرير البادي من الباب الموارب . صورته وهو صبي يرعى الغنم . النافذة وقبة المنزل المجاور فتح الباب وخرج .

ختم

«سقطت قلاع قبل هذا اليوم
لكن الهواء الآن حامض»

محمود درويش

عام كامل قضيته هي محاولة استقصاء ورواية أحداث مقتل فخر الدين.
عام كامل . تركت خلاله عملي وأهلي ومستقبلي الذي كان يجري بين يدي
وكنت أرى آخره من بدايته . عام كامل قضيته متنقلا بين البلاد التي وطأتها
قدما فخر الدين أو تلك التي هفت إليها نفسه . قرى نيل مصر ومدنها . مقام
وزوايا . أجزان وحقول وبيوت وشوارع . صحاري وبحار ومراكب وسجون . كل
شهر مر فيه مررت خلفه . كل حائط كتب علي جيرة قرأته . وكل نظرة رأها
استعدتها ونظرت فيها . وحاولت ترتيب كل المتناقضات التي سمعتها كي
أفهم زمنه وأيامه ومقتله الذي تأكد لي مرات عدة . وبذلت في ذلك جهدا
يصعب على تصوير مقداره . إلا أنني في النهاية فهمته . وفهمت مقصده .
والآن . ماذا أفعل بنفسي التي تفتحت فشريرت من حقيقة مقتله حتى
أترعت؟ ماذا أفعل أنا الذي لم أعد متعلما كنت؟ ماذا أفعل بكل الذي دخلت
فيه ورأيتة فحقير قلبي وباطني ونفسي؟ وماذا أفعل بهذه الحقيقة المرة التي
تأكدت لي؟

هل أغرقها في نفسي وطياتها وأقنض من فوق هذه الهوة الهائلة التي
تفصلني عني أنا القديم؟

أم أترك نفسي تغرق في مرارة حزن هذا الفهم المفجع ؟
وهل تبقى في نفسي طبقات تحتل أن تطوي شيئا من بعد ما رأيت؟

عمر فارس

نبذة عن المؤلف

- كاتب ودبلوماسي مصري ، يعمل حاليًا أستاذًا زائرًا للعلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- صدرت له رواية « أسفار الفراعين » (1999-2009) ، ورواية « غرفة العنابة المُركرة » التي رُشحت لجائزة الهوكر العربية لعام 2008.